الساحرة الرقيقة

تأليف : باربارا ماكوركوديل
ترجمة : السيد وفائى



الساحرة الرقيقة

كانت زاريا فتاة هادئة منطوية على نفسها ، لم تعد نفسها لحياة الثراء والترف التى هبطت عليها فجأة ، فألفت نفسها أنها أصبحت من كبار الأثرياء تمتلك يختا فاخراً . وهيأت لها الظروف انتحال شخصية فتاة كان من المفروض أن تعمل مع مستأجر هذا اليخت فى رحلة إلى الجزائر .

ووجدت زاريا نفسها وقد ألقت بها الأقدار بين زمرة من الأشرار ، فاتجهت إلى تشاك تيرنر ، الذى توسمت فيه القدرة على حمايتها ، لتلجأ إليه وتلوذ به . وكان لتشاك ، هو الآخر ، مشكلاته الخاصة به ، فربطت بينهما المآزق التى كادت أن تبلغ بهما حد الكوارث أحيانا .



١٠ قروش
فى : ج.ع.م

سُور الأزبكية

عُمر زَينبْ يوسُف



الساحرة الرقيقة



تاليف : باربارا ماكوركوديل
ترجمة : السيد وفائي

الفصل الاول

« رباه ! ماذا أرى ! » .

لم يكن يطيب للشريك الاصغر فى مؤسسة بارنسون ، وباترسون الا أن ينصب من نفسه حكما لكل ما يتصل بالنساء . وكانت الفتاة الجالسة فى مواجهته فوق المتعد الجلدى الوثير ، تختلف تمام الاختلاف عن غيرها من العملاء العاديين .

وبدأت تتحدث فى صوت خفيض ، رخيم وقد ارتج القول عليها قبل النطق بالكلمتين الاخيرتين :

ـ لقد أسرعت بالحضور بمجرد استلامى رسالتكم .. وطيها التذكرة .

وبدت الحيرة فى نبرات صوت مستر آلان باترسون وهو يقول :

ـ لقد رأى شركائى أنه من الافضل أن نبعث بها . فلم نكن ندرى ما اذا كنت ، بعد وفاة والدك ، فقد وجدت صعوبة فى .. فى مواجهة الامور .

وانفرجت شفتا الفتاة عن ابتسامة وان كانت عابرة ، الا أنها نقلت الى الرجل الجالس أمامها ما كان يجول فى خاطرها . ثم قالت معقبة :

ـ كان جميلا منكم أن يدور هذا بخلدكم .

وقال مستر باترسون ، وهو يتصفح ملفا ضخما وضعته أمامه سكرتيرته اليقظة التى انصرفت فى لباقة :

ـ والان ، فلننتقل الى العمل ·

من أين يحصل الناس على مثل هذه الثياب ؟ ، بهذ
كان يتساءل فيما بينه وبين نفسه ولما يزل تحت تأثير م
انطبع فى ذهنه من تلك الصورة التى تخلفت عن قبح ثياب
عميلته وسوء حالتها ، بينما ضاعف لونها الاصفر من
شحوب وجهها ·

وجال فى خاطره ، يبدو انها على وشك الانهيار ·
ربما كانت مريضة ؟

واسترعى انتباهه مدى بروز عظام وجهها ، وعيناها
الغائرتان خلف عويناتها ذات الاطار المعدنى ·

وتبين من حركتها المفاجئة من اسدال اهدابها ،
ادراكها لتحديقه النظر فى وجهها فسعل معتذرا وهو
يسرع قائلا :

ـ كنت اتساءل عما اذا كانت رحلتك مريحة وما اذا
كنت قد تناولت افطارك بالقطار ·

وادرك من وميض عينيها أن هذا لم يحدث · كما
اعادت خلجات وجهها الى ذاكرته صورة مألوفة لديه ·
وأنه ليتمثل الان أمام عينيه تلك المخلوقات التى يرثى
لها ، والتى هرعت من أكواخها فى معسكرات الاعتقال
لتحية الحلفاء الظافرة ، وكأنهم هياكل عظمية · وما زال
يتردد فى أذنيه صدى صيحاتهم الخشنة ، وتزكم أنفه
رائحة أجسادهم الكريهة ·

انه الجوع !

وفى حدة ، لانه كان منزعجا غير مصدق لما تبادر الى
ذهنه ، عاد يوجه اليها سؤاله :

ـ الم تتناولى طعام الافطار ؟

فأومأت الفتاة برأسها نفيا ، قائلة :

ــ كلا ٠٠ لاننى ٠٠ لم يكن لدى ٠٠ ما يكفى من نقود ٠

وأسرع مستر باترسون يستدعى سكرتيرته فى عصبية بادية ٠ وحينما اقبلت أصدر اليها أمره قائلا :

ــ دجاج ، ولحم ــ أو ما عسى أن يكون لديهم ٠ وقهوة ٠ بكميات وفيرة ٠

ورفعت السكرتيرة حاجبيها دهشة ٠ وكان باترسون ممن يحرصون على ألا تنم ملامحهم عما يعتمل فى نفوسهم ٠ وبعد أن ألقت السكرتيرة على الفتاة نظرة خاطفة أدركت كل شيء ، قائلة :

ــ سمعا وطاعة ٠

ــ ولتسرعى !

وصفقت السكرتيرة الباب بشدة ، بما أدرك منه مستر باترسون أنها لا تحب أن ينهرها وقد أنسى انه لم يعد بعد ضابطا فى الجيش ٠

غير أن هذا لا يعنى أنها لم تقدر الداعى لهذه العجلة ، اذ سرعان ما حملت القهوة والشطائر الى غرفته من المقهى المجاور ٠

ولم يخف مستر بارتسون سروره بسرعة تلبية أمره ، قائلا :

ــ حسنا ! ضعى ما أتيت به أمام مس مانسفورد . ارى أنك أتيت بقدحين ٠ فليكن ! لا بأس من قدح آخر لى ٠

وغادرت السكرتيرة الغرفة ٠ وراحت زاريا مانسفورد تحدق النظر فيما بين يديها وكأنها لم تكن تدرى ماذا هى فاعلة بأقداح القهوة ذات الطلاء البراق ٠ واخيرا سألته :

ــ سادة أم باللبن ؟

فأجابها مستر باترسون :

ـ سادة ، أرجوك ·

وصبت له قدحا وناولته اياه · وبعد أن رفض تناول شيء من الشطائر ، مدت يدها الى صحفتها ـ باصابع رقيقة ، كشفت بشرتها الناصعة البياض عن زرقة أوردتها ·

وقال مستر باترسون فيما بينه وبين نفسه : لابد وان يكون الرجل العجوز قد خلف لها بعض المال ، بينما انبرى يقول لها :

ـ أعتقد أن والدك قد توفى منذ ثلاثة أشهر · ولم نخطر بأن نتولى أمر تركته · لعلنى لم أخطيء فى قولى هذا ؟

فأجابته زاريا مانسفورد :

ـ كلا ! كانت له شركة فى انفرنيس ، باسم ماكنزى وماك لويد ·

ـ أعتقد أننى سمعت بهذا الاسم · هل خلف والدك البيت لك ؟

ـ أجل · ولكننى لا أعتقد أننى سوف أستطيع بيعه · انه بعيد عن العمران ، ولا يمكن الوصول اليه بغير طريق خاص عبر المستنقعات · ثم أنه يبعد عن مكتب البريد وعن مكتب السنترال بخمسة أميال ·

فقال مستر باترسون معقبا :

ـ فهمت ·

واستطردت زاريا مانسفورد قائلة ، وهى تتمهل فيما تلتهمه من طعام :

ـ لقد خلف لى والدى مجموعة من المخطوطات · وقد سألنى فى وصيته أن استكملها . وارجو حين فراغى من ذلك أن أهتدى الى من يتولى نشرها ·

وحدث مستر بارتسون نفسه قائلا ، ولكنك الان ، نيس لديك ما يقوم بأودك ، ثم اتجه بحديثه اليها ، قائلا :

ـ ولكن كل شيء قد تغير الان · واذا ما أردت آن تستكملى كتاب والدك الاخير ، فمرجع هذا اليك ، بدون ادنى شك · وان كان ليس من المتعين عليك ان تقومى بشيء من هذا القبيل على كره منكا · ولعلك تدركين أن لعمتك زارين ؟ فيللا فى جنوب فرنسا وأخرى فى كاليفورنيا والاخيرة ، فيما أرى ، من الممتلكات التى لها قيمتها ·

وتوقفت زاريا مانسفورد عن التهام طعامها لحظة ، ثم قالت له وهى تحملق فى وجهه :

ـ اننى لا أصدق شيئا من هذا القبيل · لقد اطلعت على رسالتك وتبادر الى ذهنى أنك ضحية لخطأ ما · بديهى أننى ما زلت أذكر العمة مرجريت ، وأن كان قد انقضى أكثر من ثمانية أعوام منذ آخر لقاء بيننا · لقد كنت فى الحادية عشرة من عمرى حينئذ · اذ كنت أصحب ابى فى طريقنا الى أفريقيا عبر باريس · وكانت قد سألت والدى أن أقوم بزيارتها ، وحدث أثناء ذلك أن قامت بينهما مشادة عنيفة ، انصرف والدى على أثرها من الفندق غاضبا وقد اصطحبنى معه · ولم يحدث أنه اتصل بها بعد ذلك ·

فعقب مستر باترسون مؤيدا :

ـ اخشى أن يكون والدك ·· قد ·· اختلف مع كثيرين ولقد كان فى نزاع قضائى ، فيما أعلم مع اثنين من زملائه علماء العاديات ، ومن يتعامل معهم من ناشرين ، ومكتب سمسرة لبيع الاراضى ومدير لمتحف كبير ·

فأردفت زاريا موافقة فى صوت خفيض :

ـ أجل ، هذا صحيح ·

فتمتم مستر باترسون فيما بينه وبين نفسه ، ياله من رجل حاد الطبع ، وقد تبادر الى ذهنه ما سمعه عن البرفيسور الراحل · ثم رفع عينيه يتأمل الفتاة الجالسة امامه فى تخاذل ، وراح يتساءل عن مدى ما عانته من حدة طبعه ·

وانبرى يقول لها : محاولا أن يسري عنها :

– ومهما يكن من أمر ، فان عمتك كانت تذكرك بكل خير · لقد أوصت لك بكل ما تملك – اللهم الا القليل مما أوصت به لتابعيها ومن بضعة آلاف لاعمال الخير ·

وتساءلت زاريا مانسفورد فى أنفاس لاهثة :

– كم تبلغ قيمة هذه التركة ؟

فرفع مستر باترسون كتفيه وهو يقول :

– أكثر من مائة الف جنيه ، فيما أعتقد · ومن العسير تحديد الرقم قبل اثبات صحة الوصية واستيفاء ضريبة التركات ·

ولم تعقب زاريا بشىء وأدرك من التزامها الصمت أنها فوجئت بما سمعته منه وأن هذا ما كان متوقعا نتيجة لهذه المعلومات · ونفس عليها هذه الثروة الطائلة التى لم تكن أهلا لها · ودار بخلده انها مهما ابتاعت من ثياب أنيقة وأمعنت فى زينتها ، فان هذا لن يغير من ملامح وجهها البارد العظام · ومن جفاف شعرها المنحسر عن جبينها ، المتهدل الخصلات الى الخلف من أذنيها فوق منكبيها · ثم اتجه اليها بحديثه قائلا :

– انى لاتساءل عما تعتزمين القيام به ؟ هل تحبين السفر الى أمريكا لتفقد ممتلكاتك هناك ؟ أم لعلك تؤثرين

القيام برحلة قصيرة الى جنوب فرنسا ؟

ـ لست ادرى ·· يجب أن اتدبر أمرى ·

ـ لست بحاجة الى أن تتعجلى أمرك . لقد قام شركائى بحجز غرفة لك بأحد الفنادق ، حينما تشائين . هذا مالم يكن لك أصدقاء فى لندن ، بداهة ·

ـ كلا · ليس لى أصدقاء ·

ـ فليكن لقد حاولنا أن نوفق الى ما يلائمك فى فندق دورشستر أو فى فندق ريتز ، ولكننا لم نجد بأى منهما غرفا خالية ·

وتبين ما اكتسى به وجهها من بوادر الذعر ، ورأى أن هذا غير مستبعد منها فى هذا الظرف بالذات · فاستطرد قائلا :

ـ ولذلك وبناء على ظروفك الخاصة ، فقد رأينا أن تكون اقامتك بفندق كاردوس ـ وهو فندق هادىء مناسب فى بلجرافيا · واعتقد أن الاقامة فيه ستطيب لك ·

ـ شكرا ·· شكرا جزيلا ·

واستطرد مستر باترسون قائلا :

ـ والان ، فلنواصل الحديث عن وصية عمتك ·

وراح يتلو الوصية فى صوت عميق ، متئد ، يتفق مع ظروف الحال . وبمجرد أن فرغ من التلاوة ، ورفع عينيه يتطلع الى الفتاة الجالسة أمامه ، أدرك أنها لم تفهم شيئا مما حوته ·

فابتسم قائلا :

ـ اخشى ان يكون قد استعصى عليك تفهم مضمون الوصية غير اننى سأحاول ان اوضح ما استغلق عليك فهمه · ان الوصية تعنى انك ترثين المبلغ الذى ذكرته لك من قبل ، علاوة على ممتلكات مسزكراوفورد ·

وبعد أن توقف قليلا ، أردف موضحا :

ـ لقد انسيت شيئا اخر ! انه بشأن يخت عمتك . فثمة ارتباط بشأنه لا يمكن الغاؤه لانه تم منذ بضعة أشهر واعتقد انك لا تريدين العدول عنه .

ـ كلا كلا بكل تأكيد .

ـ لقد حرصنا على أن نحصل من هذا العقد على مبلغ محترم من مليونير امريكى ، هو مستر كورنيليوس فيردون . وسيصل الى مرسيليا ، حيث يجد اليخت فى انتظاره فى مدى يومين . ولقد فهمت انه سيقوم برحلة الى الساحل الافريقى . وهو من المعنيين بالعاديات ويرغب فى القيام ببعض الحفريات . وينتهى العمل بهذا العقد بعد ثلاثة أشهر تقريبا . هذا اذا لم ترغبى فى انهائه قبل ذلك .

ـ وهل هو من اليخوت الكبيرة .

ـ ان حجمه مناسب ، فيما أعتقد ، وقد اطلق عليه اسم « الساحرة » .

وتوقف مستر باترسون عن الحديث ، ثم راح يلقى نظرة على بعض الرسائل التى كانت موضوعة فوق مكتبه بجوار الملف .. وبعد أن فرغ من الاطلاع على الرسائل انبرى قائلاً وكأنها ذكرته بشيء معين :

ـ ثمة شيء كنت اريد ان اسألك اياه . لقد اشترط مستر فيردون ، المليونير الامريكى ، حين التعاقد معنا ان نتفق نيابة عنه فى سكرتيرة لها المام بعلم العاديات وباللغة العربية . وقد يخيل اليك انه مطلب يسير . وهذا ما حدا بنا الى الموافقة على هذا الشرط دون أن يدور بخلدنا اننا قد نجد صعوبة فى تحقيقه . ولقد كنا نتولى دائما امر استغلال هذا اليخت لفترات معينة ، وقد سرنا ،

فى هذه المرة ، انه قد تسنى لنا الحصول على مبلغ لا يستهان به حقا ·

وبدا على مستر باترسون انه كان مزهوا بفراهته ، ثم غير من نبرات صوته حينما استطرد يقول :

ـ غير أننا خشينا ، فى لحظة ما ، أن يفسخ العقد نتيجة لعجزنا عن تنفيذ هذا البند ، على الرغم مما عمدنا اليه من اعلان متواصل عن السكرتيرة المطلوبة ·

فتساءلت زاريا فى عجب :

ـ وفيم كانت هذه الصعوبة ؟

فأجابها مستر بارتسون بقوله :

ـ لست أدرى · لقد كان فى وسعنا أن نجد ما نشاء من علماء العاديات · كما كان فى وسعنا أن نجد بغيتنا ممن يلمون باللغة العربية · أما توافر الشرطين معا ، فقد كان هذا متعذرا وبعد أن استبد بنا اليأس ، وكان هذا منذ عشرة أيام فقط ، تقدم لنا طلب من آنسة ·· من آنسة تدعى دوريس براون · ويبدو أنها كانت تعمل فى المتحف البريطانى ، كما كانت تعمل مع بعض علماء العاديات ممن يشار اليهم بالبنان · وأعتقد أن مستر فيردون سيجد فيها بغيته ·

فقالت زاريا معقبة ، وقد بدت الدهشة فى نبرات صوتها وكأنها تتساءل عن السبب الذى حدا به الى هذا الحديث الطويل عن تلك المشكلة ·

ـ اذن ، فقد حلت المشكلة ·

فابتسم وقد أدرك ما تعنى :

ـ انك تتساءلين عن السبب الذى حدا بى الى أن أثقل عليك بهذا السرد الطويل لجوانب هذه المسألة · فى الواقع ، اننا مازلنا قلقين بعض الشىء ، ونكون شاكرين ،

بوصفك خبيرة بالعاديات وباللغة العربية ، اذا ما وافقت على الاجتماع بمس براون ·

ـ أعتقد أن لغتى العربية قد علاها الصدا · اننى لم أصحب والدى فى رحلاته الى الخارج طوال الخمس سنوات الاخيرة ·

لقد كنت أصحبه من قبل ، ثم ·· حدث أن رأى الانفراد برحلاته وألا يصطحبنى معه ·

وكان فى صوتها ما ينم عن أن هنالك قصة وراء ذلك ، غير انه آثر أن يتجاهل ما أدركه قائلا :

ـ أن كل ما هو مطلوب منك هو توجيه بعض الاسئلة الى مس براون · ولعلك تدركين أن لنا سمعتنا التى يجب أن نحافظ عليها ، وانا لنفضل الا نبعث بأحد مطلقا ، من أن نبعث بمن لا نفع منه ·

وراح يقلب فيما بين يديه من صفحات ، قائلا :

ـ وليس من شك فى أننى عنيت بالتحقق من أسانيد مس براون · غير أن البروفيسور جونسون ، الذى كانت تعمل معه أخيرا ، فى رحلة بالصحراء مما يتعذر معه الاتصال به · بينما نجد أن السير مورتيمد جريفز يمتدح كفايتها وأن كان لا يستطيع تزكية المامها باللغة العربية

ـ متى تريد أن يتم لقائى بها ؟

ـ سوف أبعث بها الى فندقك بعد ظهر اليوم ، اذا ما وافقت · أن عليها أن تلحق بمعدية الليل التى تغادر فيكتوريا فى الساعة السابعة · هل توافقين على حضورها فى الساعة الثالثة ؟ ولما كان اليوم يوم سبت ولن أكون موجودا بمكتبى بعد الظهر ، فأرجو أن تتصلى بنا تليفونيا لاحاطتنا علما بما تنتهين اليه ·

وألقى نظرة على ساعة يدها ، ثم ابتسم قائلا :
ــ ان اليوم هو اليوم المحدد لممارسة هوايتى بلعب الجولف ، للراحة من عناء الاعمال ٠
وأنبرت زاريا مستفسرة ٠
ــ اذا ما افترضنا أن مس براون ليست ملمة على الاطلاق باللغة العربية ، فماذا ترانى فاعلة ؟
فأجابها مستر باترسون :
ــ أولا ، ما لم تقتنعى تماما بالمام مس براون باللغة العربية ، فأنك لن تقومى بتسليمها تذاكر السفر وسائر المستندات التى سأعهد بها اليك الان ٠
والتقط مظروفا كبيرا قدمه الى زاريا ، مستطردا :
ــ قد نبدو حذرين أكثر مما يجب ، غير أننا رأينا الا نقطع برأى قبل موافقتك ٠ أن مستر فيردون رجل له اعتباره ومكانته ، مما من شأنه أن يحملنا على مراعاة الدقة فى التعامل معه ٠
ــ ولكننى لم أسمع به من قبل كعالم من علماء الاثار ٠
ــ هكذا ؟ فليكن ، وان كنت أحب أن أؤكد لك انه جاد فى الامر الى أقصى حد ، كما يتضح من رسائله ٠ وهو قادر ماليا على مواجهة جميع النفقات التى ستتطلبها هوايته ٠ لقد ورث عن والده مبلغا ضخما ، وفق فى تنميته بالمضاربة فى مختلف الاسواق المالية ، ثم بدأ يركز اهتمامه فى الماضى البعيد ٠ ولكل انسان أن يتخير ما يشتهى من هواية ــ لعلك توافقين على هذا الرأى ؟
ــ أجل ، بكل تأكيد ٠ واذا ما اتضح أن مس براون لا تصلح ، فهل أصارحها بذلك ؟
فأجابها مستر باترسون :
ــ اذا ما وافقت ٠٠ ارجو ان تتصلى تليفونيا بسكرتيرتى بمنزلها ٠ انها ستكون فى منزلها بعد

الظهر ـ على الاقل ، الى الساعة الخامسة فاذا لم يتم اتصالك بها ، فان هذا سيعنى أن مس براون صالحة للقيام بما سيسند اليها من عمل ·

وأثناء حديثه ، قام بتدوين رقم تليفون بظهر المظروف ، ثم استطرد قائلا :

ـ لقد دونت رقم تليفون سكرتيرتى . وارجو الا تتصلى بها مادامت الامور على مايرام · والان،مس مانسفورد ، معذرة ، فثمة عميل آخر فى الانتظار ·

ـ أجل ، أجل ، بكل تأكيد ·

ونهضت زاريا مانسفورد عن مقعدها ، تهم بمغادرة الغرفة فى ارتباك باد · غير أن مستر باترسون استوقفها قائلا :

ـ ثمة ما اريد أن أحيطك به علما · لقد فتح شركائى حسابا لك بالبنك تدبرين به شئونك ريثما يتم تصفية التركة · ولقد أودعوا باسمك ، مؤقتا ، ألف جنيه · ويمكنك أن تطالبى بالمزيد فى حالة نفاد المبلغ ·

فقالت زاريا فى صوت متهدج :

ـ شكرا ·· شكرا ··

وواصل مستر باترسون حديثه :

ـ وفى الوقت نفسه ، وحيث أننا فى آخر الاسبوع ، وتقديرا منا لاحتمال أن تكونى بحاجة الى نقود ، اليك مع دفتر الشيكات ، خمسون جنيها نقدا ـ ارجو ان يفى بحاجتك الراهنة مع العلم بأن الفندق على أتم استعداد لصرف أى شيك تقدمينه اليها ·

وقدم اليها مظروفا آخر تناولته زاريا باصابع مرتجفة قائلة :

ـ شكرا .. أتراك واثقا ..

وانتظر كى تتم ما كانت بسبيل قوله ، ولكنها لم تفعل . فبادرها بسؤاله :

ـ واثق من ماذا ، مس مانسفورد ؟

ـ من أن هذا المال ٠٠ لى ؟

ـ كل الثقة .

ـ اذن ، هل لك فى أن تبعث ببعض المال الى سارا ـ المرأة العجوز التى تعمل بمنزلنا فى اسكتلندا ؟

ـ بكل تأكيد . هل تريدين الاحتفاظ بخدماتها ؟

ـ كلا ، لانها تريد اعتزال الخدمة ، وان كنت ارى أن امنحها معاشا .

ـ سأعمل على تنفيذ رغبتك . ولتدعى لنا كل ما هو من هذا القبيل ـ الى اللقاء ، مس مانسفورد .

وغادرت زاريا الغرفة . وشعر برغبة فى الضحك . انه مما يدعو الى السخرية أن تؤول هذه الثروة الضخمة لمثل هذه الفتاة الرثة الثياب . انها ثروة لا يحلم بجمعها بعد مائة عام من العمل المتواصل ليل نهار . ووجد انه يقول بمجرد أن أوصدت زاريا الباب :

ـ واحسرتاه !

وعاد يردد ذلك ، وقد تبادر الى ذهنه ما تلح به زوجته عليه طوال عامين من ضرورة ابتياع تلك السيولة البنتلى التى تحلم بها ، وذاك البيت الذى يتوقان الى امتلاكه فى فيرجينياد وترو الذى يساوى من الثمن مبلغا يفوق قدرتهما بحوالى عشرين ألف جنيه على الاقل .

وراح يتساءل بصوت مرتفع :

ـ ترى ماذا عساها أن تفعل بمثل هذا المبلغ ؟

ثم استجمع شتات نفسه واستدعى سكرتيرته ليسألها أن تأذن بدخول العميل التالى .

ووقفت زاريا مانسفورد ، خارج المبنى ، حاملة حقيبة ثيابها ، تتطلع الى الشارع الهادىء ولم يكن لديها فكرة ما عن الطريق الذى تسلكه الى فندق كاردوس ، وان كانت قد افترضت أن احدى سيارات الاوتوبيس قد تحملها اليه . ومشت الهوينا عبر الشارع وهى تشعر بالتعب والاجهاد . فلقد قضت الليلة السابقة مؤرقة لا يغمض لها جفن . كما كانت تشعر بعسر هضم لكثرة ما التهمته من شطائر وما احتسته من قهوة . « يجب ألا أفرط فيما أتناوله من طعام أو شراب » بهذا راحت تحدث نفسها ، على الرغم مما تعرضت له ، من قبل ، من حرمان .

وأنها لتتذكر فى تلك اللحظة ، كيف اقام والدها الدنيا وأقعدها ، حين عودته الى المنزل فى عطلة آخر اسبوع قبل وفاته ، وبعد اطلاعه على قائمة حساب القصاب ، وصياحه قائلا :

ــ ماذا ترينني ، أى آكلة اللحوم ؟ هل تعتقدين فى عينا من المال لا تغضب ؟ كيف تجرؤين على طلب هذه الكمية من اللحوم ؟ أم لعلك تعتقدين أننى أحد المليونيرات ؟

وكان جوابها :

ــ انها الكمية المستهلكة فى شهرين ، يا أبى .

ــ المعاذير ! دائما هذه المعاذير .

ثم رفع يده يصفعها ــ كما كان دأبه دائما ــ وانهال عليها ضربا الى أن كاد يحطم عظامها . واخيرا ركلها قبل أن يغادر الغرفة .

ومع ذلك ، فانها أدركت أن لكماته لم تكن بالقوة التى ألفتها منه من قبل . لقد أصبح واهن القوى ، نتيجة لما كان يشكو من علة طوال عامين . ولم يخيل اليها ، حينئذاك ، أن ما لمسته من ضعف والدها كان بداية النهاية العاجلة .

وكانت قد بلغت من سيرها شارع أكسفورد ، وبدأت تشعر ببوادر الدوار نتيجة لضوضاء الشارع الذى يعج بالسيارات على اختلاف أنواعها .

وجال فى خاطر زاريا ، « لا يمكن ان يغمى على فى مثل هذا المكان . وبينما كانت تجول بعينيها فيما حولها ، تبادر الى ذهنها انه فى وسعها أن تستقل احدى سيارات الاجرة أن فى حقيبتها خمسين جنيها ! خمسون جنيها بدلا من تلك البنساء القليلة التى كانت كل ما تملكه فى هذه الدنيا حينما وصلت الى سانت بانكراس صباح اليوم .

وأسرعت تستقل احدى سيارات الاجرة التى تصادف وجودها أمامها . والقت بنفسها فوق المقعد الخلفى وهى تعلن للسائق عنوان فندقها . ثم استرخت فى مجلسها تغمض عينيها .

أن كل هذا واقع لا ريب فيـــه ! لقد أصبحت من الاثرياء ! انها لن تعرف الجوع والحرمان ثانية . انها لن تخشى بعد هذه الكلمات وتلك الصيحات الغاضبة . انها ستقوم بشراء ما تبقى دون خوف أو وجل . انها ثرية ، ثرية ! وخيل اليها ان أصوات حركة المرور من حولها تردد معها راعدة :

ــ ثرية ! ثرية ! ثرية !



وصلت مس دوريس براون الى فندق كاردوس فى تمام الساعة الثالثة وصعدت الى الطابق الثانى . وتقدمها صبى الفندق الى باب احدى الغرف . وبعد أن طرق الباب وسمع الصوت الخافت يأذن له بالدخول ، فتح الباب ودعا مس براون أن تجتازه الى حيث تريد .

ومهما يكن من أمر ما دار بخلد مس دوريس براون من صورة متخيلة عمن ستجد فى انتظاره ، الا أنها فوجئت بما وقع عليه بصرها · وكان وقع ما رأت لا يختلف كثيرا عن نظيره فى نفس مستر باترسون ·

ورددت فيما بينها وبين نفسها ، رباه ! أتراني واهمة ! ثم انبرت تسأل وقد كاد صوتها أن ينم عما يجول فى خاطرها :

ــ مس مانسفورد ؟ مس زاريا مانسفورد ؟

وفى صوت رقيق أجابت زاريا :

ــ أجل · هلا جلست ؟

ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين الفتاتين ، أناقة وملبسا · وبدأت مس براون الحديث قائلة :

ــ لقد سبق لى أن التقيت بالبروفيسور مانسفورد ــ منذ فترة طويلة ــ ورأيت فيه رجلا وسيما حسن الهندام ، على الرغم من أن البعض لا يحبون الملتحين · وحينما قيل لى أن أحضر لزيارتك لانك تملكين اليخت الذى ··

ثم توقفت عن الكلام فجأة ، وقد استقرت عيناها على ثوب زاريا ، قبل أن تستطرد قائلة :

ــ ألست تملكين هذا اليخت ؟

ــ بلى ، وأن كنت لم أسمع بذلك قبل اليوم · وفى الواقع ، أننى ، قبل يومين ، لم أكن أحتكم على أكثر مما أحصل عليه من عملى ·

فلم تتمالك مس بروان نفسها من أن تقول :

ــ يا للمفاجأة السارة ! وأن كنت لا أرجو لنفسى شيئا من هذا القبيل ، لأننى لا أحب السفر بحرا . ولكن العمل شىء آخر · وحينما عرضت على هذه الوظيفة وافقت لأننى رأيت فيها بعض التغيير ·

فقالت زاريا معقبة :

ـ بكل تأكيد · وأرجو أن تجدى فيها بغيتك ·

ـ هذا ما لن يكون !

فتأملتها زاريا دهشة ، وهى تقول :

ـ أخشى أننى لم أدرك ما تعنين ·

ـ وهذا ما جئت من أجله · فحينما اتصلوا بى تليفونيا قبل الغداء ، لم أكن واثقة بعد ثم كان أن عرض على الزواج منه أثناء تناولنا طعام الغداء ، فوافقت وحدد آخر الاسبوع لعقد القران ·

وبدأت الامور تنجلى أمام زاريا ، التى انبـرت متسائلة :

ـ تعنين أنك لن ترافقى مستر فيردن فى رحلـة باليخت ؟

فأومأت دوريس براون براسها فى اصرار قائلة :

ـ بلى · وفى الواقع ، أننى مسافرة الى يوركشير الليلة لزيارة أصهارى · أن والد خطيبى يعمل فى تجارة الصوف · وهو موفق فى تجارته ، وأن كان هذا لا يعنينى فى كثير أو قليل · أننى ابادل تيد حبا بحب ، وتجديننى على استعداد للزواج منه مهما يكن من أمر حالته المالية ·

وتمتمت زاريا معقبة :

ـ أجل بكل تأكيد ·

ـ وأن كان من الافضل أن يشعر المرء فى حياته بشىء من الاطمئنان على مستقبله

ـ أجل ، أجل ، هذا هو الواقع ·

ـ وما كنت لاثقل عليك بكل هذا ، اذا لم اكن قد علمت بأن مستر باترسون غير موجود فى مكتبه ولم يكن ثمة من سبيل سوى أن أحضر لزيارتك لايضاح ما سمعته منى ·

أخشى أن يكون اعتذارك عن قبول هذا العمل مدعاة لاستيائهم فلقد علمت بأنهم وجدوا عناء كبيرا فى الاهتداء الى فتاة مثلك ٠

ـ أنهم لن يعدموا وسيلة فى الاهتداء الى غيرى ٠ ولما كان بودى أن أقف منهم هذا الموقف ما لم تستجد تلك الظروف التى صارحتك بها ٠ والحق أقول لك ، أننى لم أكن واثقة من أن تيد سيسرع بما عرضه على ٠ أما وقد فعل ذلك فأننى لن ادعه يفلت من يدى ٠

ـ هذا عين الحكمة ٠

فنهضت مس براون قائلة :

ـ أرجو أن تقدرى ظروفى ٠ الى اللقاء ، مس مانسفورد ٠ لقد سعدت بلقائك ٠ وأرجو لك التوفيق فى حياتك الجديدة ٠ ولو كنت فى مكانك ، ويطيب لى السفر بحرا ، لاستمتعت بهذه الرحلة ٠

ومشت عبر الغرفة ، ثم توقفت عند الباب تلوح لها مودعة ٠ ووقفت زاريا لحظة تتطلع الى دوريس براون حيث مضت فى سبيلها ، ثم جلست فوق أحد المقاعد تلتقط المظروف الكبير الذى تسلمته من مستر باترسون ٠ ووجدت مدونا بظهره رقم تليفون سكرتيرته ٢٧٥ كينستجتون ٠ ورأت أنها يجب أن تقوم بالاتصال بها ، ثم تبادر الى ذهنها أنها لا تعرف اسم الفتاة ، مما كان سببا فى حيرتها ٠

وقامت بفض المظروف تفرغ محتوياته فوق المنضدة لمقعدها ، لتجد جواز سفر جديد باسم دوريس براون ، وتذاكر سفر ـ من فيكتوريا الى دوفر ، ومن دوفر الى كاليه ، ومن كاليه الى مرسيليا ـ ورزمة صغيرة من الفرنكات ، ورسالتين احداهما معنونة باسم مستر

كورنيليوس فيردون · وأخرى من مؤسسة باترسون ، ديلهاوس ، وباترسون الى مس براون ، وبها التوجيهات الخاصة بهذه الرحلة · وجدير بالذكر أن هذا المظروف لم يكن مختوما ، شأنه شأن المظروف الكبير ·

وكان على مس براون أن تستقل القطار الذى يغادر محطة فيكتوريا فى تمام الساعة السابعة مساء ، فاذا ما وصلت الى مرسيليا فلتتجه الى فندق بويتانيا حيث حجزت لها غرفة لاقامتها الى حين وصول اليخت الى الميناء · ثم عليها ، بعد ذلك ان تقدم نفسها للقبطـان وتقوم بتسليمه الرسالة المرفقة ليسلمها بالتالى الى مستر فيردون اذا ما كان موجودا فوق ظهر اليخت ·

وكانت الاوامر صريحة لا لبس فيها ، ولا يمكن لاحد ان يخطىء فهمها أو ينحرف عن خطها المرسوم ·

وسمعت طرقا على الباب ، وقبل أن تأذن زاريا للطارق بالدخول ، شاهدت دوريس براون تطل براسها من فرجته قائلة :

ــ آسفة لازعاجك · ولكننى اكتشفت قبل أن أستقل المصعد أننى نسيت قفازى ·

ووقع نظر زاريا على القفاز ملقى فوق المقعد الذى كانت مس براون تجلس فوقه · فقالت لها :

ــ فعلا · أنه هناك ·

فتقدمت دوريس تلتقط قفازها قائلة :

ــ حمدا لله ! كثيرا مايحدث هذا لى ، الامر الذى يكلفنى غاليا · أن القفازات الجيدة عنصر هام من عناصر أناقة المرأة ·· ترى ·· ؟

ثم توقفت عما كانت بسبيل قوله وكأنها أدركت أن زاريا أبعد ما تكون عن هذا المجال · ثم قالت وهى تتأمل

الاوراق المتناثرة فوق المنضدة :

ـ أرى جواز سفرى · وتجديننى آسفة لتخلفى عن هذه الرحلة · لكم كان بودى أن أعمل مع كورنيليوس فيردون ·· ياله من شاب !

فتطلعت زاريا اليها دهشة وهى تقول :

ـ هل هو فى مقتبل العمر ؟ كنت أحسبه كهلا ·

فضحكت دوريس ثم قالت :

ـ عجبا ! ألا تطلعين على الصحف اليومية ؟

وعادت تتأمل زاريا قبل أن تسرع بقولها :

ـ كلا ، ربما لم يتيسر لك ذلك ـ على الاقل هذا النوع من الانباء ـ لقد نشر عنه الكثير فى العام الماضى حينما اكتشفت معبدا فى بيرو · وكانت هذه الانباء محل اهتمامى لاننى كنت أعمل مع السير مورتيمر جريفز ، الذى كان يعرف الكثير عن مستر فيردون وكان دائب التحدث عنه · وبعد ذلك ، كنت منصرفة الى الاهتمام بكل شىء عنه ، الامر الذى جعلنى أرحب بهذه الرحلة ، فى أول الامر · والشىء بالشىء يذكر · لقد أرادت لى ظروف حياتى ألا أبتعد كثيرا · عن مجال علم العاديات الذى بدأ اتصالى بحقله حينما كنت فى الثامنة عشرة من عمرى ، لان البروفيسور جونسون كان يريد سكرتيرة مساعدة له ، وكان والدى أمينا لاحد المتاحف فى ليفربول · لقد نشأت وترعرعت فى هذا الجو العلمى كما ترين ·

ـ الم تجدى فى هذا عملا مشوقا

فابتسمت دوريس براون قائلة :

ـ بل كنت أشعر بالملل · والان سأصدقك القول · أن المامى باللغة العربية محدود · ولولا ما استجد من

ظروفى مع تيد لكنت فى حرج شديد من قبول القيام بهذا العمل ·

وضحكت وهى تتجه الى الباب مردفة :

ـ لا تبتئسى ؛ فلتذهبى للقاء كورنيليوس فيردون بدلا منى · وفى هذا الخير كل الخير لك · انك بحاجة الى بعض التغيير وشىء من الراحة ·

ثم توقفت عما كانت بسبيل الاستطراد فيه واضعة اصابعها فوق فمها · وبعد اطراقة قصيرة قالت :

ـ ما كان لى ان أتحدث بشىء من هذا القبيل · أرجو أن تغتفرى لى جرأتى ، لان من دابى ان ينطلق لسانى بما يدور بخلدى ·

فأجابتها زاريا فى هدوء :

ـ لا عليك . . اننى لم أر فيما قلت ما يسىء .

وأوصد الباب خلف دوريس ثانية ، واسترخت زاريا فى مقعدها . عم كانت تتحدث هذه الفتاة ؟ عجبا ! ليس من شك فى أنها لن تحل محل دوريس براون كسكرتيرة لكورنيليوس فيردون !ثم شعرت بأن هذا الخاطر يلح عليها : وراحت تحدث النظر فى جواز السفر الذى كانت تمسك به بين أصابعها ·ولماذا لا تفعل ذلك ؟ انها تعرف الكثير عن علم العاديات ولها المام باللغة العربية ـ على الرغم من قدم عهدها بها ·

وظلت الفكرة تتأرجح فى ذهنها ، بين الغموض والجلاء · ثم بدأت تستقر وتتضح · أن كل ما عليها ان تفعله هو اتباع التعليمات الصادرة الى دوريس براون ·

أن كل شىء بين يديها ـ تذاكر السفر ، والنقود ، وخطاب التعريف · وليس من المتعين عليها ان تكشف عن حقيقة شخصيتها · وليس بها من حاجة لان تقول ، اننى من تمتلك هذا اليخت · ليس عليها سوى أن تمضى قدما ،

بينما تكون دوريس براون فى طريقها شمالا الى يوركشير لزيارة أصهارها المقبلين ·

كلا ، أنه للجنون المطبق · أنها لن تستطيع أن تقدم على شيء من هذا القبيل ولكن ، لم لا ؟ وعندما بلغت من خواطرها هذا الحد ، تساءلت عما يتعين عليها بعد ذلك أن تقوم به

وراحت زاريا تجيل النظر فيما حولها · أنها لم تألف هذه الحياة الوادعة ، المترفة من قبل · وأنها لتستعيد الان كيف استقبلت وكيف وجدت نفسها فى هذا الجناح الفاخر الذى بدا لها « بغرفه الثلاث ، عالما غير مألوف ·

وكانت قد أبدت رغبتها فى تناول طعام الغذاء وكانت فى حيرة ، لا يستقر لها رأى على ما يجب أن تفعله بجناحها ، لانها كانت تخشى الهبوط الى مطعم الفندق . تأكل وقد استعانت بالساقى فى اختيار ما يأتيها به من الوان الطعام ·

وقد شعرت بالاسى أن لم تستطع التهام الكثير مما حمل اليها من طعام ، على الرغم من ضآلة هذه الكميات وفداحة أسعارها · وكانت تدرك أن عدم القابلية هذه ، راجع الى ما كان فى ماضى حياتها من سوء تغذية أساءت الى جهاز هضمها · ورات أنها يجب ان تعتدل فى نظام تغذيتها لفترة ما ، وأن تصرف همها الى الارتفاع بمستوى هندامها ـ أنها بحاجة الى ثياب من هذا الطراز الذى كانت ترتديه دوريس براون والى أحسن منها واغلى ثمنا !

وبدأت تهتز فدقا · لا جدوى من كل هذا اذ أنها لن تستطيع أن تفعل شيئا من هذا القبيل · أنها لا تعرف من أين تبدأ ، ولا الى أين تذهب ولا ماذا تشترى · وحاولت أن تستعيد فى ذهنها متى ابتاعت آخر ثوب لها · ترى هل

كان هذا حينما كانت فى انفرنيس ؟ اذا ماصح ذلك ، فانه يعنى أنقضاء عدة أعوام · لقد كانت تقوم بصنع معظم ثيابها وتحاول أن تقوم بتعديل بعض حلل والدها القديمة بحيث تصلح لها · وأنها لتتذكر أن والدها كان يبخل عليها بالنزر اليسير ·

وحدث ، منذ عام ، أن حاولت الهرب وعقدت العزم على البحث عن عمل لتنجو بنفسها من حياة البؤس والحرمان ، وتبتعد عن هذا البيت المظلم الكائن بين المستنقعات · غير أنه لحق بها قبل أن تصل الى الطريق العام ، وعاد بها ليذيقها من العذاب الوانا · ونهرها قائلا فى حدة :

– ستمكثين معى لتعملى من اجلى · واذا ما كان قد خيل اليك ان فى وسعك ان تنطلقى كما تشائين فانك مخطئة فى ظنك هذا · فلتواصلى العمل فى هذه المخطوطات ·

– ولم تحاول بعد ذلك أن تعيد الكرة – حتى حينما رحل وتركها مع سارا ·· وسارا هذه امرأة متقدمةفى السن كانت فى خدمة والدها ووالدتها منذ زواجهما · وكانت تحثها على انجاز ما يعهد به والدها اليها اتقاء غضبه ، حيذما كانت تتوقف قليلا لتريح عينيها من عناء التفرس فى اوراق البردى وفى غيرها من قطع صخرية لحل طلاسم الكتابات التى دونت بها قبل الميلاد بآلاف السنين ·

وكانت تشعر أحيانا بأن رأسها يكاد ينفجر ألما · ولكنها كانت تواصل العمل ، دون ان تجرؤ على التذكر أو الشكوى وقد بلغ بها الوهن حد أنها لم تكن تقوى أن تتفادى ما كان يوجهه اليها والدها من لكمات ·

وتخلت عن ذكرياتها لتعود الى واقع حاضرها متسائلة في حيرة عما هى فاعلة ؟ ووجدت صعوبة فى البت برأى قاطع فيما يبعث على حيرتها وترددها ٠

وكانت تشعر أنها فى متاهات الحيرة والتردد فى لجة من الرهبة والاحجام أن لندن مدينة كبيرة مترامية الاطراف ٠ وأرادت ان تتصل بمستر باترسون تليفونيا ٠ ثم عادت لتتذكر أنه قال لها أنه سيكون موجودا فى ملعب الجولف ٠ وأنها لا تنسى هذه النظرة الساخرة فى عينيه وهويتأمل هيئتها الزرية من طرفى خفى ٠

ونهضت عن مقعدها تتجه الى سجاف المصطلى ، ووقفت تتأمل صورتها فى المرآة الكبيرة أعلاه ــ وراحت تحدث النظر فى شعرها الأشعث ، وفى تلك العوينات باطارها المعدنى التى أضطرها اليها ضعف بصرها نتيجة لعملها المتواصل فى حل رموز تلك المخطوطات ٠

ومدت يدها تنتزعها ــ وهالها ما تبينته من خطوط سوداء أسفل عينيها ٠ وشعرت بالدمع يطفر الى عينيها ــ وئيدا ، تغرورق به المآقى ، بعد أن كان يستعصى عليها على الرغم مما كانت تعانيه طوال هذه الاعوام ٠ ووجدت أنها تردد فيما بينها وبين نفسها أننى بشعة ــ بشعة ــ لا أصدقاء لى وحيدة منبوذة ٠ ليتنى لم أولد ! وابتعدت عن المرآة تلقى بنفسها فوق الاريكة ، وهى تخفى وجهها بين الوسائد ٠ ولم تسترسل فى البكاء لانها اذ لمست بوجهها نعومة الوسائد وتحسست نسيجها الحريرى ، دار بخلدها ما انساها آلام نفسها ــ من كل ما يحيط بها من وسائل ترف تشتهيها النساء وتحلمن بها ٠

واستعادت فى ذهنها صورة دوريس براون الانيقة ــ بجواربها ، وقفازها الذى عاد تلهث خشية أن تفقده ٠

وراحت تردد ، فى وسعى أن أقتنى كل ما أصبو اليه وأشتهيه :

وأنها لقادرة أنى تشاء · على مغادرة الفندق والتوجه الى أى متجر كان لابتياع ما تريد ثم تنازعتها خواطر الخوف والرهبة · أنها لن تستطيع ذلك ، اذ لن يكون لها قبل بمواجهة نظرات من ستبيعها ما تريد · ولعلها ستتساءل :

ـ من عساها أن تكون تلك الفتاة ؟

وشعرت برغبة عارمة فى الهرب من هذا كله ، وفى أن تعود أدراجها الى اسكتلندا · الى سارا العجوز ، والى ذاك البيت بجدرانه الرطبة وأثاثه الفيكتورى المقبض ، والى ما يشيع فى نفسها الفزع ، وكأن والدها لم يغادره ويغادر الدنيا الى الابد · ومع ذلك ، فان هذا الجو المتوتر مألوف لديها ويكاد أن يكون أخف وطأة مما يواجهها الآن .

وأنت أنين الموجع واعتدلت فى مجلسها · وسمعت صوت سقوط شىء على الارض · وتبينت أنه جواز سفر دوريس براون · ووقع نظرها على صورة الفتــاة الفوتوغرافية · وظلت تحدث النظر فيها وتتأمل عينى الفتاة ، وأنفها وشفتيها ، وما يتوج وجهها من شعر معقوص فى عناية أبدت وضاءة جبينها ودقة أذنيها ·

وهمست زاريا قائلة :

ـ فى وسعى أن أبدو على غرار هذه الصورة ·

وتبادر الى ذهنها أنه لا يوجد ما يحول دون تنفيذ ما جال فى خاطرها من الحلول محل دوريس براون ، أولى من استسلامها لهذا التردد الذى يلزمها عقر جناحها من هذا الفندق فى انتظار ماقد يستجد وما عساه أن يحدث ·

وفيم تقاعسها هذا ؟ ولم لا تنطلق الان وتخرج الى الشارع لتضطرب فيما يضطرب الناس فيه من حياة ؟ أن فى تنفيذ هذا الخاطر ما يجنبها حياة الوحدة ويحررها من أسار عزلتها · وكان تنفيذ الفكرة يزداد الحاحا عليها كلما تمثلت أمامها حياة الفراغ التى لم تألفها ولاتلائمها .

وما أن بلغت من تفكيرها هذا الحد ، حتى نهضت تستدعى احدى الخدم · وجلست ترتعد وقد توترت اعصابها ، فى انتظار تلبية الغداء · واخيرا اقبلت خادمة رشيقة فى مقتبل العمر وبدت على وجهها بوادر السخط لاستدعائها فى مثل هذه الساعة من النهار · وبادرتها زاريا قائلة :

ــ هل لك أن تؤدى لى خدمة ؟

ــ أجل سيدتى · ماذا تريدين

فقالت زاريا لاهثة الانفاس :

ــ أريد ·· أريد ·· أن على أن أسافر الى الخارج الليلة · ولقد قدمت من أسكتلندا دون ·· أن أحمل معى ثيابا ما · ومن الضرورى أن أحمل معى من الثياب والاحذية وغير ذلك من ملابس ماسوف أكون بحاجة اليه · كما أننى أرجو ···

فقاطعتها الخادم بازدراء قائلة :

ــ أجل ، أجل ، اعرف أن المتاجر مغلقة · الا يمكن أن أبتاع ما أريد بوسيلة أخرى ؟ كان يكون لديك منها ما انت فى غنى عنه

فحملقت الخادم فيها وكأنها لا تصدق ما سمعت · وتوسلت زاريا اليها قائلة :

– أرجوك . أرجوك أن ذلك من الاهمية بمكان .

وكانت مناشدة زاريا للخادم مناشدة امرأة لامرأة ، بصرف النظر عما بينهما من فوارق اجتماعية في موضوع تشترك فيه النساء جميعا – ألا وهو موضوع الثياب والهندام وأجابتها الخادم :

– فليكن ، سيدتى سنرى ما أستطيع القيام به من أجله .

الفصل الثانى

وقفت زاريا بنافذة غرفتها بفندق بريتانيا تتأمل حركة المرور فى الشارع الساطع باشعة الشمس · وعلى مرمى النظر كانت تبدو مارسيليا ، وكأنها ميناء منعزل عما حوله ·

وكانت زاريا قد قضت ليلها فى عربة النوم ، لتتساءل فى عجب عما اقدمت عليه وما اذا كان من الاوفق لها أن تقفل راجعة الى لندن وما اذا كان من المتعين عليهاان تكتب الى مستر باترسون لتحيطه علما بأنها حلت محل دوريس براون ·

وانتهى بها الى لاشىء · وكان أن وصلت الىمرسيليا ووجدت ان الفندق لايبعد كثيرا عن المحطة ، فقطعت المسافة سيرا على قدميها حاملة حقيبة ثيابها بيدها ·

ووجدت الغرفة المحجوزة كما ورد برسالة باترسون · وبعد أن صعدت اليها أغلقت بابها من دونها وعادت الى وحدتها ثانية ·

وأبتعدت عن النافذة لتشاهد انعكاس صورتها فى المرايا العديدة التى تزين جدران غرفتها ·

ولم تصدق أن هذه الصورة هى انعكاس لذاتها · ووقفت تتأمل هذا الثوب الذى حصلت عليه من خادم الفندق وتقارن بين أناقته وبين بشاعة الثوب الذى خلعته بعد أن واصلت ارتداءه أعواما · وقد بلغ بها ضيقها به

حدا القت به فى سلة المهملات عاقدة العزم على أن تقطع كل صلة بينها وبينه ·

واستعادت فى ذهنها مالاقته من عناء فى العثور على ثوب يلائم مقاسها لشدة نحافتها مما كان مثارا لتعليق خادم الفندق بعد أن رفعت الكلفة بينهما ·

وأخيرا اهتدت الى هذا الثوب الملائم نسبيا ، بعد أن زودتها الخادم ، مستعينة بزميلاتها بما كانت بحاجة اليه من احذية ، وجوارب وقبعة وملابس داخلية ودفعت فى مقابل ذلك ثمانية عشر جنيها ، بأصابع ترتجف لم تألف انفاق مثل هذا المبلغ من قبل فى مقابل ثيابها · وكان يخيل اليها أنها تسمع صوت والدها ينهرها لهذا الاسراف البالغ حد السفه فى رأيه ·

أما عن تصفيف شعرها فقد عاونتها الخادم فى ذلك بنفس راضية ، بعد أن أصبحت تشفق عليها وتتحمس لتلبية جميع طلباتها ·

وكان أن استاذنتها لتعود بأحد السقاة ، هنرى ، الذى كانت له خبرة سابقة بهذا العمل ، ووقف الرجل يحدث النظر فى زاريا ، بينما كانت الزى الخادم توضح له مايراد منه وتشجعه بأنها ستأتيه بكل ماهو بحاجة اليه من مواد وأدوات ·

وقام هنرى بما طلب منه · وتأملت زاريا شعرها بعد أن فرغ من عمله لتبين مدى ما طرأ على زينتها من تغيير انتقل بها من حال الى حال · وسألها هنرى راضيا عن نتيجة عمله :

— أرجو أن تكونى راضية عما وفقت اليه ؟

وكانت زاريا لا تدرى شيئا عما يجب أن تدفعه له · وفى غمار ما كان يستبد بها من حياء وما كانت تشعر به من حرج ، مدت يدها اليه ببضع أوراق نقدية أخرجتها

من حقيبة يدها ولم تتحقق مما نقدته اياه الا بعد أن تفقدت ما كان فى حقيبتها من نقود ، لتدرك أنها منحته ثلاثة جنيهات .

« ثلاثة جنيهات ! » بهذا همست فيما بينها وبين نفسها بينما كانت تستقل القطار لقد كانت تنفق مثل هذا المبلغ ، هى وسارا ، فى مدى عدة أسابيع ، تمشيا مع رغبة والدها أثناء غيابه عن المنزل .

غير أن هذا المبلغ وغيره ليس بالكثير فى مقابل ما تشعر به من راحة نفس أن تسنى لها الانتقال من هذا الماضى البغيض الى ماهى فيه من حاضر متجدد ، منطلق من دائرة ماضيها الممل المتواتر .

كان هذا الخاطر أول ما أدركت به ماهى مقدمة عليه بينما كانت تجتاز بحر المانش الى ميناء كاليه لتستقل القطار السريع عبر فرنسا . أن هذا القطار يحملها بعيدا عن ذاك الماضى . أنها تبتعد به عن البؤس والشقاء وعن الحرمان والجوع ، وعن القسوة والفزع .

وكانت تدرك أن رغبتها الشديدة فى الهرب من ذكريات الماضى ومن مخاوفها هى التى حدت بها الى الاقدام على هذه المغامرة الجريئة . أنه الخوف ـ الخوف من الناس ومن لندن ، وتلك الرهبة التى أشاعتها فى نفسها ثروتها الجديدة التى انتقلت بها من حال الى حال .. أنه الخوف من المجهول .

وتحدثت الى صورتها المنعكسة فى المرآة قائلة :

ـ انك الان دوريس براون .

ثم ضحكت وقد تبادر الى ذهنها ، ماذا عساها أن تقول دوريس براون اذا ما وقع نظرها على من تنتحل اسمها ؟

وراحت تتأمل زينة وجهها ، وتشكر للخادم الزى ما حملته اليها من مساحيق وما أقنعتها به من الالقاء جانبا بتلك العوينات الزهيدة الثمن التى كانت تضاعف من قبحها وحمل الى ذهنها ، كل هذا مدى ما تعرضت له من قسوة والدها وعنفه وماكانت تسمعه عن سوء معاملته لمن كانوا يساعدونه فى حفرياته من وطنيين · كما أستعادت تعقيبة على ما كان ينعيه عليه أولو الامر من هذه المعاملة السيئة وتنديده بهذه النزعة الجديدة التى تدعو الى المساواة بين الرجل الابيض والرجل الاسود ، وما يراه من ضرورة التفرقة عنصريا بين الاثنين ·

تلك هى العقلية التى أذاقتها صنوف العذاب ، وهى ابنته الوحيدة · مما كان من شأنه أن أفقدها الثقة بنفسها ، وجعل منها كائنا مفقود الارادة عاجزا عن الحركة يتملك الخوف منه الى حد الرهبة والفزع ··· بحيث أنها بعد وفاته لم تجرؤ على الرحيل عن هذا المنزل المنعزل الموحش ، اعتقادا منها أنه لا يوجد عالم خارج عالمها هذا · ياله من ماض بغيض ، ويالها من ذكريات كريهة !

ولكنها قد أستطاعت أخيرا أن تنفصل عن هذا الماضى وتتحرر من أساره.وها هى الآن فى مرسينيا تفعل ماتريد وتذهب ان تشاء · وبدافع من خاطر ثورى مفاجىء ، فتحت حقيبة يدها واخرجت بعض ادوات زينتها تقبض عليها بين اصابعها وكانت تتحدى بها هذا الماضى وذلك الحرمان ·

وبينما كانت مستغرقة فى استعادة ذكرياتها هذه ، فتح باب غرفتها فجأة ولم تكن قد سمعت أن أحدا طرقه، فاستدارت دهشة · ووقع نظرها على رجل يدلف الى

غرفتها فى هدوء وسكون · ووقف موليا ظهره الى الباب · فبادرته قائلة فى تساؤل المستنكر :

ـ ماذا تريد ؟

فأجابها القادم :

ـ هل أنت مس دوريس براون ؟

فأجابت زاريا فى تردد :

ـ أ ·· أجل ·

ـ حسنا ! هذا ما كنت أعتقده ·

وكان يتحدث لاهث الانفاس وكأنه يسرع الخطى فى قدومه · وتبينت أنه كان يحمل حقيبة ثياب بيده ومعطفا فوق ذراعه · وكان اسود الشعر ، ملوح البشرة ، يضع على عينيه نظارة شمسية ، وكانت لهجته مختلفة بعض الشيء وإن كانت لم تتبين ماهيتها ·

وأخيرا ، قالت له محتدة :

ـ لست ·· لست أفهم شيئا · ماذا تريد ؟ ولماذا لم تطرق الباب ؟

ـ لم يكن لدى متسع من الوقت ·

وتبينت ثانية انه كان يلتقط انفاسه بصعوبة · ربما كان قد أجتاز الدهليز ركضا بعد أن أرتقى الدرج قفزا · ولكن ترى ما الذى دعاه الى ذلك ؟ وتأملته وقد أسقط فى يدها وأخيرا ، وبعد أن أدرك ما يساورها من ريبة وقلق ، قال فى لهجة هادئة :

ـ أرجوك الا تخشى شيئا · لقد سمعت بوجودك هنا وأردت أن ألتقى بك ·

فتساءلت زاريا فى دهشة :

ـ سمعت بوجودى هنا ! ممن ؟

فأجابهـــا :

ـ دعينا من ذلك · المهم هو أننى بحاجة ماسة الى معونتك ·

وبدأت تدرك السر فى اختلاف لهجته ·· انه امريكى النشأة · وكان رجلا مديد القامة عريض المنكبين ، وان كان رشيق الحركة شأنه فى هذا شأن الرياضيين · وأردف يستأذنها :

ـ هل يمكن أن اتخذ لى مقعدا ؟

ـ اجل اذ لامفر من ذلك فيما أرى لست ·· لست ادرى ·· أو كان من المفروض ان تقبل ·· مندفعا الى غرفتى بهذه الصورة ؟

ـ أرجوك ، مس براون · سأقوم بايضاح كل شىء اذا ما أصغيت الى .. هل اجد منك اذنا صاغية ؟

ـ أجل ·· ها أنا مصغية اليك ·

ـ شكرا ·

وبدأ حديثه فى هدوء ثم استدار فجأة يخطو نحو الباب ليطل من فرجته متفقدا الدهليز ، ويعود ليوصده ثانية وهو يقول :

ـ كنت اريد الاطمئنان الى أن احدا لا يسترق السمع ·

ـ وما هو الداعى الى ذلك ؟ ومن عساه أن يفعل شيئا من هذا القبيل ؟ اننى وصلت الى هذا الفندق منذ برهة وجيزة ·

ـ اعرف ذلك · لقد شهدت وصولك ، فى الواقع · ولم أتعرف عليك حينئذ ، لانك لم تكونى بالصورة التى تمثلتها فى ذهنى عن مس براون ·

وآثرت زاريا الا تعقب بشىء · فماذا عساها أن تقول ؟ وخطا عبر الغرفة صوب النافذة حيث اتخذ لـه

مجلسا · وبينما كان يهم بالجلوس تبينت فى وجهه لمحا
ألم وتفرست فى وجهه لترى سحجا بصدغه وأذنه ·
وتبين من عينيها نظرة التساؤل فاسرع موضحا :
ـ لقد تعرضت لحادث سيارة ·
ـ هذا ما أرى نتائجه ·
وخطت تتخذ لها مقعدا فى مواجهته · وجلست فى انتظار ان يبدأ الرجل الغريب حديثه ثم سمعته يبادرها قائلا :
ـ هل تأذنين بالتدخين ؟
ـ أجل ، أجل ، بكل تأكيد ·
ـ ما كنت لافعل شيئا من هذا القبيل ، ما لم أكن واثقا من انك لن تقضى الليل في غرفتك · ان اليخت يرسو بالميناء ·
ـ كيف لم أحط خبرا بذلك ؟
ـ لانه وصل منذ قليل ·· انك ستسمعين بذلك بعد قليل ·
واستفسرت زاريا منه متسائلة :
ـ وانى لك كل هذه المعلومات ؟
ـ من صديق لك · صديق علمت منه بقدومك · وقد سالنى هذا الصديق أن أبحث عنك ، وأسعى للقائك ·
وبعد لحظة ، وجهت زاريا اليه السؤال الذى كان متوقعا منها :
ـ ما ·· ما هو اسمه ؟
وأجابها الرجل الامريكى :
ـ لا أعتقد انك ستذكرين شيئا عنه ، وان كنت قد التقيت به فى لندن ، وقد علم من بعض الاصدقاء بأمر هذه الرحلة ·· وهو الذى أخبرنى بانضمامك اليها ، ولذلك قدمت مسارعا اليك طامعا فى كرمك ·

ـ ماذا تريدنى أن أفعل ٠ ؟

ـ ان تصطحبينى معك ٠

وخيل اليها ، لاول وهلة ، ان ما استمعت اليه لم يكن حقيقة واقعة ٠ وجلست ساكنة تحدث النظر فيه ـ فى هذا الرجل الغريب بعويناته الداكنة التى أضفت عليه ما جعله يبدو خيالا ابعد ما يكون عن الحقيقة والواقع ٠

واخيرا قالت له :

ـ اننى ٠٠ لم افهم شيئا ٠

ـ مس براون ، ارجو أن تستمعى الى ؛ مـن الضرورى ، بالنسبة لى ، ان اسافر الى الجزائر ، ان والدتى مريضة ، مما يتعين على معه أن اقوم بزيارتها ٠

ـ ألا يوجد بواخر ؟

ـ بديهى ، ولكن ليس معى نقود .

وكان هذا الايضاح لدى زاريا ، ايضاحا منطقيا معقولا ، وان كانت قد تبادر الى ذهنها انه لا يبدو من مظهره ما ينم عن افلاسه ٠ فقد كان يرتدى حلة أنيقة وسبق له أن أخرج من جيبه علبة سجائر فاخرة حينما استأذنها فى التدخين ٠

فقالت له برفق :

ـ يسوءنى ان اسمع منك هذا ، لاننى ذقت طعم الفقر غير أنه ليس فى وسعى أن أقوم بشىء من أجلك .

ـ ولكنك تستطيعين ٠ ويجب أن تفعلى ما سألتك اياه . لقد علمت بذلك من صديقى ، وبأن مستر فيردون كان قد الح فى أن يكون له سكرتيرة تلم بعلم العاديات وباللغة العربية ايضا اليس هذا صحيحا ؟

ـ بلى انه الحق ٠

ـ اذن فكل ما عليك القيام به هو أن تقولى عنى اننى مساعد لك رأيت اصطحابه معك لانك تخشين الا يكون لك

قبل بتأدية العمل الذى سيعهد به اليك بمفردك •
ـ قد لا يصدقنى مستر فيردون ولا يقتنع بهذ التبرير •
ـ بل انه سوف يصدقك • اننى جد واثق من ذلك • وليس عليك سوى بذل أقصى ما فى وسعك لاقناعه بوجهة نظرك ؟
ـ وماذا يدعونى لبذل مثل هذا الجهد ؟ وفيم كل هذا العناء • ؟
ـ لاننى جئتك ضارعا • ولاننى يجب أن اسافر الى الجزائر • ولانه من المتعين أن أهرع لاكون الى جانب والدتى المريضة • ان زوجها ـ وهو ليس بوالدى ـ وحش ضار يسىء معاملتها .
وكان حديثه صادرا من القلب لا زيف فيه ، مما شعرت معه زاريا بالدمع يطفر الى عينيها • وكانت تميل الى الموافقة على ما سألها اياه بدون تردد • فها هو انسان فى مأزق يلوذ بها ضارعا مستنجدا فى لهجة صادقة امينة • فانبرت تقول له :
ـ استمع الى ما سأقول • اننى لم يسبق لى أن التقيت بمستر فيردون • لقد ألحقت بالوظيفة بواسطة محاميه فى لندن • ولنفترض أنه رفض أن يكون لى مساعد ؟ ولنفترض انه غضب لمجرد هذا العرض من ناحيتى ؟
فعقب الامريكى فى لهجة قاطعة :
ـ لا أعتقد انه سيفعل شيئا من هذا القبيل ، أرجوك أن تفعلى ما قلته لك وأنا زعيم لك بأن كل شىء سيكون على ما يرام •
فاعترضت زاريا بقولها :
ـ ولكن •• ولكن لماذا •• لماذا أفعل ذلك ؟
ـ لاننى اعرف أنك طيبة القلب ، ولان ما اسألك القيام

به يعنى الكثير مما لااستطيع أن اوضحه لك ، ولأنك لن تضحى بشيء اذا ما فعلت ما سألتك اياه ٠

ودار بخلد زاريا ان ما يقوله هو الحق كل الحق ٠ واذا ما حدث ما لم يكن فى الحسبان ، وساءت الامور فما عليها الا أن تقول انه بختها ٠ وأنها وأن كانت تدرك انها لن تجرؤ على مثل هذا القول ، الا انها كانت تجد فيه ما يطمئنها الى حدما ٠

ويبدو أن الامريكى قد قرأ ما يدور بخلدها ، فقال لها :

ـ لدى خطة قد تجرى بشرط أن توافقى عليها ٠ فحينما تتلقين رسالة القبطان بأن اليخت يرسو بالميناء ، اريد ان تصطحبينى معك الى هناك ، ثم تقدمينى اليهم على اننى خطيبك ٠

ـ خطيبى !

وحملقت زاريا بعينيها فى الرجل الجالس امامها ، وسمعته يقول :

ـ اجل ، هذا أفضل ٠ وسيكون فى هذا خير مبرر لاصطحابك لى ٠ فعلاوة على أنك بحاجة الى من يعاونك فى عملك ، فستقدمينى اليهم على أننى خطيبك ٠ واعتقد أن هذه الصفة الاخيرة ستذلل كل صعوبة ٠ ويمكنك أن تزيدى الامر ايضاحا بقولك اننا حديث عهد بالخطبة وانك آثرت أن نكون معا فى رحلتك الى افريقيا صحبة مستر ميردون ٠

وبدا لزاريا أن ما يقترحه مقبول منطقيا ٠ علاوة على أن الخطة تتفق مع ما كان من أمر دوريس براون الحقيقية فعلا ـ من عقد خطبتها ـ وان كانت قد تخلت عن العمل بسبب هذه الخطبة ٠ وبعد أن اطرقت قليلا ، قالت :

ـ لست ادرى ماذا أنا فاعلة ؟

ـ ليس أكثر من الموافقة على ما عرضته عليك ·
ـ ولكنني ·· لا اعرف حتى اسمك ·
ـ فلتدعينني بتشاك · انه الاسم الذى يدعونني به فى الكلية · ولقبى هو تانير ـ تشاك تانير · ويتصادف أننى ألم باللغة العربية قليلا ، كما أعرف القليل عن العاديات ·
ـ أن فى هذا ما قد يدعم موقفنا ·
غير أنها كانت لم تزل مترددة · ثم انبرت تسأله ، وقد اصطبغ وجهها · بحمرة الخجل :
ـ هل لك ·· هل لك فى رفع عويناتك ؟
وأسرع يستجيب الى ما سألته اياه دون تردد ، وسألها وهو يحدق النظر فى عينيها بعينين تفانتين :
ـ لماذا ؟
ـ لانني ·· لانني أردت فقط أن أرى كيف تبدو بغيرها ·
ولم تكن زاريا بقولها هذا لتنطق بالحق كله ، لانها لم تشأ أن تصارحه بأنها كانت تؤمن دائما بأنه يمكن الحكم على الرجل او المرأة من تأمل عينيه ، وسبر غورهما ·
وكانت عيناه تشعان صدقا ، وأمانة ، وتوحيان بالثقة فيه والاطمئنان اليه · ثم اردفت قائلة :
ـ شكرا ··
واشاحت بوجهها عنه لتخفى ارتباكها · واعاد العوينات الى مكانهما فوق عينيه قائلا :
ـ من الضرورى أن أضعها · اننى أصاب بصداع شديد اذا لم أفعل هذا ، كما أننى مصاب بحمى القش ·
وفزعا معا لرنين التليفون الذى بدد سكون الغرفة المخيم · واسرع تشاك تانير بقوله :
ـ لابد وان يكون هذا الاتصال صادرا من اليخت · لا

تتحدثى بشىء عن زيارتى لك • ولا تقولى لهم أكثر من انك متوجهة اليهم رأسا •

وأتجهت زاريا نحو التليفون ، وما كادت أن ترفع السماعة حتى وجدته الى جانبها وقد وضع يده فوق يدها ليحول بينها وبين اجابة النداء قائلا :

ـ لحظة واحدة • اذا ما كان النادى احد آخر ايا من يكون ، فلا تقولى اننى موجودة هنا هل فهمت ؟

ـ وفيم كل هذا ؟

فقال لها بصوت آمر :

ـ عليك بالتنفيذ أولا •

وخلى ما بين يده ويدها • ورفعت السماعة لتسمع صوتا يسألها :

ـ مدموازيل براون ؟

ـ أجل •

ـ لحظة من فضلك •

وكان الحديث بالفرنسية • وبعد قليل سمعت صوتا يتحدث اليها بلهجة لندنية :

ـ مس براون ؟

ـ أجل •

ـ سعدت مساء • يبعث القبطان اليك بتحياته « الساحرة » فى الميناء • هل لك فى القدوم فورا ؟

ـ قل للقبطان اننى قادمة فورا •

ـ حسنا • الحوض رقم ٣ رصيف ٤٧ •

ـ شكرا •

وقطع الاتصال من الناحية الاخرى واعادت زاريا

سماعة التليفون الى مكانها · وأدركت ان تشاك تانير كان من القرب بحيث يسمع كل ما دار من حديث · وابتسم قائلا :

– هل كل شيء على ما يرام ؟

– من حسبته ان يكون اذا لم يكن المتصل من اليخت ؟

– انك لم تدركى بعد الكثير من الامور · ثمة طراز من الناس يحلو لهم أن يحوموا حول كل مليونير ·

وجلست زاريا فوق الفراش قائلة :

– هذا ما لم يدر بخلدى · ارجو ألا تكون محتالا ؟ لعلك لا تحاول · بذلك التمهيد لسلب أموال مستر فيردون ·

فضحك تشاك تانير قائلا :

– أعدك بأننى مهما يكن من أمر اعتزم فعله فأننى لن اقدم على شيء من هذا القبيل · كما اننى لن يكون لى شأن بتلك الكنوز التى ستعثران عليها انت ومستر فيردون · اننى لا ابغى اكثر من الوصول الى الجزائر ، كما سبق أن قلت لك ·

– فلنفترض ان فى وسعى ·· أن أقرضك النقود ؟

وتبينت انه اخذ على غرة باقتراحها هذا ، وان كان قد استطاع أن يهتدى الى الجواب بعد ثانية :

– أولا ، لا أعتقد أن لديك ما يكفى من نقود · وثانيا ، أنه ليس من دأبى أن أقبل مالا من أحد ، وبالذات النساء :

– مهما يكن من أمر ، فأن الفكرة لا تروقنى · ولنفرض أن القبطان قد رفض رفضا قاطعا قبولك على ظهر سفينته ؟

فعقب تشاك تانير بلهجة قاطعة :

– أنه لن يفعل ذلك · ان كل ما سيقوله ان علينا ان

نتريث الى أن يصل مستر فيردون ـ ومن هنا تبدأ مهمتك الاقناعية • انني أعول عليك ، مس براون ، واضعا أمرى بين يديك • وأؤكد لك أن هذه ليست نزوة ، او محاولة للهرب • انها مسألة حياة او موت •

ولمست زاريا من نبرات صوته ما جعلها ترتعد • واستطرد قائلا :

ـ والان ، أريد منك القيام بشيء آخر • ان تسددى حسابك ، ثم تسألينهم استدعاء سيارة أجرة لك • وحينما تستقلين السيارة ، تأمرين السائق بالتوجه الى الميناء • بمجرد ابتعادك بالسيارة قليلا ، تسألين السائق أن يتوقف بك أمام الصيدلية الكائنة بشارع غاريبا لدى • لا تنسى هذا • وستجديننى فى أنتظارك هناك •

ـ هذا يعنى أنك .. أنك لن تصحبنى فى انصرافى ؟

ـ كلا • اننى سأغادر الفندق عن طريق البـاب الخلفى • هذا أفضل • اننى لا أريد ان يرانى أحد •

ـ ما زال الامر مستغلقا على فهمه •• أتراك •• هاربا من الشرطة ؟ هل أرتكبت جرما ما ؟

فأجاب مبتسما ؟

ـ لقد أرتكبت اخطاء كثيرة في حياتى ، وان لم يكن منها شيء يعنى الشرطة الفرنسية • أرجوك ان توليني ثقتك • اننى أدرك ان فيما يجرى بينى وبينك ما يستوجب الدهشة والتساؤل وأنه قد يكون أقرب لما ينشر من قصص الجريمة • غير أن الامر بعيد كل البعد عن هذه المظنة حقيقة الامر لا تعدو اننى يجب ان اسافر الى الجزائر ولا أريد ان يستوقفنى احد • ان ابناء زوج أمى لا يريدون أن يتم لقاء بينى وبين والدتى • أنهم يخشون ان تورثنى اموالها • هذا هو كل مافى الامر •

– فهمت · سأقوم بتنفيذ ما سألتنى اياه ·

ولم تكن تدرى السر فيما ينتابها من شعور · فعلى الرغم من غرابة القصة ، ومن مسلك الامريكى الشاذ ، ومن اقتحامه عليها غرفتها ، فقد كانت تشعر فى قرارة نفسها بالسرور لسفره معها الى الخارج ، وملازمته لها فوق ظهر اليخت ·

ولن يكون مجرد شعورها بأنه معها بأشد وطأة من شعورها وهى تواجه هذا الحشد من الناس الذين لا تعرف عنهم شيئا – مستر فيردون ، والقبطان ، وغيرهما ممن قد يوجد فوق ظهر اليخت · وسمعت الامريكى يقول لها :

– والان ، يحسن بنا ان نتصرف · لا تنسى ، أن اسمى تشاك · وأننا نتبادل الحب · ومن المفروض أن أناديك بدوريس ·

فقالت زاريا عن غير وعى منها :

– كلا ، أرجوك ألا تفعل هذا ·

ولما أدركت انه يتأملها دهشا ، أسرعت مردفة :

– أن هذا هو اسمى الوظيفى · أنهم ينادوننى بزاريا فى المنزل · وكثيرا ما أنسى اسمى الوظيفى اذا ما نوديت به ·

فردد الاسم فى رقة وهو يقول :

– زاريا ! يا له من أسم جميل – انه اسم عربى ·

– أجل ، وهو من أختيار والدتى لشدة أعجابها به ·

– لقد أحسنت صنعا · زاريا ! لن أنسى هذا الاسم · وسنحتفظ باسم مس دوريس براون فقط للمناسبات الرسمية :

وأدركت زاريا أنها اطلقت لنفسها العنان ، وبدأت

تشعر بالندم على ما انطلق به لسانها · ولاح لها انها ستواجه سيلا من الاسئلة المحرجة · الم يكن من الافضل ان تدعه يناديها ياسم دوريس ؟ ام لعلها كانت تخشى الا تجيب النداء لان الاسم غير مالوف لديها · كلا ، فاذا ما كان لهما ان يدعيا بعلاقتهما الوثيقة ، فانه من الاسلم ان يناديها بالاسم الذى تستجيب له فورا ·

ومدت يدها تحمل حقيبة ثيابها · فسألها تشاك تانير :

ـ هل هذا هو كل من أتيت به معك ؟ ليس من شك فى انك تؤثرين ألا ترهقى نفسك بحمل الكثير .

ـ وماذا تحمل أنت ؟

ـ ان لدى حقيبة أخرى أودعتها الصيدلية .

ـ سأبتاع بعض الثياب بعد وصولى الى الجزائر · ولقد أضطررت الى الاسراع بالسفر ، لان المحامى لم يدع لى متسعا من الوقت · ويرجع هذا الى أنه يواصل البحث عمن تصلح لهذا العمل ·

ـ فهمت ! والان ، الى اللقاء مؤقتا ، وشكرا ·

ومد تشاك تانير يده اليها مصافحا · وصافحته زاريا ، وقد شعرت بالقوة ، والدفء ، والامان ثم وضع يده فوق مقبض الباب قائلا :

ـ أرجو أن تلقى نظرة على الدهليز لتتبينى اذا ما كان ثمة أحد ما ·

فأطاعت زاريا بدون تعقيب · وتبينت ان الدهليز هادىء ، لا يوجد به أحد · وجذب تشاك طرف قبعته فوق عينيه · وقال لها هامسا وهو يجتاز الباب :

ـ سنلتقى فى مدى خمس دقائق ·

ثم مشى يستحث الخطى عبر الدهليز · وتريثت زاريا الي أن اطمأنت انه ابتعد بما فيه الكفاية ثم سارت فى

اتجاه المصعد الذى أستقلته الى الطابق الارضى ، حيث قامت بتسديد حساب اقامتها ، ثم مضت قدما الى المدخل الرئيسى ٠

وكان هناك كثيرون جالسين فى البهو ـ رجال يقراون الصحف ، ونساء يتجاذبن اطراف الحديث ، واسر تصحب اطفالها ٠ وتساءلت زاريا عما اذا كان من المحتمل ان يكون احد من هؤلاء هو من يخشى تشاك أن يحول بينه وبين السفر الى الجزائر ٠ وأنها لتستطيع أن تتمثل كيف يحاول ابناء الوج بحكم وضعهم المتميز ، الحيلولة دون الابن الاصيل وتلقيه ميزاثه عن والدته ٠ ورأت انها احسنت صنعا بموافقتها على مساعدته ٠ وبعد أن استقلت السيارة الاجرة سألت السائق ان يتجه بها الى الميناء ٠

وكان تشاك فى أنتظارها بالصيدلية ٠ وبمجرد توقف السيارة أمام الباب ، اسرع يلقى بحقيبته داخل السيارة ، قبل أن يستقلها قائلا :

ـ كل شيء على ما يرام ؟

فأجابته زاريا :

ـ أجل ، بكل تأكيد ٠ أنك لم تكن تتوقع انها ستجرى كذلك ؟

ـ لست ادرى ، على وجه التحديد ، ماذا كنت أتوقع ٠ ربما كنت متعب الاعصاب ٠ والان أتراك واثقة من احاحتك بكل ما بصرتك به ؟ وبالمناسبة ، لاتنسى اننا قدمنا منلندن سويا ٠

ـ انك لا تفعل شيئا ٠ ولكن ، هل تعتقد حقا أن احدا لن يحاول مناقشة قصتنا ؟

ـ من يدرى ٠ ان اول ما يجب أن يراعى فى سرد

الاكاذيب ، العناية بجميع التفصيلات ومراجعة دقائقها · ماذا دهاك ؟

وكانت زاريا قد أشاحت بوجهها عنه · فأجابته قائلة :

ـ انني لا احب الكذب · ولم يسبق ان استهوانى من قبل · ومن هنا مصدر خوفى ·

فقال محاولا ان يهدىء من روعها :

ـ ثقى من ان كل شيء سيكون على ما يرام · وكل ما أسألك اياه أن تقتصـــدى فى الكلام ، والا يتطرق بك الحديث الى أكثر مما يجب ·

وأثناء حديثه ، رفع يده يجذب طرف قبعته من الناحية اليسرى · فقالت له زاريا :

ـ ألم تفعل شيئا من أجل هذا الكلام ؟

ـ بلى ، ولقد أكد لى الصيدلى ان الدواء الذى أعده سيكون له فعل السحر ، وأن كنت لن أصدق هذا قبل تجربته ·

ـ وهل كنت تقود السيارة بسرعة فائقة ·

ـــ أقود السيارة ؟

ـ سيارة الحادث ·

ـ أجل ، أجل ، بكل تأكيد · انني انسان عجول ، ليس من طبعى التأنى · الاندفاع هو عيبى ·

وجلسا صامتين الى ان بلغــا من رحلتهما رصيف الميناء ، حيث وقع نظر زاريا على اليخت « الساحرة » فى مرساة ·

ولم تكن قد تمثلت فى ذهنها شيئا عن الصورة الحقيقية لهذا اليخت ـ يختها · ولم تتوقع أن يكون بهذه الصورة الفخمة ـ ناصع البياض ، انيق المبدى ء بكل هذه الروعة التى يشمخ بها ويزهو ·

وتنازعتها الرغبة فى أن تصيح قائلة ، « انخ يختى انه ملكى ! ولكنها تمالكت نفسها ، ووقفت فى انتظار تشاك الذى قام بدفع أجر السيارة ، والتفتت لترى بحارين يهرعان فى اتجاههما لحمل حقائبهما ٠

وكان اليخت أضخم حجمـا مما تخيلت ٠ وأقبـل القبطان الملتحى ، بحلته الرسميه عليهما مادا يده يرحب بهما ٠ وبادرها قائلا وهو يبتسم :

ــ كيف حالك ، مس براون ٠ ارجو ألا تكونى قد انتظرت كثيرا ٠ كنت أخشى الا يتيسر لنا التواجد هنا بناء على بعض الاصلاحات ، قبل صباح الغد ٠ ولكنك ترين ان شيئا من هذا لم يحدث ٠

وصافحته زاريا محاولة أن تبدو رابطة الجاش ، وهى تقول :

ــ وكيف حالك ؟ أقدم لك مستر تانير ٠٠ خطيبى ٠

ــ خطيبك ! يا لها من مفاجأة ، أليس كذلك ؟ لم نكن نتوقع أنك سوف تصطحبين معك أحدا ٠

فقالت زاريا وهى تلتقط أنفاسها :

ــ أرجو ٠٠ الا يعترض مستر فيردون على ذلك ٠ لقد الح المحامى فى ضرورة قبولى هذه الوظيفة ولما كنت لا أريد أن أفترق عن مستر تانير ، ولما يمض على خطبتنا الا قليل ، فقد رأينا ان يصحبنى كمساعد لى ، وبالذات لان له خبرة سابقة بهذا العمل ٠

ــ أرجو أن يتم كل شىء على ما يرام ٠ ولدينا الكثير من الغرف ٠

واتجه بحديثه الى أحد البحارة قائلا :

ــ عليك بحمل حقائب السيد الى الغرفة « د » ٠

ــ سمعا وطاعة يا سيدى ٠

وأردف القبطان قائلا :

– والان ، مس براون ، أريد أن أريك جناحك . ولعلك ، ومستر تانير ، بحاجة الى قدح من الشاى ؟ أن خادم السفينة بسبيل اعداد سماط انجليزى فى قاعة الطعام .

فعقبت زاريا بقولها :

– رائع ! هذا ما كنت بحاجة اليه .

وبعد ان ألقى القبطان نظرة على ساعة يده قال :

– اننا نتوقع قدوم مستر فيردون فى حوالى السادسة . لقد قدم بحرا فوق ظهر الباخرة « مترنبورج » . وقد رست الباخرة بميناء الهافر فى ساعة متأخرة من الليلة الماضية ، ثم استقل قطار النهار الى هنا . واتوقع وصوله الى اليخت بعد السادسة بقليل .

فقالت زاريا وهى ترنو بنظرها الى تشاك :

– وسوف أتمكن من التحدث اليه ، حينئذ .

فوافق القبطان بقوله :

– تماما . وفى الوقت نفسه ، أرجو أن تشعرى بأنك فى دارك .

وتقدم زاريا الى غرفة فخمة ، رأت فيها أعلى مراحل الترف . وكانت غرفة تشاك فى الناحية الاخرى من الدهليز . ثم أضاف القبطان :

– والان سأقودك على الغرفة التى أمر مستر فيردون باعدادها لتكون مكتبا للعمل .

وتقدمها الى غرفة أعدت خير اعداد ، بمنضدتها ، وآلتها الكاتبة ، وملفاتها ، وغير ذلك من مستلزمات العمل . وقال موضحا :

– لقد ابتعنا كل هذه المعدات من « كان » بناء على توجيهات مستر فيردون . لم أحظ بعد لقاء مستر

فيردون ، وأن كنت أشعر من رسائله وتوجيهاته بأنه هذا الرجل ـ رجل الاعمال بكل معنى الكلمة ، على الرغم من أهتمامه بالماضى ·

ـ أجل ·· هذا ما يبدو ·· على الاقل ·

وقفلت راجعة الى غرفتها وانصرف القبطان بعد ان أرشدها عن الطريق الى قاعة الطعام · وبعد أن اوصدت الباب من خلفه ، رفعت يديها تغطى بهما وجهها ·

أويمكن لرجل أعمال ان يصدق مثل هذه القصه المبتكرة عن خطيبها ؟ وهل تراها ستوفق فى تجنب كل ما من شأنه أن يثير الشك فى نفسه من ناحية حقيقة شخصيتها ؟ ـ بوصفها مس دوريس براون ·

ووقفت لا تدرى من أمر نفسها شيئا · ثم سمعت طرقا على الباب · وقبل أن تأذن للطارق بالدخول ، فتح الباب وأطل منه تشاك · وقال لها هامسا وهو يبتسم :

ـ كل شىء هادىء فى الميدان · أن المغامرة فى بدايتها هى الاثارة ام الخوف ؟

ـ أنه الخوف ! الخوف الشديد !

ـ وفيم الخوف ؟ انى هنا لاتولى رعاية أمرك ·



الفصل الثالث

وقفت زاريا تتابع أقلاع اليخت وهو يتهادى فى طريقه مبتعدا عن الميناء الكبير . وكان ذلك فى ساعة مبكرة من الصباح ، وقد حجب الضباب الافق وبدا البحر شفافا ـ شاحبا ، بحيث يستبعد المرء مع هدوئه هذا ، انه سيضطرب فيما بعد بزرقة الحياة ، وبنضارة الحركة .

وبدا لها كل شيء أسطورى الطابع ، وكأن العالم من حولها وهم وخيال . كما كانت زاريا تشعر بأنها هى الاخرى ليست بأكثر من خرافة من خلق خيال شخص آخر وانها أشبه ما تكون بالنائم يرتفع به حلمه عن دنيا الواقع الى سماء الخيال .

أو كل ما يجرى من حولها حقيقى ؟ وهل تملك هذا اليخت فعلا ؟ وهل هى بعيدة عن اسكتلندا وعن لندن وعن ماضيها القائم بأسره ، فوق ظهر هذا اليخت الذى يمخر بها عباب البحر ليذهب بها بعيدا ، ان احدا لم يتعرف على شخصيتها بعد ، الامر الذى لابد وأن يكون فى يوم ما ! وأشفقت على نفسها من هذا اليوم !

ولم يكن مستر فيردون ومن معه قد وصلوا فى الساعة السادسة كما كان متوقعا . اذ قد وردت برقية تتضمن انهم اضطروا للتخلف فى باريس وأنهم لن يصلوا قبل منتصف الليل . وقالت زاريا لتشاك بعد علمهما بذلك :

ـ من المفروض آن نرتقب حضورهم .

فقال لها تشاك :

ـ لا يوجد ما يعدو لهذا .. ثمة متسع من الوقت فى الصباح ، ليحاط مستر فيردون علما بأمرنا .

ـ كلا . اننى ارى انه من الخير أن ننتهى من ذلك فى أقرب فرصة . ان مجرد خاطر لقائى به يفزعنى .

ـ ولماذا ؟

ولما لم تعقب بشىء على سؤال تشاك ، استطرد قائلا :

ـ يا لك من فتاة غريبة الاطوار ! يبدو لى انك تخشين امورا كثيرة . ترى ما الذى يثير قلقك بالذات ؟ بصرف النظر عن مشكلتى .

وأشاحت زاريا عنه بوجهها ، تتطلع فيما حولها بغرفة المكتب المعدة خير اعداد . وتبادر الى ذهنها ان تصارحه بحقيقة أمرها ، وتحكى له كيف انتحلت شخصية مس دوريس براون . ثم عادت لتذكر أنها لا تعرف شيئا عن حقيقة أمر تشاك ، الذى كان لقاؤها به منذ بضع ساعات فقط وحاولت جاهدة أن تبدو جادة وهى تقول :

ـ اعتقد أنه من الخير أن تحدثنى ببعض أمرك .

ـ بكل تأكيد . ماذا تريدين أن تعرفى عنى ؟ اننى فى الثامنة والعشرين من عمرى ، أمريكى لام فرنسية تزوجت ثانية من فرنسية . جبت أنحاء أوروبا وعرفت الكثير عنها . ادخن ، واحتسى الخمر ، وأحب الاطفال . او هذا ما كنت ترغبين فى سماعه ؟

ـ قد يكون هذا .

قالت زاريا هذا غير قاطعة رأيا ، اذ كانت تشعر بأنه يخفى من حياته جانبا ، على الرغم مما يعمد اليه من تظاهر باللامبالاة وبرباطة الجأش . انه يختلف عنهما فى ذلك أيما اختلاف . انها متوترة الاعصاب ، لا تستطيع

السيطرة على نفسها اذا ما تحدث اليها أحد ما · وسمعته يقول لها :

– والان دعك منى ولنتحدث عنك · لقد كنت مريضة ، اليس كذلك ؟

وكانت زاريا بسبيل أن تجيب بالنفي ، حينما تبادر الى ذهنها كيف كانت تبدو نحيفة شاحبة ، مجهدة ولذلك ، رأت أنه من المتعين عليها أن تلجأ الى الكذب احتراما لنفسها . فقالت فى صوت خافت :

– بلى ، لقد كنت مريضة ·

– هذا ما تبينته فعلا · وأعتقد أن هذه الرحلة ستفيدك كثيرا على الاقل عبر البحر الى الجزائر وسأتولى القيام بالعمل نيابة عنك ، بينما تنالين قسطك من الراحة ·

فابتسمت قائلة :

– هذا جميل منك ، وأن كنت اعتقد أنك لن تستطيع القيام بالعمل الذى سيعهد به الى مستر فيردون انه عمل فنى ، وبالذات ما يتصلمنه بترجمة بعض أوراق البردى القديمة ·

– اننى لن أحاول القيام بشىء من هذا القبيل · ان ما اعتزم القيام به هو الكتابة على الالة الكاتبة كتابة ما تملينه على ·

فانبرت زاريا تسأله :

– ما هو عملك ؟

وتردد قبل أن يجيب ، وأدركت انها لن تسمع صدقا :

– لقد قمت بأكثر من عمل · فقد كنت جنديا ، وقدت طائرة وتجديننى أصلح لاى عمل عند الاقتضاء ·

ولم تعقب زاريا بشىء ، وأن دار بخلدها انه لن يصارحها بأكثر مما سمعت · وران عليهما صمت مطبق · وشعرت بأنها ليست بالفتاة الاجتماعية ، لانها

كانت تحيا حياة شبه منعزلة فى عالمها المقتطع عن الكون بعيدا · وما كانت لتلتقى الا بالقليل من الناس بحكم طبيعة حياتها

وذكرت فيما ذكرت فى وقفتها تلك ، ماضيها المبكر المشرق ، حينما كانت والدتها لم تزل على قيد الحياة ، وحينما كان منزلهم فى أدنبره يعج بالقوم من كل طراز· وأنها لتذكر كيف كانت تستقبل الضيوف تصافح هذا اللورد وتحيي ذاك السير ، وبعد تمونها الى مشـــاهير الاساتذة والكتاب ·

وكان المنزل يفيض مرحا وسرورا ، بفضل شخصية والدتها وقوة تأثيرها ، وما تضفيه على المكان من روح اجتماعية مرحة تنبض بالحياة ·

ثم شاء القدر أن يختطف منها امها · وأن زاريا لتذكر كيف كانت تقضى لياليها الطوال مؤرقة مسهدة ، تنتحب منادية والدتها فى الظلام : « أما ، أين أنت ؟ هلا عدت الى ، اننى بحاجة اليك » ·

ورحلت مع والدها عن أدنبره الى الخارج · ثم عادا الى انجلترا ليستقرا بعض الوقت فى لندن قبل أن يقرر البروفسور مانسفورد الاستقرار نهائيا فى اسكتلنـدا ، بهذا البيت على مشارف المستنقعات الذى لم يكن بأكثر من كوخ معد للصيد · وأنها لتشعر الان بالرعدة تسرى فى أوصالها لمجرد استعادتها لذكرى هذه الليالى الطوال من شتاء هذه البلاد القاسى البرودة · وأظلمت عيناها وهى تشعر بأن يد هذه الذكريات تمتد من لحد هذه الوحدة ، وذاك الشقاء ، لتعيدها الى متاهات هذه الحياة القاتمة ·

وسمعت صوتا يهبط بها من حالق خيالها ويعيدها من

بيداء ذكرياتها ، فجفلت مستديرة لتجد تشاك وراءها :
ـ منظر جميل ، اليس كذلك ؟ لقد استيقظت مبكرة ٠
فأجابته زاريا :
ـ اعتقاد منى أن مستر فيردون قد يكون بحاجة الى ٠
ـ اننى استبعد هذا ٠ لقد علمت من المشرف انهم سيتناولون طعام افطارهم كل فى غرفته الخاصة ٠
فتساءلت زاريا فى دهشة :

ـ جميعهم ؟
فابتسم تشاك قائلا :
ـ انك لا تعرفين شيئا عن حياة الاثرياء المترفين ٠
ـ ان مستر فيردون ليس ٠٠

وامسكت زاريا عن الاستطراد فيما كانت بسبيل قوله ٠ واستعادت أمام عينيها صورة الرجال الثلاثة حين وصولهم الليلة الماضية ٠ فقد لاح لها أن اثنين منهم ، على الاقل ، كانا ثملين ، أم لعل هذا كان من نسج خيالها نتيجة لما كانت تشعر به من خوف وارتباك ٠

وكان الليل قد تجاوز منتصفه بقليل حينما وصلوا الى اليخت ٠ وبعد أن غادروا السيارة الكبيرة التى أقلتهم الى الرصيف ، صعدوا المعبر فى سكون وصمت ، وكأنهم بعض الصبية الاشقياء العائدين فى وجل من كيفية استقبالهم فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ٠

وكان مستر فيردون يرتدى الملابس المتعارف عليها للمسافرين على ظهر السفن الخاصة وبعد أن صافح القبطان ، قدم اليه أصدقاءه :

ـ مستر ايدى مورجان ٠ مستر فيكتور جاكوبيتى ٠
وأخيرا ـ ولدهشة الجميع ، لانها كانت آخر من غادر السيارة :

ـ مس كيت هانوفر ٠

وكان تصيح فيهم :

ـ فيم العجلة ؟

واقبلت تسرع فى أعقابهم ، بفرائها الثمين ، وشعرها البلاتينى اللامع ، وأظافرها الطويلة الحمراء ، وقد تقدمتها رائحة عطرها النفاذة ٠

ووقفت زاريا تحملق فيها وقد استبدت بها الدهشة ٠ اذ أنها لم يسبق لها من قبل أن وقع نظرها على من تشبه مس هانوفر ، كما لم يدربخلدها ان مثل هذه الفتاة من الممكن أن تنضم عضوا فى رحلة أثرية ٠ وكان القبطان قد شرع فى تقديمها قائلا :

ـ مستر فيردون ، أقدم اليك مس براون ، ولديها ما تحدثك به عن ضيف آخر ، مستر تانير ٠

ومد مستر فيردون يده يصافحها مرددا :

ـ مستر تانير ؟

فانبرى الرجل المتوسط العمر ، القصير القامة ، الذى يدعى ايد ىمورجان متسائلا :

ـ ما هذا ؟ اننا لم نكن نتوقع أن يشاركنا أحد ٠

فقاطعه مستر فيردون بقوله :

ـ لحظة واحدة ، ايدى ٠ لعله من الافضل أن نسأل مس براون ايضاحا ٠

وبدأت زاريا تجيب وقد ارتج القول عليها ، وهى ترى القوم محدقين بها ، يتطلعون اليها :

ـ أرجو ٠٠ أرجو أن تغفر لى هذا ٠ ان الامر ٠٠ لا يعدو ٠٠ ان مستر تانير رأى ٠٠

فخف تشاك لنجدتها قائلا فى صوته العميق :

ـ أخشى أن يكون الحياء قد عقل لسان خطيبتى ،

وأرجو ، مستر فيردون أن يغفر لى اقحام نفسى عليكم . غير أننا لم نرد أن نتخلى عنكم فى آخر لحظة ، مدركين مدى اهتمامكم بأن تصحبكم سكرتيرة فى هذه الرحلة . وحقيقة الامر أننا عقدنا خطبتنا قبيل اليوم الذى حدد لسفر مس براون ولم نود أن نفترق سريعا . ولذلك قمنا باستعراض الموقف وانتهينا الى الرأى بأنه من الافضل أن ارافقها فى السفر . وسأكون خير عون لكم ، لاننى ملم باللغة العربية وأعرف القليل عن علم العاديات .

فقال مستر فيردون ، وهو يتطلع الى ايدى مورجان وكأنه يتلمس تأييده :

– حسنا ، انها المفاجأة وأيم الحق !

وبدا مستر مورجان تعقيبه قائلا :

– بكل تأكيد ، اذا ما كانت مس براون لا تريد ..

وقطع عليه القبطان تعقيبه وهو يتقدم موضحا :

– سيدى ، ثمة رسالة لك من المحامى . وقد كتب مستر باترسون لى ، يشكو مما وجده من صعوبات فى العثور على السكرتيرة التى تنطبق عليها شروطك . وأعتقد أن هذا هو السبب الذى حدا بمس براون وبخطيبها الى اتخاذ قرارهما لكى لا يخذلانك فى آخر لحظة .

فأسرع مستر فيردون يقول :

– أجل ، أجل ، بكل تأكيد ، اننى مدرك لكل شىء واننى لمقدر لكما جميل شعوركما . وليس من شك فى أنه من دواعى سرورنا أن يكون مستر .. تانير معنا .

وأردف مستر جاكوبيتى قائلا :

– وعلى حد قوله ، يمكن أن تستفيد من وجوده .

وكان جاكوبيتى شابا يبدو خالى البال ، وأن لخانته عيناه النفاذتان ، الحادة الذكاء . وقد شعرت زاريا من

نظراته اليها أنه يرى فيها فتاة أبعد ما تكون عن الجاذبية والانوثة ٠

وقال أيدى مورجان ، وكأنه المنوط به تقرير كل شيء .

ــ فليكن ! لقد فرغنا من هذا الامر ٠ــ والان ، الينا بالشراب ٠

فقال القبطان حسبت أنكم قد تكونون بحاجة الى شيء من الطعام ٠ ولقد أعد المشرف كل شيء فى قاعة الطعام ٠

وانبرت كيت هانوفر تقول بصوتها المرتفع النبرات :

ــ أظن اننا بحاجة الى كل شيء بعد هذه الرحلة المضنية ٠

وتبعها الرجال الثلاثة ، يتقدمهم القبطان الى قاعة الطعام ٠ وتخلف كل من زاريا وتشاك فوق ظهر اليخت يتطلع كل منهما الى الاخر فى دهشة ٠ وعقب تشاك فى صوت خافت :

ــ انهم قوم غريبو الاطوار

وأردفت زاريا قائلة :

ــ لم يخيل الى أن يكون مستر فيردون بهذه الصورة ٠

ــ وكيف كنت تتخيلينه ؟

ــ رجل له سمات الاساتذة الملتحين ٠ وليس بهذه الوسامة ٠ وجميع من التقيت بهم من علماء العاديات ، كانوا يبدون وكأنهم قضوا ليلهم فى فراشهم بما عليهم من ثياب ٠

ــ قد يكون صاحبنا استثناء من القاعدة ٠ وماذا عن السيدة ؟

وتطلعت اليه زاريا ، وهى لا تدرى ماذا كان يعنى من سؤاله :

– مس هانوفر ! ترى ماذا سيكون من أمرها بينما يقومون بحفرياتهم ؟

– ما أظنها تعنى بهذا فى كثير او قليل ٠ انها لن تبتعد كثيرا عن الشارع الرئيسى فى الجزائر ٠ اننى واثق من ذلك ٠

ولم يكن في وسع زاريا الا أن تضحك ٠ وكانت هذه هى المرة الاولى ، منذ أعوام ، التى أطلقت فيها ضحكة من أعماق قلبها ، وكان الفضل فى هذا لتشاك وروحه المرحة ٠ وأدركت لتوها مدى سرورها بوجوده الى جانبها مما من شأنه أن مواجهة هؤلاء الغرباء بمفردها وبادرها قائلا :

– هلم بنا ، نأوى الى الفراش ، انك بحاجة الى بعض الراحة ٠ ويمكنك أن تثقى بأنهم لن يكونوا بحاجة الينا الليلة ٠

وأطاعته صاغرة لانها كانت جد متعبة ٠ وكانت قد قضت الليلة السابقة مسهدة مؤرقة ٠ ولم تكن تتوقع أن تستسلم للنوم ، وان كانت قد استغرقت فى نوم عميق بمجرد أن لامست رأسها وسادتها ولم تستيقظ من نومها ، الا بعد سماعها لصوت محركات السفينة الهادر وهى تتأهب لمغادرة الميناء ٠ فأسرعت تنهض من فراشها لترتدى ثيابها ٠

وبعد أن خف تشاك الى جانبها فى هذا الصباح المبكر ، أدركت من تأملها اياه أنه هو الاخر قد قضى ليلة مريحة ٠ وانه قد هدأ بالا واسترخت أعصابه ، ولم يعد يتلفت حوله فى خشية من هؤلاء الاخوة غير الاشقاء الذين يريدون أن يحولوا بينه وبين السفر الى الجزائر وافترضت أن هذا التغيير الطارىء مرجعة اطمئنانه الى

اقلاع السفينة وشعوره بالامان ·

وكان قد تأنق فى ارتداء ثيابه ، وبدا غير ما كان عليه بالامس ، بحلته الـــزرقاء وحـــذائه الابيض · وبادرته بسؤالها :

ــ كيف حال السحج ؟ كيف أصبح ؟

ــ كيف ترينه أنت ؟

ــ اننى لا أكاد أن أتبين منه شيئا ·

ــ فعلا ، حتى لاكاد أن انسى أمره · وارجو الا تتحدثى عنه أمام أحد من هؤلاء القوم لانهم لن يأخذوا تعليلنا للاصابة قضية مسلمة · ولما كانوا من المدمنين على الشراب فقد يؤولون أسباب الحادث بأننى كنت مخمورا أثناء قيادتى للسيارة لانهم من مدمنى الخمر ·

ــ وعلى أساس تصدر حكمك هذا ؟

ــ اننى اردد ما يقال عنهم · فلقد علمت من المشرف بأنهم لم يأووا الى الفراش قبل الثانية صباحا ، وأنهم قد قضوا وقتهم فى احتساء الخمر ·

ــ يبدو لى أننا لن ننصرف الى العمل بالجدية التى كنت اتوقعها ، مادام الامر كذلك ·

ــ هيا بنا نتناول طعام الافطار ، ثم نجلس متأهبين فى المكتب لما عساه أن يطلب منا من عمل ·

وكان طعام الافطار شهيا على غرار طعام عشاء الليلة السابقة · ولم تزل زاريا عازفة عن التهاب ما يقدم اليها من ألوان مختلفة بشهية ، على الرغم من الحاح تشاك عليها بذلك ·

ــ اننى لا أستطيع أن اتناول من الطعام أكثر مما أتناوله ، لاننى لم أعتد هذا ·

ــ هذا ما لمسته فعلا · يلوح لى أنك كنت من هذا الفريق الاحمق من الفتيات اللاتى يلجأن الى اتباع نظام

خاص فى غذائهن لانقاص وزنهن ، ظنا منهن أن ذلك يضاعف من جاذبيتهن ، ثم ينتهى بهن الامر الى مثل حالتك هذه .

ـ انني لست على شاكلتهن .

قالت زاريا هذا ، غير مدركة لما شاب لهجتها من مرارة . وتأملها تشاك دون أن يعقب بشىء وكانت ترجو الا يحتفظ بعويناته هكذا وبصفة مستديمة . ان هذا منه ، يحول بينها وبين ادراك ما تتألق به عيناه مما ينم عما يجيش به صدره .

حقيقة ، ان العوينات السوداء من مميزات الامريكيين . فقد كان مستر فيردون يحتفظ بها الليلة الماضية حين وصوله ، كما كانت مس كيت هانوفر ، هى الاخرى ، تزهو بها وبضخامتها .

ودار بخلد زاريا أنها قد تبدو فى حال أحسن بمثل هذه العوينات على الاقل لستر تلك التجاعد أسفل عينيها .

وبعد أن فرغا من تناول طعام افطارهما ، نهضا الى غرفة المكتب . ولم يكن لديهما من عمل يؤديانه ، مما رأى تشاك أن يملأ فراغه بانتقاء بعض الكتب مما هو موجود منها بالغرفة وانبرى يقول وهو يلقى نظرة على عناوينها :

ـ ليس من شك فى أن من قام بشراء هذه الكتب لم يكن مدعيا العلم . انها تمثل آخر ما صدر من قصص ، ومن تاريخ حياة بعض الشخصيات الاجتماعية المعروفة ومن الكتب التى يؤثر اقتناءها البريطانيون ولا تخلو منها مكتباتهم .

وكانت زاريا على وشك أن تقول ، لقد كانت عمتى سيدة مجتمع ولكنها أمسكت عن الكلام . ثم انبرت

تقول :

ـ اعتقد ان هذه المجموعة من اختيار المالكة السابقة لليخت · لقد توفيت وتركت اليخت لمن يرثها ·

ـ ياله من تركة ! وانى لاتساءل كيف يبدو أو تبدو من سعد بهذا الميراث · ؟

وابتسمت زاريا فيما بينها وبين نفسها · وتساءلت عما عساه أن يقول اذا ما صارحته بالحقيقة · ثم بادرته بسؤالها :

ـ تشاك ! او حقا انك مفلس ؟ ماذا تراك فاعلا حينما تصل الى الجزائر ؟

ـ فى وسعى أن اتدبر أمرى بعد وصولى ·

ـ ولنفترض أن والدتك مريضة بحيث لن تستطيع أن تزودك بشىء من المال ؟

ـ حينئذ يكون من المتعين أن أبحث عن عمل · وبهذه المناسبة كنت اتساءل عما اذا كان مستر فيردون سيدفع لى اجرا كما يدفع لك ، أم تراه يفترض انك ستقاسميننى اجرك ؟

ـ لم يجل هذا فى خاطرى · ويمكن أن تشاركنى أجرى ·

فابتسم معقبا :

ـ اننى لم أكن جادا فيما تحدثت به · هل تعرفين انك جادة أكثر مما يجب · انك لا تضحكين من أعماق قلبك أسوة بسائر الفتيات ! ولم يحدث اننى رأيتك تضحكين منذ أن التقينا ـ اللهم الا من ابتسامة عابرة ، مرة أو مرتين ، وأرجح أنها كانت شبه مغتصبة ·

ـ ربما كان هذا منى لاننى انسيت كيـف يكون الابتسام ·

- هلا حدثيني بالسبب ؟
- اريد أن انسى أمره . ولعله من الخير لكلينا الا نبلغ هذا الحد من الثقة . لسنا سوى عابرى سبيل .
فوضع يده فوق يدها قائلا :
- لست من رأيك .
وفتح باب الغرفة لينفذ منه أيدى مورجان . وكان زرى الهيئة بثوبه الفضفاض الذى تبدو من أسفله أطراف سروال بيجامته . وبعينيه المنتفختين وذقنه غير الحليقة ، ووجهه البادى الاعياء . وكان يبدو أكبر سنا مما كان يبدو به الليلة السابقة . وبادرهما بقوله متجاهلا تشاك :
- ها قد وجدتك أخيرا ، مس براون اريد أن ابعث ببرقية فورا .
اعتقد أن باليخت جهاز ارسال لاسلكى .
فقالت زاريا وهى تحاول السيطرة على اعصابها :
أجل .. اعتقد ذلك .
- حسنا .. اليك نص البرقية .. مدام برتان ، ١٥ شارع كليمنصو ، ليون ١٣ . اللقاء فى تارا ليزا ظهر الغد . فلتأت بأحمد معك وأرى أن يقود سيارة أخرى . منتظر الرد . ايدى . هل قمت بتدوين ما أمليت ؟
- اجل ..
- فلتبعثى بها فورا . فمن المفروض أن تكون المرسل اليها قد وصلت الى ليون الان .
واستدار الرجل فى طريقه الى الباب . غير ان صوت تشاك استوقفه حينما انبرى يقول :
- سيدى هل ستذهب الى تارا ليزا ؟ كنت أحسب اننا فى طريقنا الى الجزائر ؟
وخيل الى تشاك ان مستر مورجان على وشك ان يقول له أن هذا ليس من شأنه ثم تغيرت تعابير وجهه فجأة

ليقول :
ـ اعتقد انه كان من المفروض أن أزيد الامر ايضاحا مس براون · لقد اتفقنا على أن نصطحب معنا اثنين من الضيوف فى تارا ليزا . احداهما هى مدام برتان . واعتقد انك سمعت باسمها انها حائكة الثياب الشهيرة ، التى يعرف عنها أنها من أحسن مصممى الازياء فى باريس وهى تعد العدة لافتتاح متجر لها فى الجزائر وهذا هو السبب فى مصاحبتها لنا · وأعتقد أنها ستحوذ اعجابك ·

وبهذه العبارة الاخيرة ، أنهى مستر مورجان ايضاحه ، وغادر الغرفة موصدا الباب من خلفه · فانبرت زاريا معقبة :

ـ معنى هذا أننا لن نتجه رأسا الى الجزائر · يؤسفنى هذا ، لاننى أدرك مدى لهفتك للوصول اليها ·

ـ أن يوما لن يغير من الوضع كثيرا ·

ـ سأتولى أمر هذه البرقية ·

وأسرعت زاريا الى ضابط اللاسلكى ·

وحينما عادت أدراجها ، ألقت تشاك يتأمل خريطة بين يديه ، ليتحقق من مدى المسافة بين مرسيليا وتاراليزا ·

وبادر تشاك زاريا بقوله :

ـ أعتقد أن اليخت يمكن أن يرسو فى هذا المكان الذى يبدو صغيرا ·

ـ من المفروض أن يكون القبطان قد وافق على ذلك ·

ـ أظن أنه مكان غريب غير مطروق ·

ـ أعتقد أنها ستكون رحلة شاقة حوال الاربع والعشرين ساعة من ليون ·

ـ أجل · ويالها من رحلة شاقة !

– أن فى لهجتك ما يثير فضولى ؟
فأجابها مبتسما :
– وماذا تبينت منها ؟
ولم يكن فى وسعها أن توضح ما كانت تشعر به ٠ لقد اختلجت نبرات صوته بما أشاع فى نفسها الشعور بالقلق ٠ فأجابته :
– لا شىء ٠
فقال تشاك لها مغيرا مجرى الحديث :
– ليس ثمة ما يدعو لوجودنا هنا ٠ هلم بنا الى ظهر اليخت حيث نستمتع بأشعة الشمس ٠ أنك بحاجة ماسة الى ذلك ٠ وبالمناسبة ، أرى أنك يجب ألا تنتعلى مثل هذا الحذاء ٠
– ليس ٠٠ ليس لدى غيره ٠
– سأتصل بالمشرف فى هذا الشأن ٠
وبعد خمس دقائق عاد يحمل حذاء من المطاط ، قائلا:
– مقاس اربعة ، هل يوافقك ؟
– تمام الموافقة ٠ ولكن ، أنى لك هذا ؟
– بناء على ما علمت به من المشرف ، كان يعمل باليخت صبى صغير ، ولم يطل عهد هذا الصبى بعمله ، اذ كان مصدر ضيق لهم ٠ ولما كان من دأب مالكة اليخت أن تزود البحارة بكل ما هم بحاجة اليه من ثياب ، فقد خلف الصبى من الثياب ما لم يستعمل بعد ٠ ولقد سألت المشرف أن يودع فى غرفتك سروالا وقميصا نصفيا ٠
– لاستعمالى ؟
– ولم لا ؟ أنها ثياب أكثر ملاءمة فى رحلة مثل هذه .
وتساءلت زاريا عما اذا كان تشاك قد ادرك أن المعطف ، والبلوزة ، والجونلة التى ترتديها هى كل ما أتته معها من ثياب ٠ وادركت مدى ما اخطأت به فى

حق نفسها من عدم ابتياعها بعض احتياجاتها فى مرسيليا . ولكنها كانت تخشى أن تفعل ما لم يشر عليها به أن تتجه من المحطة رأسا الى الفندق ، وأن تمكث به فى انتظار اتصال اليخت بها . وأخيرا قالت :

ــ سوف .. سوف أحاول ارتداءها .

وكان الحذاء مريحا فعلا .. كما كان القميص الصوفى الابيض ملائما ، يشيع الدفء فى جسدها أما السروال ، فكان هذا أول عهدها بارتدائه ، مما من شأنه أن كان سببا فى ارتباكها البادى .

لقد كانت من النحافة بحيث بدت أقرب الى صبى منها الى فتاة مكتملة النمو . وراحت تتأمل صورتها فى المرآة ، وقد تبينت منها أنها ستعود شخصا آخر الى تشاك الذى كان فى انتظارها بغرفته ، والذى استقبلها قائلا :

ــ هذا أحسن . والان ، هيا بنا الى الهواء الطلق . وأنك لواجدة فى أشعة الشمس وصفاء الجو ما سيعيد الى وجنتيك حمرتهما ، والى وجهك نضارته .

وبدأت تطمئن اليه ، وتجد راحة فيما يحدثها به . وتبعته صاغرة الى ظهر السفينة .

وكان البحر قد بدأ يستعيد لونه اللازوردى ، بعد أن ارتفع قرص الشمس فى السماء مبددا كثف الضباب . وتطلعا فيما وراءهما ليشاهدا جبال مرسيليا تبتعد عنهما ، ومن خلفها قمم الجبال الشاهقة التى يكسوها الجليد ، تناطح ببياضها الناصع زرقة السماء الصافية .

وشعرت زاريا بحرارة الشمس تلفح وجهها وبالرياح تنفذ الى خصلات شعرها ، ثم بالدمع تطفر الى عينيها . لقد كان كل ما يحيط بها رائع الجمال ! لقد تغيرت حياتها ولما يمض سوى ثمانى وأربعين ساعة . واستعادت ماكان

من أمرها وهى تضطجع مسهدة فى فراشها بالقطار من اسكتلندا الى لندن . لقد كانت فزعة ــ فزعة من كل شيء ، ومن كل الناس ، ومن نفسها . ولم تكن تدرى من أمر نفسها شيئا .

والان ، فان كل شيء يختلف . لقد تغيرت بها سبل الحياة ، وها هى مقبلة على حياة جديدة لا تعرف الوحدة اليها سبيلا . على الاقل ، فها هو تشاك ، الرجل الغريب ، الغامض يتخذ من نفسه صديقا لها .

وحاولت أن تبعد عن خاطرها التفكير فيما عساه أن يحدث اذا ما حل يوم الفراق بينهما وحاولت ألا تعترف ، ولو فيما بينها وبين نفسها ، بمدى سرورها باتجاههم الى تارالبيزا بدلا من الجزائر .

وسمعت تشاك يباغتها بقوله :

ــ أننى أحب البحر ! اننى لم أخبرك بأن من بعض ما زرته من أماكن كانت أيسلندا فى رحلة صيد للحيتان . لقد كانت هذه هذه الرحلة من أبرز أحداث حياتى اثارة .

ــ ان الرجال موفقون فى كثير من نواحى الحياة ، وهم أسعد حظا من النساء . فمهما يكن من أمر ما يصادفهم ، فان ثمة ما يصرفهم عما يضيقون به ذرعا ، الامر الذى لا يتأتى للنساء ، لانهم أكثر اقداما منهن .

ــ وفيم هذا الاحجام والتقاعس منكن ؟

ــ لان هذا من طبيعتهن .

وقد تهدج صوتها وهى تقول ذلك . فابتسم تشاك قائلا :

ــ اذا ما كنت تعنين بهذا نفسك ، فانك مخطئة فيما ذهبت اليه . اننى أعتقد انك لا ينقصك الاقدام والشجاعة . ولقد لمست منك هذا من موافقتك على ما سألتك اياه ، فكان أن أتيت بى الى هذا اليخت الامر الذى

لن أنساه لك الى الابد · وأرجو أن ياتى اليوم الذى استطيع فيه أن أسدد دينى من شكر ·

ولم تعقب بشىء ، وان كانت كلماته قد شاعت فى قلبها الدفء واستطرد تشاك قائلا :

ـ وبهذه المناسبة ، يجب علينا الا نتبادل مثل هذا الحديث ثانية · ان فى ذلك مخاطرة وبالذات فى مثل هذا اليخت · ان للجدران آذانا ، كما يقولون · ثم لا تنسى شيئا · يجب عليك أن تنهجى أسلوبا آخر فى معاملتك لى ، لاننى خطيبك !

فقالت زاريا فى امتثال :

ـ سأحاول ·

وتأبط ذراعها ، ثم راح يذرع ظهر السفينة جيئة وذهابا ، وهو يهمس قائلا :

ـ يجب أن نبدو وكأننا نتجاذب أطراف الحديث · ولنبدأ هذا بما يجول فى خاطرى من تساؤل عن طبيعة الحفريات التى سيقوم بها مستر فيردون اثر وصولنا الى الجزائر ·

ـ وهذا ما كان يدور بخلدى أيضا · ان آخر زيارة لى لتلك البلاد ذهبت فيها برفقة والدى الى تمجاد ـ وكان هذا منذ بضعة أعوام ، وما أظن أن هناك الكثير مما لم يكشف عنه ·

ـ معنى هذا ، انك كنت شى زيارة لهذه البلاد من قبل ؟

ـ أجل ، وان كان هذا منذ بضعة أعوام ، كما سبق أن قلت ·

وأدركت زاريا أن فى الاسترسال فى هذا الحديث مخاطرة · ثم سمعته يعقب بقوله :

ـ لابد وأنك كنت صغيرة السن ·

– أعتقد هذا · ولكن والدى ·· كان عضوا بالبعثة ·
– كان اسمه براون ، فيما اعتقد ؟
– أجل ، أجل ، بكل تأكيد ·

وخلت ما بين ذراعها وذراعه ، واتجهت الى الحاجز ، قائلة :

– ترى ما هى السرعة التى نسير بها ؟

مستهدفة بذلك تغيير مجرى الحديث ، الذى كانت تشفق من نتائجه · غير انها أدركت من ابتسامته التى داعبت شفتيه ، ومن خطواته المتئدة ، انه رأى فى مسلكها هذا محاولة عامدة لتجنب ما هو آت من أسئلة · وقبل أن تواجه شيئا من هذا القبيل ، ابصرت بمستر فيردون مقبلا فى حلته البحرية الانيقة · وكان يضع عويناته السوداء ، ثم أحتل مقعدا من مقاعد اليخت الممددة فى أشعة الشمس · ورأت زاريا أن تتقدم منه قائلة :

– سعدت صباحا ، مستر فيردون ! هل ثمة من عمل تعهد به الى ؟

وحدق النظر فيها مجيبا :

– سعدت صباحا ، مس ·· مس براون · كلا ، لا اريد منك شيئا · أجل ، بل أريد كأسا من الجين الممزوج بشراب قوى ! هل لك فى أن تسألى المشرف أن يأتى لى بكأس كبير ؟

– سمعا وطاعة ·

وذهبت تبحث عن المشرف لتنقل اليه الامر – وحينما عادت أدراجها ، كان مستر فيردون لا يزال حيث تركته · أما تشاك ، فكان قد اختفى · وقالت مخاطبة مستر فيردون :

– سيأتى الخادم فورا بالمشروب . كنت اريد أن أعرف ما اذا كان هنالك مذكرات تحب أن أقوم بكتابتها عنى

الالة الكاتبة ، وما اذا كان لديك أوامر ترغب فى تبصيرى بها حين وصولنا الى الجزائر ؟

ـ كلا ، كلا ، لا شيء على الاطلاق · ويحسن أن تتصلى بايدى فى هذا الشأن ·

ـ حسنا ، لقد فهمت أن يكون اتصالى بمستر مورجان فى مثل هذه الامور · ولكننى كنت أتساءل عن المكان الذى تعتزم القيام فيه بحفرياتك · لقد خيل الى انه قد يكون تيبازا · لقد سمعت بأن أعمال الحفر فى عام ١٩٤٩ قد كشفت عن الدرج الخارجى لاحد المعابد ـ غير انه يحتمل أن يكون رأيك قد استقر على مكان آخر ؟

ـ فلترجعى الى ايدى فى كل ما هو من هذا القبيل · بحق السموات ، أرجو أن تستفسرى من ايدى عن كل ما يعن لك من أسئلة ·

وكان فى لهجته رنة حنق ملحوظة · ولما أدركت أن وجودها قد يكون مصدر ضيق له ، آثرت أن تنسحب فى هدوء ـ انها لم تكن تبغى أكثر من أن تخلص فى عملها لقاء ما تتقاضاه من أجر وأن تجعل من نفسها السكرتيرة التى قيل بأنه لا غنى عنها فى هذه الرحلة .

واتجهت الى مقـــدم السفينة . ورأت ما يعيب اليخوت هو أنها لا يوجد بها مكان يصلح لانفراد المرء بنفسه · فها هو القبطان فوق الجسر ، وها هم البحارة يروحون ويغدون ، وها هى نوافذ القاعة الكبرى تطل على ظهر السفينة ·

ولم يكن أمامها سوى أن تجلس حيث هى ، أو أن تعود ادراجها لتواجه مستر فيردون بمسلكه المنفر · واختارت أقل الضررين ، واتخـــذت لهـــا مجلسا فوق لفافة من الحبال ، تتطلع الى البحر المتألق تحت أشعة الشمس المنعكس عليه ، وكان له بحركة أمواجه الدائبة وبزرقة

مياهه الاخاذة ، تأثير مغناطيسى عليها ، شعرت معه بالاسترخاء ، وبحرارة الشمس منفذ الى جسدها ·

وكانت بين النوم واليقظة حينما شعرت أخيراً بأن شخصا ما يقترب منها · وسمعت صوت تشاك يعلن :

ـ ان الغداء على وشك الاعداد ·

ـ اذن ـ فسأنهض لاغتسل · ورجوك ·

ـ نعم ؟

ـ أن تنتظرنى بالمكتب · اننى لا أريد أن اذهب الى قاعة الطعام بمفردى ·

ـ فليكن ، على الا يطول بى الانتظار ·

أعدك بذلك ·

وأسرعت الى غرفتها ، تصلح من زينتها على غرار ما فعله بها هنرى السابقى بفندقها فى لندن · وقد رضيت بعض الشىء ، عن صورتها فى المرآة ثم اتجهت الى غرفة المكتب قائلة فى مرح :

ـ اننى على أتم استعداد ·

وكان تشاك واقفا فى الناحية الاخرى من منضـدة الكتابة ممسكا بقصاصة ورق فى يده · فتطلع اليها قائلا :

ثمة ما أريد أن تلقى نظرة عليه · وقد تجدين فيه ما يسرك ·

وخطت زاريا تقترب منه ، وما أن أصبحت الى جانبه ، ولفرط دهشتها ، حتى وجدته يطوق منكبيها بذراعه · فأذهلتها المفاجأة وهى تتأمله فى شبه استنكار لمسلكه · ولكنها سمعته يقول لها فى صوت خفيض يتهدج عاطفة :

ـ اننى أحبك !

●●●●

الفصل الرابع

مضت لحظة خيل الى زاريا فيها أن تشاك قد تخلى عنه عقله . وبذراعه يطوق منكبيها وبوجهه قريبا من وجهها ، شعرت بأنها على شفا هاوية من الذعر ، فخلت ما بينها وبين ذراعه مبتعدة عنه ، وهى تكاد أن تطلق صرخة رعب مكتومة .

ثم أدركت انه كان ممسكا بقصاصة ورق يواجهها بها سائلا اياها ، دون أن ينطق بكلمة أن تقرأ ما هو مدون بها .

وخيل اليها ان الكلمات تتراقص امام عينيها . وبعد لحظة استطاعت أن تستعيد رباطة جأشها لتقرأ ما يلى :

« ان أحدا ينصت لكل كلمة تصدر عنا . فلنواصل التلاعب بالالفاظ » .

وتمتم تشاك قائلا وقد عاد يطوقها بذراعه :

– فى الواقع ، اننى غاضب منك .

ووفقت زاريا أخيرا أن تقول ، وقد بدا لها أن الكلمة تأبى الانطلاق من بين شفتيها :

– غاضب !

– أجل ، غضب لانك كنت بعيدة عنى طوال ساعات الصباح . ترى ماذا كان يدور بخلدك ، وأنت تتطلعين الى البحر تلك النظرة القلقة فى عينيك ؟ الست سعيدة ؟ زاريا ، استمعى الى ! اننا لن نقيم وزنا لاقاربى أو لاى

من يكون · أننا سنعقد زواجنا عاجلا ـ وفى أقرب فرصه

وحاولت زاريا أن تضفى على كلماتها ما يتسق وتوجيهات تشاك لها ، غير أنه قد بدا لها : ها قد انسيت كيف تتلاعب بالالفاظ · ووجدت أنها تقول أخيرا :

ـ لقد ·· لقد حانت ساعة الغداء ·

فأجابها ، وما زال فى صوته هذا العمق الذى يختلف عما ألفته منه :

ـ لقد أثرتينى ، ولكننى ، مع ذلك ، أحبك · ولن أنقطع عن ترديد هذا على سمعك ، يا حبيبتى الصغيرة ·

وتوقف عن الكلام وراح يتأملها · وخيل اليها أنه على وشك أن يقبلها · وبعد لحظة عابرة من الفزع المفاجىء ، رأته يضحك ويخلى ما بينها وبينه ، قائلا :

ـ فليكن ·· أعرف انك تتعجلين تناول غداءك · حسنا ، وأرجو أن أجد منك معاملة أرق بعد الغذاء · هيا بنا · ان بى رغبة فى تناول كأس من الشراب ، فماذا عنك ؟

وأخذ بيدها وكأنها طفل لا ارادة له · وبعد مغادرتهما الغرفة ، التفتت اليه متسائلة :

ـ ماذا ·· ماذا يعنى ·· ؟

ولكنه أومأ اليها بأن تكف عن الهمس · وفى صمت واصلا طريقهما الى قاعة الطعام ، حيث وجدا مستر فيردون يتصدر المائدة ، وفى يده كأس من الجين · وبادرهما متذمرا بسؤاله :

ـ ماذا دهاكم جميعا ؟

فأجاب تشاك :

ـ آسف ، سيدى ، لهذا التأخير · لقد شغلت بحديث مع مستر جاكوبيتى ، كان السبب فى تجاوزى الموعد

المحدد .

– وعم كان يتحدث فيكتور ؟

– عن الطائرات .

وخيل الى زاريا أن مستر فيردون قد سرى عنه . وسمعته يقول :

– آه ، ان فيكتور يتقن هذا الحديث .

وفتح الباب لتنفذ منه كيت ، ومن بعدها ايدى مورجان . وتبينت زاريا ، فى اعجاب أن كيت بارعة الحسن . وكانت سمرة بشرتها – التى لفحتها أشعة الشمس – تتعارض مع لون شعرها الاشقر الفضى . وكانت أهدابها الطويلة تستجف عينيها الزرقاوتين الجميلتين ، كما كان فمها صورة طبق الاصل من قوس كيوبيد . وكانت أنيقة الملبس ، لم يخف ثوبها اغراء ثنيات جسدها الفتان . وحول عنقها كانت تضع عقدا رباعيا من اللؤلؤ الثمين ، وحول معصمها مجموعة مختلفة من الاساور الذهبية . وتقدمت من مستر فيردون تطبع قبلة فوق جبينه ، قائلة :

– لعلك أحسن حالا ، يا عزيزى ؟

فأجابها مستر فيردون :

– لا زلت أعانى من هذا الصداع اللعين .

– قلت لك الا تحتسى هذا المزيج .

وتطلعت الى زاريا وتشاك عبر المائدة ، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة وضاءة ، وهى تلقى اليهما بتحية الصباح ثم استرعى انتباهها الاحرف المسطورة فوق بلوزة زاريا ، وراحت ترددها ، قائلة فى لهجة ساخرة :

– س . س . الساحرة . اذن فانت تؤمنين باعلان .

ولم تعقب زاريا بشىء . وشعرت بالحرج . غير ان تشاك سارع الى انقاذ الموقف قائلا :

- انها تسحرني دائما

فتساءلت كيت وهى تتخذ لها مقعدا الى يمين مستر فيردون وتربت بيدها على المقعد المجاور لها ، موجهة نظرة داعية الى ايدى مورجان :

- حسنا ، أو هذا كل ما يعنيك ؟

وكان مستر ايدى مورجان قد اغتسل واستبدل ثيابه غير أن زاريا قد رأت أنه يبدو أسوأ حالا مما كان يبدو به فى ثياب النوم ٠

وانبرى تشاك متسائلا ، وهو يمسك بذراع زاريا :

- ترى أين نتخذ لنا مجلسا ؟

فأجاب ايدى مورجان :

- أينما يحلو لكما :

- ثم أردف قائلا ، وكأنه قد أدرك فجأة أنه ليس المضيف :

- كورنى ، أم لعل لك وجهة نظر اخرى ؟

وكانت هذه هى المرة الاولى التى تسمع فيها زاريا أحدا ينادى مستر فيردون باسمه الاول ٠ ودار بخلدها أن رجلا من طراز ايدى مورجان وحده ، هو الذى لا يستبعد منه اختصار اسم كورنيليوس الجميل الى اسم كورنى الكريه ٠ وأجاب مستر فيردون ، وهو يرفع كأسه الى الساقى بما يوحى اليه بأن يعيد ملاه ٠

- الرأى لكم ٠

وصبت الخمر فى الكؤوس قبل قدوم فيكتور جاكوبيتى ، الذى اتخذ له مقعدا عن يسار مستر فيردون ٠ وكان هذا المقعد هو المقعد الوحيد الخالى ٠ ثم انبرى قائلا :

- كنت أقول للقبطان أن هذه السفينة تتحرك ببطء لا يطيب لى ٠ واذا ما كان علينا أن نصل الى تاراليزا قبل

ظهر الغد ، فمن المتعين أن نضاعف من سرعتها ·

فأردف تشاك قائلا :

ـ هون عليك ، ان أمامنا متسع من الوقت ·

وتعلقت جميع الانظار به ، وكأن ما صدر عنه من تعقيب كان مثيرا · وانبرى ايدى مورجان يستفسر منه ، فى لهجة غير ودية :

أنى لك هذه المعرفة ؟

فأجاب تشاك موضحا :

ـ من القاء نظرة على الخريطة ، ثم من تقديرى للزمن الذى تستغرقه السفينة على أساس سرعتها التى علمت بها من مهندس اليخت ·

فعقب ايدى مورجان بقوله :

ـ يا لفراهتك ؟ ترى ، ماذا تعرف أيضا ؟

ـ عن ماذا ، على وجه التحديد ؟

ـ عن اى شىء · اننى لم أعثر بعد على السبب الحقيقى لانضمامك الى هذه الرحلة ·

ـ أعتقد اننا قمنا بايضاح هذا الليلة الماضية · لقد سبق لمستر فيردون أن أبدى رغبته بجلاء فى ضرورة اختيار سكرتيرة يكون لها المام باللغة العربية وبعلم العاديات · وكانت مس براون هى الفتاة الوحيدة التى تنطبق عليها تلك الشروط · ولم يكن من اليسير الاهتداء الى من يتوافر فيه الالمام بالامرين معا ·· وحدثبعدعقد خطبتنا ، اننى أردت من خطيبتى التخلى عن هذا العمل ، ولكنها رات الا تفسخ تعاقدها فى آخر لحظة · علاوة على أنكم بعد وصولكم الى الجزائر ستجدون أنه من المتعذر الاستغناء عنها ، الامر الذى حدا بى الى الموافقة على مصاحبتى لها ارضاء لمستر فيردون !

وأردف فيكتور جاكوبيتى قائلا ، وفى صوته نبرة سخرية :

– جميل منك ان تفعل هذا !

وقال ايدى مورجان معقبا :

– هذا هو كل ما فى الامر ، اليس كذلك ؟

وابتسم تشاك قائلا :

– سادتى ، أرجو ألا يكون رأى أحدكم فى اننى دخيل اقحم نفسه على رحلتكم ·فلئن صح شىء من هذا القبيل ، فليس من شك فى أننا على أتم استعداد للانسحاب بمجرد وصولنا الى الجزائر ·

فأسرع ايدى مورجان بقوله :

– كلا ، أن هذا لن يكون من الصواب فى شىء · اننا بحاجة ماسة الى من له المام باللغة العربية اليس كذلك ، كورنى ؟

فأسرع مستر ديردون يوافق باقتضاب :

– بلى ·

وأخيرا ، انبرت كيت متسائلة فى استنكار :

– رباه ! أو علينا أن نسترسل فى مثل هذا الحديث ؟ انه لمن دواعى سرورنا ان يصحبنا مستر ترى ماهو اسمك ؟

– تانير – تشاك تانير ··

فاستطردت قائلة وهى تبتسم :

– أنه من دواعى سرورنا أن يصحبنا تشاك · واذا لم يكن لديك عمل يشغلك ، مس براون ، فأرجو أن تعيننى على افراغ حقائبى · اننى لا أضيق بشىء بقدر ضيقى بهذا العمل ·

فأجابتها زاريا :

– يسرنى أن أقوم بذلك ·

فقالت كيت :

ـ والان ، الى الشراب والمرح · الينا بتلك الشمبانيا التى قدمت لنا منها الليلة الماضية ·

فأجابها المشرف الذى كانت توجه اليه عبارتها الاخيرة :

ـ سمعا وطاعة ، سيدتى ·

وغادر الرجل قاعة الطعام · وانصرف الجالسون الى المائدة الى تناول بعض الاشهيات · وقال تشاك لزاريا فى لهجة حانية رقيقة ، أعادت الى ذهنها ما كان تشاك قد سألها اياه من ضرورة التظاهر بما من شأنه أن يلقى فى روع الجميع بأنهما خطيبان مدلهان غراما :

ـ يجب أن تحاولى تناول شيئا مما أمامك ·

ـ سأحاول ·

وأردف فيكتور جاكوبيتى قائلا :

ـ أنك لعلى حق · يجب أن تستحثها على الاكثار من تناول الطعام · فما من رجل يطيب له الزواج من فتاة متناهية النحافة ·

فضحكت كيت قائلة :

ـ اذن ، فهذا هو رأيك ؟ فلتسمع منى · لقد التقيت بالكثيرات من عامة الفتيات وكن محط أنظار الرجال اعجابا وافتتانا ·

ـ ربما كنت تدافعين بهذا عن نفسك بحسب ما سيكون ·

ـ شكرا لاطرائك ! لقد بدأت أضيق بآراك ·

ثم اتكأت بمرفقيها على المائدة ، متجهة بناظريها الى تشاك قائلة :

ـ أننا لم نسمع بعد رأيك ·

وكانت نبرات صوتها رقيقة تفيض اغراء · فأجابها

بقوله :

– أنني من حزب البدينات المرحات ٠

قعبت كيت بقولها وهى ترنو اليه بعينيها :

– ان النساء لا يسعدهن شيء بقدر شعورهن بأنهن محط أنظار الرجال وموضع اهتمامهم ٠

– اذن ، فان زاريا ستكون أسعد فتاة .

فانبرت كيت قائلة :

– زاريا ! ياله من اسم غير مألوف ٠

فأسرعت زاريا موضحة ، وقد رات أنها يجب ان تشترك فى الحديث :

– أنه اسم عربى ٠

فقال كيت :

– حينما نصل الى الجزائر ، قد أوثر ارتداء الزى الوطنى ٠ ماذا ترون ، ياصحاب فى كيت وهى ترتدى اليشمك وتؤدى رقصات شرقية ؟

فأجاب فيكتور جاكوبيتى :

– من شأن هذا أن يجمع الناس من حولك ، مالم يجمعهم شيء آخر وأردف قوله هذا بحركة من شفتيه وكأنه يعنى بكلماته خلاف ما يفهم منها ٠ ولاح لزاريا أن أيدى قد رمقه بنظرة محذرة ، قبل أن يعقب قائلا :

– حينما نصل الى الجزائر ، لن يكون ثمة متسع لشيء سوى العمل ٠

فقالت كيت :

– عن تشاك وعنى ، فلن يكون ثمة ما يشغلنا ٠ هل لك فى أن تصطحبنى لمشاهدة الرقص الشرقى ؟

– عن طيب خاطر ٠ وستجدين منه أكثر استعراض مخصص للسياح ٠

– كلا ، أننى لا أريد زيارة هذه الملاهى المخصصة

للسياح . أننى أريد أن أشاهد هذا الرقص فى موطنه ، مجردا عن كل تنميق . لقد علمت بأن بعض هذه النساء بالغات الحسن ، تنفقن كل ما تربحن فى اقتناء القلادات الذهبية والاساور البراقة حتى لتنوء بحملهن .

فأردف فيكتور يقول بخشونة :

ـ وستشعرين بأنك فى وطنك ، أليس كذلك ؟

فحدجته بنظرة حادة وهى تقول :

ـ أننى لا أسألك أن تصطحبنى الى هذه الاماكن . كما أننى لاأسأل ايدى ، أو كورنى . أننى لم أسأل سوى تشاك ، الذى أشعر بأنه خبير بمثل هذه الاماكن .. أليس كذلك تشاك ؟

فأجابها تشاك :

ـ حينما حدث فى الجزائر لاخر مرة ، لم يكن من الصواب أن تؤم امرأة بيضاء مثل هذه الاماكن .

فصاحت كيت قائلة :

ـ هذا ما دأب الناس على قوله . أننى سأكون فى أمان معك .

ولم يكن ثمة شك فى أنها تعمد الى مغازلة تشاك . وشعرت زاريا فجأة بأنها لا تستطيع أن تأكل شيئا . غير أنه بدا لها أن أحدا من الرجال الجالسين الى المائدة لم يسترع انتباهه مسلك كيت . وأنهم كانوا يواصلون التهام طعامهم وافراغ ما فى كؤوسهم من شراب .

وتبينت زاريا أن الساقى قد ملا كأسها بالشمبانيا . ورفعت الكأس ترتشف منه ، ليعيد هذا الى ذاكرتها آخر مرة تذوقت فيها الشمبانيا . وكان ذلك فى حفل مقام بمنزلهم وقد راح والدها يملا كؤوس المدعوين ، فقالت له أمها :

ـ هلا زودت الصبية بالقليل لتشاركنا الانخاب ٠٠

وكانوا يشربون نخب كتاب والدها الجديد ٠ ثم شربوا نخب الجميع أستجابة لدعوة والدتها ٠

وجلست تستعيد ماضي حياتها ، بكل ما عانته من آلام نفسية وبدنية وما كان من يأس الاطباء المعالجين واضطرارهم أخيرا الى تسكين آلامها بالمورفين ٠

وشعرت زاريا بعبراتها تكاد أن تطفو من مآقيها ، واسرعت تعيد الكأس فوق المائدة ٠ أنها لم تكن تريد أن تستبد بها هذه المشاعر التى أضنت حياتها ، فحسبها منها ما كان وما تجرعته من كؤوس الالم والشقاء ٠

ـ هيا ، أفرغى كأسك !

وكان تشاك يبتسم فى وجهها ، فشعرت بموجة مفاجئة من الاقرار بالفضل له ٠ كما شعرت برغبة جامحة فى أن تبدى له أمتنانها لمجرد اهتمامه بأمرها وبتوجيه الحديث اليها بدلا من أن يتجه به الى هذه الفتاة الفاتنة التى ترمقه بنظراتها على المائدة :

ـ واضطجعت كيت فى مقعدها متسائلة :

ـ ماذا أنتم فاعلون بعد ظهر اليوم ، أيها الفرسان ؟

فكان ايدى مورجان أول من أسرع يجيب :

ـ أما أنا فاننى أعتزم أن أغفو قليلا ٠ اذ أريد أن استــرد بعض نشاطى ٠ وأنت كورنى ، ماذا تعتزم ؟

فانبرى تشاك قائلا :

ـ ربما كان مستر فيردون يؤثر قضاء هذا الوقت فى العمل ٠

ـ العمل ! ماذا لدينا منه الان ؟

وكان ترديد مستر فيردون لكلمة « العمل » كمن يردد لفظا غير مألوف لديه ٠

ولم يعقب أحد من الحاضرين على تساؤله هذا . ونهض مستر فيردون عن مقعده وكأسه في يده ، قائلا :

– سأقضى هذه الساعات جالسا فوق ظهر اليخت ، منتهزا هذه الفرصة للاستمتاع بأشعة الشمس الدافئة .

وغادر القاعة ــ بقامته المديدة ، ومنكبيه العريضين ، متثاقل الخطى ، الامر الذى يدل على أنه أفرط فى تعاطى الخمر ، مع أن النهار لم يكن قد انتصف بعد .

ونهضت كيت ، جاهدة أن تبدى من مفاتن جسدها كل ما استطاعت اليه سبيلا ، وأن لم يخف هذا على أحد .. ثم قالت :

– يالكم من مجموعة مملة . هيا بنا ، مس براون ، بفزع مما اتفقنا عليه بشأن الحقائب . ثم اعتقد اننى سأغفو قليلا بدورى .

ونهضت زاريا هى الاخرى ، ثم أسرعت تلتفت ناحية تشاك . فقال لها ، وكأنه أدرك ما تحاول أن تسأله اياه دون أن تتحدث به اليه صراحة :

– سأكون جالسا بمؤخر السفينة ، اذا ما اراد احد أن يتصل بى . الى اللقاء مؤقتا .

ومد يده يضغط أصابع زاريا فى رقة بادية . وحاولت جاهدة أن تبتسم ، ثم تبعت كيت مغادرة قاعة الطعام الى غرفتها فى الناحية الاخرى عبر الدهليز . وسمعت كيت تقول :

– أن خطيبك لرائع . اين عثرت به ؟

– فى . فى لندن .

وتبادر الى ذهن زاريا أنه يجب عليها أن تبصر تشاك بكل ما يصدر عنها من قول ، خشية أن ينكشف أمرهما .

– أن به شيئا يستلفت نظرى . وفى الواقع انه يذكرنى

برجل ما وان كنت لا أستطيع ان أدرك من عساه أن يكون .

كيف التقيت به ؟

ــ لقد .. لقد تعارفنا فى مناسبة ما .

ــ أشهد لك بالبراعة اذ وفقت فى اجتذابه اليك .

وكانت تصعد نظراتها فى زاريا بينما كانت تتحدث اليها ، الامر الذى أدركت منه الفتاة الانجليزية التعسة ما يجول فى خاطر من تقف أمامها ــ ولم تستطع العينان الزرقاوان أن تخفيا ما تومضان به من ازدراء . وسمعت كيت تقول :

ــ ماذا عن افراغ حقائبى ؟ لعلك ترين ما يعم الغرفة من فوضى .

وكان ما قالته حقا . اذ كنت ترى الحقائب وقد ألقى بها فوق أرضية الغرفة ــ البعض منها مفتوح ، والبعض الاخر لم يفتح بعد ، وقد تناثرت بعض محتويات المفتوح منها فوق المقاعد وفوق الحقائب الاخرى ، مما يدل على اهمال وعدم مبالاتها بشىء .

ولحسن الحظ ، كانت الغرفة متسعة تزخر بأكثر من صوان معد فى جدرانها بكل ما يتبعه من أدراج وأرفف ومشاجب .

وبدأت زاريا تضع كل شىء حيث يجب أن يكون ، وهى تحاول ألا تحدث النظر فى كل ما تلتقطه من ملابس داخلية أو ثياب من كل لون وطراز ، وقد فاح منها جميعا ذاك العطر الذى سبقت رائحته النفاذة كيت بمجرد صعودها الى ظهر اليخت .

وسمعت كيت تبادرها بسؤالها وهى تغلق احدى الحقائب التى تم استخراج الحاجيات منها :

ــ هل تعتقدين أنهم يمكن أن يوفق فى أمانتهم ؟

- هذا ما أعتقده ·

- لقد حملت معى جميع مجوهراتى · واعتقد أنه كان أولى بى أن أودعها البنك · غير أننا قد لا نسرع بالعودة الى نيويورك أن ايدى لا يعرف له قرار ·

فتطلعت زاريا اليها فى فضول ، متسائلة :

- هل أنت ضيفة لمستر مورجان ؟

- بكل تأكيد ·· اننى فتـــاة مستر مورجـــان طوال

- وماهو عمله «

عامين ·

- وماهو عمله ؟

فاعتدلت كيت جالسة فى حركة مباغتة ، مما القى فى روع زاريا أنهاتنكبت طريق الصواب فى بعض مابدر منها · ثم سمعت كيت تقول لها :

- لقد أحسنت صنعا باسراعك بتفريغ هــذه الحقائب · فاذا ما كنت قد فرغت من ذلك كلية ، فأرى أن أنتهز هذه الفرصة لاغفو قليلا ، لاننى بحاجة الى شىء من الراحة ·

- أجل · بكل تأكيد · لم يبق سوى حقيبة واحدة ، يمكن أن أدعها الان لاعود اليها فيما بعد اذا رأيت ذلك ·

- فكرة صائبة · وشكرا جزيلا لما قمت به من أجلى ·

- فليكن ·

ويسرها أن تتاح لها هذه الفرصة بمغادرة الغرفة . وأسرعت فى طريقها الى ظهر السفينة لتلتقى بتشاك ·

وكانت تريد أن تميط اللثام عن كل شىء - وبالذات ما كان من أمر تلك الرسالة المدونة التى أطلعها عليها تحذيرا لها ·

ووجدت مستر فيردون مسترخيا فوق مقعده الوثير تحت المظلة ، والى جانبه ايدى مورجان يتحدثان مليا ·

وبالقرب منهما ، كان يجلس فيكتور جاكوبيتى ، وكأنه يغط فى نوم عميق .

ومرقت زاريا وهى ترجو ألا تستلفت اليها الانظار ، الى حيث وجدت تشاك جالسا فى مكان منعزل لا يمكن أن يسترق السمع فيه أحد . وبادرته قائلة وهى تلتقط انفاسها

ـ خبرنى بكل شىء .

ـ مدى الى يدك أولا ، وتظاهرى بأنك سعيدة بالاهتداء الى مكانى . فقد يكون ثمة من يقوم بتتبع خطواتنا .

وقامت بما سألها اياه ، وأطبق بيديه على أناملها الرقيقة .

ـ وكأننى أمسك بحائر أسير . اننى اشعر بأناملك وكأنها ترفرف بين يدى . لا تخشى شيئا

ـ فى الحق ، اننى فى خشية من كل شىء . اننى لا أدرك حقيقة ما يجرى من حولنا .

ـ و لاأنا . وأن كنت واثقا من أنهم فى شك فى أمرنا .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ لقد عثرت بميكروفون مثبت بالمكتب . وقد تراءى لى أن جاكوبيتى قد أطال من حديثه معى فى غرفتى لسبب ما . بل وكان هو الذى عمد الى خلق موضوع يبادلنى حوله الحديث . ولابد وأن مورجان كان فى غرفة المكتب يقوم بتثبيت الميكروفون .

ـ ولكن ، فيم كل هذا العناء ؟

ـ ليتبينوا حقيقة أمرنا .

ـ وما هى أهمية ذلك ؟

وتردد لحظة ، وكأنه كان بسبيل أن يقول شيئا ، ثم انبرى قائلا ، فى غير مبالاة :

ـ ربما كان يخيل الى فيردون أنه فى طريقه الى كشف خطير ـ وأنك لتعرفين ما بين هؤلاء الاتريين من منافسة شديدة . وهم لا يريدون أن يتسرب شيء عن عملهم قبل الاوان • وقد أكون عميلا لبعثة منافسة •

ـ أجل ، فهمت •

غير أن زاريا شعرت بخيبة أمل • ان ما سمعته منه لم يكن طبق ما كانت تتوقع سماعه منه • لقد كانت تظن أن ثمة سرا سيشف لها عن كنهه • أم لعل ظنونها ذهبت بها بعيدا •

ورأت أن تقول أخيرا •

ـ انهم قوم غريبو الاطوار

ـ ماهو رأيك فى فيردون ؟

ـ لست •• لست أدرى • أنه لا يشبه أحدا ممن سبق أن التقيت بهم ممن الاثريين ـ وان كانوا من المتقدمين فى السن •

ـ وهل كنت تتوقعين أن تجدينه كذلك ؟

ـ كلا ، لاننى كنت قد علمت بأنه فى مقتبل العمر ، وان كنت قد رسمت له فى ذهنى صورة مخالفة غير أننى أرى فى اهتمامه بالعاديات أمرا جانبيا •

ـ وهل علمت بهذا ممن زودك بتلك المعلومات عنه ؟

ـ لقد قال لى المحامى أنه قد ورث مبلغا طائلا من المال ، وانه أستطاع أن يضاعف هذا المبلغ ثم اتجه الى الحفريات بعد أن أعتراه الملل من المضاربة فى الاسواق ومن المفروض أن تبدأ العمل أثر وصولنا الى هناك •

وانبرى تشاك يسألها :

ـ هل قمت بمعاونة الشقراء الفاتنة فيما سألتك اياه ؟

ـ أجل ، لماذا تدعوها كذلك ؟

ـ ألا ينطبق الوصف عليها ؟

ـ هذا صحيح • انها فاتنة الجمال •

فابتسم تشاك ، ولم يعقب بشيء ، وحركت زاريـا اصابعها التى مازالت بين يديه قائلة :

ـ هل يمكن أن أسترد يدى الان ؟

ـ وهل هذا ما تريدينه حقا ؟

وراح يتطلع اليها • فأسدلت أهدابها وهى تقول :

ـ كنت •• كنت أخشى أن تغدو مصدر ضيق لك •

ـ وربما لك • فليكن ! ولنسترخى قليلا • غير أننا يجب أن نلتزم جانب الحذر فى كل ما يصدر عنا •

ـ ترى ماذا هم فاعلون اذا ما اكتشفوا أمرنا ؟

ـ أعتقد أنهم سيتركوننى فى تارالبزا •

فقالت زاريا ، وفى صوتها نبرة فزع :

ـ هذا ما لا يجب أن يحدث •

وكانت تدرك ماسيكون من أمرها اذا ماحدث شيء من هذا القبيل ، ومدى ما ستشعر به من فراغ مخيف • ولكن ، فيم كل هذا العناء ؟ فما عليها الا أن تكشف عن حقيقة وضعها كمالكة لهذا اليخت ، فتقلب الامور رأسا على عقب • ولكن هل سيكون فى وسعها أن تفعل هذا ؟ أن مجرد هذا الخاطر يثير أعصابها رهبة !

لقد كان لوجود تشاك الى جانبها أثر بعيد المدى • ثم تبادر الى ذهنها أن تشاك لا يقل غموضا وغرابة أطوار عن سائر المشتركين فى هذه الرحلة • أنها لا تعرف عنه أكثر من أنه عابر سبيل لجأ اليها طامعا فى معونتها • وعلاوة على ذلك ، فان له صديقا على صلة برودیس براون الحقيقية وبادرها تشاك بسؤاله :

ـ ترى فيم تفكرين ؟

ـ فيك •

ـ أمازلت فى خشية منى ؟

– أخشاك !

– ألم يكن هذا هو شعورك لاول وهلة ؟ لست الومك . أن اقتحامى فى غرفتك كان سلوكا غير طبيعى بكل تأكيد . غير انه لم يكن فى وسعى سوى أن أفعل ذلك . ولن انسى لك صنيعك وسأحاول أن أعوضك عن مسالكك الحميدة .

– ولكنك قد قمت بذلك فعلا . لقد كنت استعرض فى ذهنى مدى ارتياحى لوجودك الى جانبى أن هؤلاء القوم يخيفوننى !

– ولماذا ؟

– لست ادرى . وقد يكون هذا منى مجرد غباء . ولكن اليك رجل مثل أيدى مورجان وآخر مثل جاكوبيتى . أنهما ليسا من هذا الطراز من الرجال الذى يتوقع الانسان أن يجتمع به فى يخت مثل هذا وفى صحبة رجل من طراز مستر فيردون .

– أجل ، وأنهما فى نظرى اشبه ما يكونا بأشرار الشاشة . ولكن ، لا عليك منهما . أن ما يعنينا فى هذه المرحلة أن نتحلى بالهدوء وأن نصدع بما نؤمن به . وهذا ما تتقاضين اجرك من أجله

ولكنها كانت تشعر بأنه يهون الامر عليها . ولانها كانت فريسة لما يستبد بها من خوف ، فقد كانت على اتم استعداد لتتعلق بأذيال الامل . فقالت معقبة :

– قد ينفصل عنا كل من مستر مورجان ومس هانوفر بعد وصولنا الى الجزائر .

– هذا ما اتساءل عنه ؟

وكان يقول هذا وهو يولى وجهه شطر البحر ، واستطاعت زاريا من حيث تجلس أن تمعن النظر فى وجهه الجانبى . ورأت فيه ملامح الصرامة وقوة

العزيمة · وشعرت بأن مثل هذا الرجل من شأنه أن يمضى قدما ليبلغ ما يريد ، متخطيا كل العقبات ·

ثم استعادت فجأة صورة كيت وهى تتكىء بمرفقيها فوق المائدة ترنو اليه بعينيها الجميلتين من تحت أهدابها الطويلة · وفى صوت مرتفع قالت له :

ـ كيت هى فتاة أيدى مورجان ·

ـ أنى لك هذه المعلومات ؟

ـ هى من أنبأتنى بذلك · وقالت لى أن علاقتهما ترجع الى عامين سابقين ·

ـ يالها من فترة طويلة !

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟

ـ أن كيت هانوفر فتاة قلب لا تحب الاستقرار ـ اليوم هنا وغدا هناك · لا بد وأن ايدى مورجان يساوى أكثر مما حسبت ·

ـ أننى عاجزة عن ادراك السر فى ارتياح مستر فيردون لمثل هؤلاء القوم ·

ـ ترى ، هل كل من التقيت بهم من الاثريين رجال محترمون ؟

ولاحت أمام عينيها صورة والدها ، واشاحت عنه بوجهها ·

ـ هذا ما أعتقده ·

وكانت تشعر بأن مخاوفها وحيرتها قد بدأت تخفت نتيجة لهدوء تشاك وتقبله لكل شىء فى بساطة ويسر · وباغتها بقوله :

ـ استمعى الى · ينبغى لك أن تنالى قسطا من الراحة ·

هل اذهب لاتى لك بمقعد مريح ، أم لعلك تؤثرين أن تأوى الى فراشك كالاخرين ؟

ـ كلا · ليس بى حاجة الى شىء من هذا القبيل ·

ـ هذا ما بخيل اليك · انك بحاجة ماسة الى ما عرضته عليك · الا ترين أننى أحاول العناية بأمرك ؟

فأجابت ، وقد تبادر الى ذهنها أن هذا جزء من التمثيلية التى يجب ان يتقنا اداءها :

ـ بلى ، بكل تأكيد · أذن ، فلتأت الى بمقعد مريح هنا ·

ونهض ليعود بعد قليل بمقعد ووسادة وحرام ، قائلا :

ـ ستشعرين ببرودة الطقس وأن خيل اليك العكس · ان فتاة فى رقتك يجب أن تحرص على أن تتدثر بالفراء الفاخر وتحيط نفسها بزجاجات الماء الساخن ·

وضحكت لقوله وجلست فى مقعدها تمد قدميها ، ورأته يغطى ساقيها بالحرام · وسمعته يستطرد قائلا :

ـ حينما نصل الى الجزائر ستجدين أنك أصبحت فى بدانة الزوجات العرب ·

وكان تشاك ، فيما بدا لها يحاول أن يسرى عنها ويدخل السرور الى قلبها · ولكنها كانت تدرك قدر نفسها كفتاة ابعد ما تكون عما يجتذب الرجال اليها · وكانت تشعر بالبون الشاسع بينها وبين فتاة مثـل كيت · وسمعته يقول لها :

ـ لقد عدت الى وجومك ثانية ـ فلتقلعى عما تفكرين فيه · أن مثل هذه الخواطر لن تجديك نفعا ·

وتطلعت اليه فى دهشة · أتراه قد قرأ أفكارها ؟

ـ كنت أفكر فى كيت ·

ـ وتقارنين بينك وبينها ، اليس كذلك ؟

ـ بلى ، هذا ما كان فعلا ·

ـ متمنية لو كنت مثلها ؟

فأومأت زاريا برأسها موافقة · فاستطرد قائلا :

– هذا هو رأيكن . لا تقتنعن بما قسم لكن . أن كيت هى قصة التطور والارتقاء .

ثم توقف عن مواصلة الحديث قليلا ، وراح يتأمل زاريا ثم ولفرط دهشتها خلع عويناته وومضت عيناه رقة وحنانا ، وهو يستطرد قائلا :

– أنك أشبه بطير صغير لا ريش له قد سقط من عشه وحينما التقيت بك تبادر الى ذهنى أنك فى متاهة وذهول . هذا ما شعرت به لاول وهلة . فتاة تعرضت لسوء المعاملة وغير القليل من عنت الحياة .

وكانت تلمس من تعابير وجهه ما يعتمل فى صدره من انسانية صارخة ومشاعر رقيقة فياضة ثم سرح بطرفه قائلا :

– يخيل الى أحيانا أننى خبير بالتقاط التائهين الشاردين . فقد كان هناك صبى صغير عثرت به فى روما . وجدته أمام باب بيتى ذات ليلة . وكان لم يتجاوز الثانية من عمر . أنه فى الثامنة الان ، ويقيم فى رعاية مربية عهدت بل اليها .

– وهل تبنيته ؟

– شىء من هذا القبيل .

– وهل لك قبل بذلك ؟

ورانت عليهما لحظة صمت ، قبل أن تسمعه قائلا :

– لقد كان لدى بعض المال كنت أستثمره حينذاك . وكان هذا المبلغ يدر على ايرادا اسبوعيا لا بأس بأس به . ومهما يكن من أمر فان رعاية صبى فى ايطاليا لا تتطلب مالا كثيرا .

– آه لقد وعيت !

وعلى الرغم مما كان يساورها من شك فى الكثير من

امره ، الا أنها شعرت بأنه يصدقها القول · وعاد ثانية ليقول لها وكأنه قد أدرك ما يجول فى خاطرها :

ـ لعلك تتساءلين عن السبب فيما عرفت عنى من أننى لا أمتلك أجرة السفر الى الجزائر بينما أقوم بالانفاق على هذا الصبى · اليس هذا مايدور بخلدك ؟

ـ أننى لم أوجه اليك سوء الا ما ·

ـ ولكن خواطرك أشبه ما تكون بقطعة فضية من النقود فى قاع كوب من الماء فلتصارحينى القول أن الفضول يستبد بك لتعرفى كل شىء عنى ·

ـ هذا هو الحق ·

ـ حينما نصل الى الجزائر ، سأرضى فضولك · غير أننى ، فى الوقت الحاضر ، أرجوك أن تثقى بى ، وأن تصدقى ما أحدثك به ، لان فى هذا كل الخير لنا · كما أننى أطالبك بأن تفعلى ما أسألك اياه ، وأعدك بأننى لن أقوم بما من شأنه أن يكون مصدر أذى لك · فهل تثقين بى ؟

ـ أجل ، أجل ، كل الثقة ·

وتساءلت زاريا فيما بينها وبين نفسها عن السبب فيما أسرعت به من جواب · ربما كان هذا منها تحت تأثير هاتين العينين اللتين تتفرسان فى عينيها وتنفذان الى اعماقها · وعلى أية حال · فقد كانت قريرة العين بوجوده الى جانبها وباعتمادها عليه ·

ولم تكن زاريا قد سمعت صوتا يدعوها الى ذلك ، وان كانت ، مدفوعة بحاستها السادسة قد التفتت الى الوراء ، ليقع نظرها على ايدى مورجان واقفا على بعد بضعة أقدام منهما ·

وما أن تبين انها رأته ، حتى اقترب منهما قائلا :

– يبـدو أن الطـائرين العاشـقين كانا يسـتمتعان بخلوتهما ·

وحينما شرع تشاك فى النهوض عن مقعده ، وضع يده فوق كتفه قائلا :

– كلا ، فمستر فيردون ينعم براحته . ولقد قلت له لاتحدث الى مس براون ·

فانبرت زاريا تستفسر منه :

– هل بعث مستر فيردون فى طلبى ؟

« – كلا ، فمستر فيردون بنعم براحته · ولقد قلت له اننى قادم للحديث معك ·

– عن ماذا ؟

وكانت زاريا تدرك أن ايدى مورجان لم يسع اليها دون سبب ، ووقع نظرها على ورقة مطبوعة بين أصابعه من تلك الاوراق التى يستعملها عامل اللاسلكى لتـدوين البرقيات · وسرعان ما رأته يضع الورقة فى جيبه وهو يقول :

– أن الامر لا يعدو أننى ، ومستر فيردون ، قد تبادلنا الرأى ورأينا أنه من الانصاف بالنسبة لوضعكما ان يعفيك مستر فيردون من العمل معه ، بمجرد وصولنا الى الجزائر ·



الفصل الخامس

وتساءلت زاريا قائلة :

ـ ولكن ، لماذا ؟ لقد علمت من مستر باترسون أن مستر فيردون شديد الحرص على ان يصطحب معه سكرتيره ٠

فأجاب ايدى مورجان :

ـ أجل ، أعرف هذا ٠ غير أن الظروف قد تغيرت بعض الشيء ٠ وفي الواقع أن مدام برتان سوف تصطحب معها من يصلح لهذا العمل ٠

وكانت أصابعه تعبث بالورقة التى اودعها جيبه ٠ فقالت :

ـ لقد ٠٠٠ لقد فهمت ٠

واستطرد ايدى مورجان قائلا :

ـ وكما قلت ، أن مستر فيردون رجل منصف ٠ وهو يريد أن يعوضك عما ارتآه ٠ ولذلك فانه سيقوم باتخاذ اللازم لعودتك مع زميلك الى مارسيليا عن طريق جزر الباليرى ٠ وسوف تستمتعان بهذه الرحلة ٠ وسيقوم بدفع جميع النفقات ٠ علاوة على مرتب شهر ٠

وانبرى تشاك يقول ، قبل أن يتسنى لزاريا التعقيب :

ـ يالها من سفينة بطيئة الى الصين !

فقال ايدى مورجان فى حدة متسائلا :

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟ اننا نبذل أقصى مافى وسعنا من أجل مس براون ، اليس كذلك ؟

فأجابه تشاك :

ـ بلى ، بكل تأكيد · ولكننى كنت أفضل لها أن تغادر السفينة باكر ، حينما نصل الى تاراليزا

ـ والان ، فلتستمع الى ، يا رجل ! اننا لم ندعك للانضمام الى هذه الرحلة · وليس هذا من شأنك · أن مستر فيردون يقرر مايراه خيرا لمس براون · وانى لواثق من أنها تقدر له صنيعة وستقبل شاكرة ما يعرضه عليها ·

وأسرعت زاريا تقول وهى فى وجل مما لمسته فى لهجة ايدى مورجان وفى نظرات تشاك :

ـ أجل ، بكل تأكيد · أننى لمقدرة لمستر فيردون كل ما عرضته على ، وبالذات أعادتى الى لندن ·

ـ اذن ، فقد اتفقنا ·

ثم أستدار ايدى مورجان الى تشاك قائلا :

ـ ولسنا نريد منك خلا آخر : هل وعيت ؟

فقال تشاك وهو يبتسم ابتسامة ملتوية :

ـ بكل تأكيد ·

فأردف ايدى مورجان قائلا فى حدة :

ـ ولا تغفلن هذا ·

وعاد الرجل أدراجه وخيم السكون ولما تزل فى المكان اصداء صوته الكريه وتهديده السافر · وهمست زاريا ·

ـ لست أفهم شيئا ·

ـ هدئى من روعك · أننا لم نصل الى الجزائر بعد ·

ـ فيم بقائى والرجل لا يوافق على عملى معه ؟ ولماذا لا نغادر اليخت باكر ؟ أنه أحسن حل للموقف ·

ـ ولكن مورجان لا يرى هذا الرأى فيما يبدو ، والرأى هنا رأى ايدى !

ـ ولكن ، لماذا ؟ أن مستر فيردون هو الرئيس ، اليس كذلك ؟

ـ وهذا هو عين ما يدور بخلدى من تساؤل ·

ـ وماذا ترى فى كل هذا ؟

ـ لا شيء سوى ما ووجهنا به معا · أن من الاثرياء من يتخذ وكيلا يطلق يده فى بعض ما يكره أن يقوم به من عمل · ولعل فيردون أراد أن يجنب نفسه هذا الحرج · فعهد الى ايدى مورجان بما أراد اعلانك به · ومهما يكن من أمر ، فان مورجان يعنى كل كلمة قالها ·

ـ أن مستر مورجان يسبب لى النزاع · ليتنى لم أحضر ·

ـ أو حقا ما تقولين ؟ لئن لم تكونى قد قبلت هذا العمل ، لما كنا قد التقينا ولما كنت قد نلت من عطفك ما نلت ولما كنت فى طريقى الى الجزائر ·

ـ ولقد كان فى هذا ما كان من حسن التوفيق لك ، اليس كذلك ؟

وشردت بذهنها ، فأسرع تشاك يقول لها :

ـ أن الطقس يميل الى البرودة · هيا انهضى الى فراشك ولتخلدى الى النوم قليلا ، فاذا ما استيقظت فلتسألى المشرف أن يأتيك بقدح من الشاى · ولا حاجة بك لان ترهقى نفسك التوجه الى قاعة الطعام ·

ـ أظن أن هذا هو ما سأفعله ·

وكانت راغبة عن الابتعاد عن تشاك الذى كانت تجد فى قربها منه ملاذا وأمنا · غير أنها كانت ترى أنه لا معدى لها عن العمل بما أشار به عليها ·

ونهض تشاك يأخذ بيدها ويعينها على مغادرة مقعدها . وقد سرها أن تجد رجلا الى جانبها يعنى بأمرها ويوليها رعايته .

وقال لها يشيعها :

ـ فلتخلدى للنوم ! لا تنسى ذلك . أن فى هذا الخير كل الخير لك .

فترددت زاريا قبل أن تواصل سيرها قائلة :

ـ اذا ما تصادف أن بعث مستر فيردون فى طلبى فهل لك أن تحيطنى علما بذلك ؟

ـ بكل تأكيد . وأن كنت واثقا من أن شيئا من ذلك لن يحدث !

ـ أنك تنطق بهذا فى صيغة الجزم ؟

ـ لاننى أعتقد أن مستر فيردون فى أجازة من عمله .

وتبادر الى ذهنها أنه لا يصارحها القول ولكن ابتسامته لم تتح لها فرصة لمناقشته وآثرت أن تمضى فى اتجاه غرفتها .

ونهضت عنها ثيابها لترتدى قميص النوم « وألقت بنفسها فوق الفراش فى استرخاء المتعب لتنعم بالدفء وبالفراش الوثير . وكانت تريد أن تستغرق فى تأملاتها وتستعرض كل ماحدثها به تشاك وتحاول أن تضع النقط فوق الحروف . كما كانت تريد أن تدبر أمر عودتها الى الوطن غير أنها لم توفق فى تحقيق ما كانت تبغى . بل استغرقت فى نوم عميق تخلله حلم هانىء سعيد ورأت فيما يرى النائم تشاك يطوقها بذراعيه ويضمها الى صدره قائلا :

ـ أحبك . أحبك .

وصحت من نومها على صوت طرق على الباب · فقالت :

ـ ادخل ·

وفتح الباب لترى الساقى مقبلا يحمل صينية الشاى وهو يقول :

ـ لقد جئتك بقدح من الشاى ، بعد أن تبينت عدم وجودك فى قاعة الطعام ·

ـ وهل حانت ساعة تناول الشاى ؟

ـ لقد تجاوزت الساعة الخامسة والنصف · ولقد رأيت أن أوافيك به لانك انجليزية لا تحب أن تهمل شاى الخامسة ·

واعتدلت زاريا جالسة فى فراشها ، وكانت تشعر بالحرج لانها لم تألف أن يقوم رجل على خدمتها فى غرفة نومها · ثم قالت :

ـ لقد أحسنت صنعا ·

وتبينت أنه حمل اليها معه بعض الشطائر ، والزبد، وعسل النحل ، وقطعة من الكعك · فضحكت وهى تقول :

ـ لن أستطيع التهام كل هذا ·

ـ ينبغى لك أن تحاولى ، يا سيدتى · وقد رأى الطاهى أن يعد لك حساء خاصا ـ كانت مسز كاردو ،المالكة الراحلة ، تتناوله بعد اجراء آخر جراحة لها · لقد كانت مريضة ، جد مريضة ، حينما اعتلت ظهر هذا اليخت · ولقد كان لهذا الحساء أثره فى استعادتها لبعض قواها ·

ـ يبدو لى أنه كان له فعل السحر · هلا شكرت الطاهى عنى ؟

ـ فى الواقع ، اننى تحدثت الى الطاهى عن حاجتك الى التغذية وعن قلة ما تتناولين من طعام فكان أن رأى

العودة الى اعداد هذا الحساء الذى دأبت مسز كاردو على تناوله ٠

ـ ولكننى لم أكن مريضة ٠

فتساءل المشرف وكأنه لا يصدق ما تقول :

ـ لم تكونى مريضة ؟ أو تراك كنت تتبعين نظاما قاسيا للتغذية ؟

فابتسمت زاريا قائلة :

ـ تقريبا ـ ومهما يكن من أمر ، فلا بأس من تناولى لهذا الحساء ، اذا لم يكن فى ذلك أى عناء

ـ كلا ، البتة ٠ وثمة شىء آخر طرأ على بالى ، يا سيدتى ٠

ووضع يده فى جيبه ليخرج علبة صغيرة ٠ فاستوضحته زاريا قائلة :

ـ وما عسى هذا أن يكون ؟

ـ انها بعض أقراص من الفيتامين ، يا سيدتى ٠ وكانت مسز كاردو تتناولها باستمرار ٠ كما كانت تحتفظ بالكثير منها هنا فى اليخت ٠ وطالما كانت تقول لى : « جيم ، عليك بها ٠ أنها تحتفظ لك بشبابك وتبعث فيك النشاط ٠ وكنت أتناول منها واحدا أو اثنين نزولا *على رغبتها ولست ازعم أنها كانت عديمة النفع ٠ اننى لم* اشعر ابان فترة تناولها بصداع أو بألم ما ٠

ـ ولذلك ، تشير على بتناولها ٠

ـ حاول ، يا سيدتى ٠ أنها مع الحساء قد تفيدك كثيرا ٠

ـ اذن ، فعلينا أن نسرع بذلك ٠ أننى مغادرة اليخت بمجرد وصولنا الى الجزائر ٠

ـ تغادرين اليخت ! ولماذا ، يا سيدتى ؟ اذا لم تجدى

لى سؤالى هذا جراة او فضولا .

ــ لقد استغنى مستر فيردون عن خدماتى. هناك من سيحل محلى غدا ، حينما تصل مدام بيرتان ·

ــ ان هذا ليثير دهشتى · لقد كتب مستر باترسون الى القبطان بكل ما صادفه من عناء فى سبيل الاهتداء الى سكرتيرة مستكملة الشروط · عجبى لهذا التحول المفاجىء !

ــ من حق مستر فيردون أن يكون له مطلق الحرية فى اختيار من تعمل معه · غير أننى أشعر بالاسى لانه كان بودى أن أذهب الى الصحراء ثانية ·

وانني لجد آسف ، بدورى · أننى أجد راحة فى خدمة الانجليز ، أما هؤلاء الامريكيون فلست أفهمهم· لقد كان معظم ضيوف مسز كاردو من الانجليز · ولم يعرف هذا اليخت سوى الهدوء · ان أكثريتنا قد قضت على ظهر « الساحرة » أكثر من عشرة أعوام ، باستثناء أثنين من صغار العاملين · وكانت مسز كاردو جد فخورة بنا · وكنا بمثابة أسرة واحدة · ولقد تبدل الوضع الان · أننى لا ارتاح لهؤلاء الامريكيين · وأنك لا تعرفين ماذا يريدون · أنهم أبعد ما يكونون عن تذوق الحياة المنتظمة الرتيبة · ويبدو لى أنهم يضيقون ذرعا بوجودهم فوق ظهر هذا اليخت . ولقد سمعت مستر مورجان يردد شيئا من هذا القبيل ·

ولمست زاريا من لهجة المشرف سخطه البالغ حد الغضب · وشعرت برغبة تتنازعها فى الضحك ، ولكنها تمالكت نفسها خشية أن تسىء الى جيم · فقالت أخيرا :

ــ قد يكون المستأجرون الجدد أحسن حالا ·

··· وهذا ما ارجوه · سيسوءنى فراقك لنا · وكذلك،

فراق مستر تانير • انه سيد مهذب وديع وارجو لكما انت تسعدا معا • انكما جديران بذلك •

– شكرا •

وشعرت زاريا بتانيب الضمير لخداعها هذا الرجل العاطفى ، اللطيف المعشر الساذج • وسمعته يقول لها :

– والان ، عليك بتناول ما جئتك به – بقدر ما فى وسعك • وساعود اليك بقليل من هذا الحساء حينما تنهضين لارتداء ثياب العشاء ، اسوة بما كانت تفعله مسز كاردو .

وكانت تقول عن هذا الحساء انه افضل من كاس من الكوكتيل

وبعد انصرافه ، صبت زاريا لنفسها قدحا من الشاى . وحينما حانت ساعة التأهب لارتداء ثياب العشاء ، طرق جيم باب غرفتها ليقول لها ان الجميع سيتناول كل عشاء فى غرفته بناء على اضطراب مياه البحر وشدة تلاطم امواجه •

فقالت له زاريا :

– الن يكون فى هذا عناء لك ؟

– كلا ، لاننى آلفت مثل هذا الطقس اولا • ولان بعضهم لا يريد عشاءه ، ثانيا • فيردون يقول انه لا يريد ان احمل اليه شيئا ، ومستر مورجان ، هو الاخر ، لا يريد اكثر من زجاجة ويسكي •

– وماذا عن مس مانوفر ؟

– تعاطت منوما فى حوالى الساعة الرابعة وقالت انها لا تريد ان يزعجها احد قبل صباح الغد انها تكره السفر بحرا •

– فليكن ، ما دمت ترى هذا •

ـ فلتمكثي حيث أنت . فليس من الصواب فى شىء أن يغادر أحد غرفته فى مثل هذا الجو المضطرب ·

وكان بسبيل مغادرة الغرفة ، حينما استوقفته زاريا متسـائلة :

ـ وماذا عن مستر تانير ؟

ـ أنه على خير ما يرام · أنه فى صحبة القبطان الآن ·

لا تقلقي من أجله ·

ـ حسنا ·

وبعد أن فرغت من تناول عشـاءها ، تناولت قرصـامن الفيتامين ارضاء لجيم ، ثم خلدت الى النوم ثانية . وكانت تمنى النفس بأن ترى تشاك ثانية فى أحلامها · وكانت تتوق الى أن تسمع صوته يحدثها بحبه لها ، وبذراعه يطوق منكبيها · وأن ترضى نفسها بأن ثمة من الرجال ـ أيا من يكون ـ من يعجب بها · ولكنها سرعان ما استغرقت فى نوم عميق لم تر له مثيلا لعدة أعوام مضت ·

وكانت قد سألت جيم أن يحمل اليها قدحا من الشـاى قبل تهيؤها لطعام الافطار بساعة · غير أنه أقبل فى الساعة التاسعة يحمل اليها طعام افطارها · وبادرها قائلا :

ـ لا يوجد بقاعة الطعام سوى مستر تانير · وقد علمت منهم جميعا أنهم قضوا ليلة ليلاء ·

ـ لهذا الحد ؟

ـ أنها نوة يعرف بها البحر الابيض المتوسط · ومثل هذه الانواء ينجم عنها حركات تموجية عنيفة ·

وكان يتحدث بهذا وكأنه سعيد بما تعرض له مستر فيردون وايدى مورجان · واستطرد قائلا :

– يقول القبطان أننا سنصل الى الميناء حوالى ساعة الظهيرة · ولذلك ، أرى أنه لا حاجة بك لان تكونى فى عجلة من أمرك ·

وراحت زاريا تتناول طعام افطارها بشهية متحسنة · وبدأت تدرك السر فى تعلق عمتها بهذه السفينة ، ولماذا آثرت قضاء الاعوام الاخيرة من حياتها تجوب البحار ·

يا للعمة مرجريت المسكينة ! لقد ودت زاريا لو تيسر لها أن تذكر الكثير عنها · ولكنها لم تستطع أن تستعيد أكثر من لعنات والدها التى كان يصبها على رؤوس أقاربه جميعا ، بما فيهم شقيقته · وأنها لتكاد أن تستعيد كلماته المنتقاة ·

وأنها لتذكر كيف ألقى برسالة فى وجهها ثم غادر الغرفة ، يصفق الباب غاضبا · والتقطت الرسالة وهى تتساءل عما حدا بعمتها أن تراسله بعد قطيعة عامين · وكانت الفقرة الاخيرة من الرسالة كما يلى :

انى أتساءل عما اذا كنت تتعهد قبر والدنا ووالدتنا ؟ بودى لو قمت بشىء من هذا القبيل · يسوءنى أن أعرف أنك أهملت هذا الواجب ·

هذه الفقرة اذن ، هى التى جعلت والدها يستشيط غضبا ، لانه كان يخشى أن يكلفه هذا التعهد بالا · أن شحه وتقتيره وبخله ، كان قد بلغ به حدا تجاوز كل تصور · لقد كان مريضا بهذه الخصال الذميمة ·

وأرادت أن تبعد عن ذهنها تلك الذكريات الاليمة · تلك الذكريات الممضة التى يجب ألا تعكر عليها صفو حياتها الجديدة · أن هذه الذكريات التى كانت تثقل عليها الى حد لم تستطع معه أن تتحرر من أسارها ، فظلت قابعة فى عقر دارها لا يخطر ببالها مغادرته سعيا وراء الاتصال

بعمتها التى كان من الامكان أن تغفر ماضى والدها وتكلاها برعايتها !

بعدا لهذا الماضى الكريه من الحرمان ، والخوف ، والوحدة ، والعذاب ، ولتعيش الان فى الحاضر بكل ما فيه من دعة ، وأمن ، وحياة ، ولكن ، أى حاضر هذا ؟ ان هى الا ثمانى وأربعين ساعة تعود بعدها الى وحدتها اثر انتهاء الرحلة،فلن يكون هناك تشاك ليحنو عليها أو جيم لتتجاذب معه أطراف الحديث ·

ولحت فى ذهنها حقيقة فقدانها لتشاك ، وماذا يعنى اختفاؤه من حياتها · ثم ضحكت لهذا الخاطر الذى يدعو للسخرية – أن تشاك رجل لم تعرف عنه شيئا ، ولم تلتق به الا منذ بضعة أيام فى ظروف غامضة وغير عادية · غير أنها تشعر ، على الرغم من ذلك كله بأن معرفتها به قديمة العهد وثيقة الصلة ·

وشعرت برغبة ملحة فى أن تراه · ونهضت ترتدى ثيابها وتتزين · وتأملت صورتها فى المرآة وقد تبادر الى ذهنها ما كانت تمنيها به أمها من أنها ستكون فتاة جميلة فى يوم من الايام ، وما كنت تزجيه اليها من نصح حينما تصبح فتاة مكتملة الانوثة تفتن الرجال ، وما يجب عليها من حرص فى اختيار من تؤثره بحبها ، لانها ان أحبت بذلت – فالحب تضحية وبذل ، مما يستتبع أن يكون من تحب جديرا بكل هذا · وأنها وان لم تكن تعى ، حينذاك ما كانت تردده أمها على سمعها ، فانها الان قد بدأت تدرك كنهه وقد اختلطت هذه الخواطر بصورة تشاك ·

وعادت تتأمل صورتها فى المرآة ، لتتبين بروز عظام وجهها وعينيها الغائرتين ، وقد فاضت نفسها مرارة وهى تتساءل فى استنكار : من ذا الذى يقدم على حب فتاة مثلى ؟

وغادرت الغرفة فى طريقها الى ظهر اليخت · ووجدت تشاك متكئا فوق الحاجز ، يتطلع الى ساحل أسبانيا ـ بمرتفعاته وجباله التى تكسو قممها الثلوج · ووقفت الى جانبه قائلة :

ـ رائع !

ـ سعدت صباحا . هل تشعرين بتحسن ؟ هذا ما أتبينه فعلا ·

ـ وكيف ؟

ـ ألم تتأملى صورتك في المرآة ؟ لقد علمت من جيم بأنه يشرف على تغذيتك · وأرى أن مجهوده قد بدأ يؤتى ثماره ·

ـ ان جيم ثرثار لا يجارى ، وأن كنت قد لمست منه كل اشفاق ·

ـ وهل كان وحده من لمست منه ذلك ؟

فأطرقت ، ولم تعقب بشىء · وأظلم وجهها بعد أن تبادر الى ذهنها ما سيكون من أمر الغد · وأدرك تشاك بحساسيته الشفافة ما يجول فى خاطرها ، فقال لها :

ـ زاريا استمعى الى ···

وكانت لهجته جادة · غير أنه لم يسترسل فى حديثه ، اسماعها صوت ايدى مقبلا عليها وهو يقول :

ـ يا لها من ليلة مروعة ! اذا ما كان لشىء أن يصدنى عن السفر بحرا ، فليس بعد هذه التجربة القاسية · لقد جئنا عبر الاطلنطى دون أن نتعرض لشىء من هذا القبيل ·

فأجابه تشاك فى هدوء :

ـ أن البحر الابيض المتوسط لا يؤمن له جانب ·

ـ لقد بدأ يهدأ الان ·

– ولسوف يستكمل هدوءه قبيل الظهيرة · هل الجميع بخير ؟

– يقول فيكتور أنه أصيب بصداع شديد · الا أننى أرى أن ما نزل به كان نتيجة لاتيانه على زجاجة خمر بأكملها ·

وبدا أنه يتجاهل زاريا عمدا · وعلى الرغم مما فى مسلكه من مجافاة للذوق الا أنها حمدت له عدم اهتمامه بها ·

ومضت السفينة فى طريقها الى أن بلغت منطقة الحدود الاقليمية حيث يكون البحر هادئا لا يضطرب بأمواجه · ومع ذلك ، فقد انقضت فترة طويلة قبل أن يصعد جاكوبيتى الى السطح · وسمعت زاريا فيكتور يبادر ايدى مورجان قائلا :

– فيم كان اختيارك لمثل هذا المكان اللعين الذى تتجه بنا اليه ؟

– اذا ما كنت تعرف حجرا أحسن منه ، فلتبحث عنه !

وكانت لهجة ايدى من الحدة بحيث يدت فى الاسماع بمثابة طلقة نارية قوية الصدى ·

ويردف فيكتور قائلا ، وقد تجاهل ما كان يعنيه ايدى مورجان برده العنيف :

– لابد وأن لولو قد وجدت عناء فى التوجيه الى هناك · فعقب ايدى فى غلظة :

– ألا يوجد سيارات ؟ أن موسم السياحة يبدأ فى مثل هذا الفصل من السنة · ماذا دهاك ؟
هل بك مس ؟

– كلا ، كلا بكل تأكيد · لعلك خير من يدى ·

– ليتكم جميعا تدركون ذلك ·

وكانت لهجته الغليظة أشد وطأ من معانى ألفاظه ، مما كان من شأنه أن حدا بفيكتور أن يبتعد عنهم متجها الى الناحية الاخرى من السفينة ·

وعجبت زاريا ، فيما بينها وبين نفسها ، من أمر هاته الجماعة المتنافرة ، التى لا يحب فيها أحد الاخر ·

وأقبلت كيت وهى تتثاءب قائلة :

– ألم نصل بعد ؟ كان فى وسعى أن أمكث فى فراشى فترة أطول ·

فانبرى فيكتور يقول لها :

– لقد قضيت بفراشك أكثر مما يجب .

فرمقته بنظرة تفيض ازدراء · ثم قالت له :

– هذا غير مستبعد منك · لقد سمعت بأن ساقيك لم تقويا على حملك الليلة الماضية · وفى الواقع أن المشرف قال لى أن مستر تانير كان هو الوحيد الذى استطاع مقاومة العاصفة

وابتسمت تحيى تشاك وتضع ذراعها فى ذراعه قائلة :

– خبرنى ، يا رجل ، كيف استطعت الى هذا سبيلا ؟

– ليس اكثر من أن يكون للمرء ساقان تقويان على الثبات للعاصفة ·

– يا لك من رجل !

وكانت تقول هذا وهى ترنو اليه بعينيها وتبتسم فى اغراء لم يخف على أحد · وأشاحت زاريا عنهما بوجهها ، وقد تملكها الاسى · وراحت تتساءل بخواطرها : لماذا لا احذو ؟ حذوها ولماذا لا أبدو مرحه ، لماذا لا أطلق ضحكاتى وانطلق بدلا مما بدو به من وجل وعدم ثقة بالنفس ؟

وكانت تعرف الاجابة عن كل سؤال تبادر الى ذهنها ، وأن لم يغير هذا من حالتها أنها لا تريد شيئا بقدر ما

تريده من أن تصبح مثل كيت ــ جميلة ، ممتلئة الجسم بحيث يبدى ثوبها مفاتنها ، أنيقة تتقن انتقاء ما تتحلى به وتتزين • وسمعت كيت تتساءل :

ـ هل يوجد متاجر فى تاراليزا ؟ حوانيت كتلك التى يمكن أن نبتاع منها بعض الهدايا التذكارية •

فانبرى ايدى مورجان يقول لها محتدا :

ـ لن تفعلى شيئا منهذا القبيل • أننا لن نتوقف سوى بضع دقائق ريثما نلتقط لولو وأحمد ، ثم تقلع فورا كما تقضى بذلك أوامر القبطان •

فسألته كيت :

ـ وهل سيكون أحمد فى انتظارنا ؟

ـ أجل ـ كان لابد من ذلك • ولقد رأيت أننا سنكون بحاجة اليه ، ولذلك أخبرت لولا انه يمكن أن يقود السيارة الثانية •

فضحكت كيت قائلة :

ـ لست أستطيع أن أتصور احمد فى حلة السائق !

فأجابها ايدى منفعلا :

ـ انك تسيئين اختيار الوقت لدعاباتك •

وازداد الحديث غموضا • ودار بخلد زاريا أن ثمة حلقة مفقودة ، لو تيسر لها أن تدركها لاستطاعت أن تميط اللثام عما استغلق عليها فهمه . وسمعت كيت تتجه بحديثها الى تشاك قائلة :

ـ وهكذا لن يدعونا نهبط الى الشاطىء • كنت أعتزم أن أشترى لك رباط عنق أسبانى انيق • يؤسفنى ألا تتاح لى هذه الفرصة •

ـ لا بأس • يمكنك أن تبتاعى لى ما تشاءين فى الجزائر • كما أنى سأقدم اليك ، بدورى ، مشروبا فى أرقى حانة بشارع داكوزا •

اتفقنا ؟

ــ بكل تأكيد ! اننى أتحرق شوقا لهذا ٠

وشاهدت زاريا كلا من ايدى مورجان وفيكتور جاكوبيتى يتبادلان نظرة خاطفة ، أدركت منها أنها تعنى أن تشاك لن يكون لديه متسع من الوقت لتنفيذ ما يمنى النفس به فى الجزائر ٠

وتساءلت زاريا ، فيما بينها وبين نفسها ، ما اذا كان ايدى مورجان قد شعر بالغيرة ؟ هذا ليس بمستبعد ، لان من المفروض ان كيت هى فتاة ايدى ٠ ولكن ، ما هى علاقة فيكتور جاكو بيتى بهذا ؟

وبدأ اليخت يستدير فى الخليج ، وبدا ميناء تاراليزا عن بعد ٠ ولم تكن تاراليزا بأكثر من قرية تصيد الاسماك ــ بضعةأكواخ بيضاء اللون تتخذالىالمرفأ المستطيل وبدت فى الافق كنيسة تقع خلفها عدة مبان لا يوجد فيها ما يشوق ٠ وكانت تبدو على المدينة بصفة عامة مظاهر الفقر والتخلف ٠

وصاحت كيت فجأة :

ــ ها هى لولو !

ووقع نظر الجميع على سيدة بدينة ، قصيرة ، فوق رصيف الميناء وبجوارها عدة حقائب ، بين الكبير والصغير ٠ فقالت زاريا :

ــ يا لها من مجموعة كبيرة !

فأجابتها كيت :

ــ هذا طبيعى ٠ الا تعرفين ان مدام بيرتان ستفتتح متجرا فى الجزائر ؟ وان هذا المتجر يجب أن يشتمل على كل ما يرضى جميع الاذواق ٠

فقال ايدى مورجان :

ـ فعلا ، والا كان مصيره الفشل · أليس كذلك ؟

فأسرع فيكتور موافقا :

ـ بكل تأكيد ·

واتجه ايدى مورجان الى مستر فيردون ، الذى كان واقفا فى صمت ، متكئا بيديه على الحاجز يسأله :

ـ وأنت ، كورنى ، ما هو رأيك ؟

ـ هل يعنيك رأيى فعلا ؟

وتبينت زاريا فى لهجته رنة تهكم · وأسرع ايدى مورجان يجيبه :

ـ بكل تأكيد · ان المال مالك ·

ـ ولذلك تجدنى كبير الرجاء فى نجاح المشروع ·

ـ اننا نسترسل فى تنفيذ كل مشروع مهتدين بهديك ·

ثم التفت ايدى مورجان الى فيكتور جاكوبيتى قائلا :

ـ ترى أين احمد ؟

ـ فى احدى الحانات ، كما هو متوقع ·

واقتربت السفينة من الرصيف لترسو نهائيا · وراحت كل من كيت وعدام بيرتان تلوح للاخرى وتبينت زاريا فيها امرأة فى منتصف العمر ، بدينة ، زرقاء العينين ، مكتنزة الشفتين ، مسرفة فى زينتها · ولم تكن بها مسحة من جمال · ومع ذلك كله ، فقد كانت بادية الاناقة ، شأنها فى ذلك شأن كل فرنسية · كما أنها كانت خفيفة الظل ، تجتذب الانظار اليها لا تمل العين من التطلع اليها ·

وصاح ايدى مورجان يحييها :

ـ هاى ، لولو !

وصاحت بدورها :

ـ مرحبا بكم ! يسرنى أنكم وصلتم سالمين ·

وصعد الى السفينة احد موظفى الجمارك ، وفى

أعقابه مدام بيرتان ، التى بادرتهم قائلة :

- يجب أن أقدم اليكم هذا السيد المهذب . لقد لقيت من حسن معاملته ما يجل عن الوصف وكان مجاملا الى أقصى حد . انه رجل ذواق يحب الجمال - الجمال فى حد ذاته بصرف النظر عما يسكوه من ثياب .

وضج الجميع بالضحك . وتقدم ايدى مورجان يصافح الرجل ويقدمه الى مستر فيردن . ثم اتجهوا الى قاعة الطعام ، حيث سمع صوت ايدى مورجان يصيح مناديا المشرف ، وبعد قليل استمع الجميع لصوت معاقرة الكؤوس . وانبرت كيت تسأل مدام بيرتان وهى تضمها الى صدرها .

- كيف حالك ؟

- أنك تزدادين بهاء ، يوما بعد يوم . انك منافسة خطيرة ، وأن كنت خير من سيعلن عن ثيابى الجميلة عندما ترتدينها .

والتفتت ناحية تشاك وزاريا اللذين كانا يقفان بعيدا عن الاخرين ، قائلة :

- ومن عساهما أن يكونا ؟

فانبرت كيت تقول :

- مس براون وخطيبها مستر تانير . انهما سيغادران اليخت فى الجزائر . وبهذه المناسبة اين أحمد ؟

- أنه لم يصل معى .

فانبرى فيكتور جاكوبيتى قائلا :

- لم يصل معك ! لقد قيل لى أنه قادم فى صحبتك يقود احدى السيارتين .

- لقد كان هذا هو المفروض . غير أنه حدث ، عند وصولنا الى الحدود الاسبانية ، أن تنبه المختصون أن اوراقه غير مستكملة . وكان أن قفل راجعا .

وكان فيكتور جاكوبيتى يحدجها بنظراته ، وكأنه يريد أن يقرأ فى عينيها ما لم ينطق به لسانها ثم توجه اليها سؤاله :

ـ هل كل شيء على ما يرام ؟

ـ بين بين • غيرَ أننى ارى انه من الخير لنا أن نسرع بالرحيل •

ـ بكل تأكيد •

واتجه صوب قاعة الطعام ، وفتح بابها متسائلا :

ـ هل نبدأ فى نقل الحقائب الى السفينة ؟

وكان بديهيا ان يكون الرد ايجابا • فأسرع يصيح فى البحارة • مصدرا امره بنقل الحقائب الى مخزن العفش بالسفينة • الا أن مدام بيرتان صرخت قائلة :

ـ فيما عدا اربعة مسطر عليها كلمة « المقصورة » يجب أن تنقل الى غرفتى ثم أسرعت السيدة تضع يدها فوق كتفه مستدركة :

ـ مهلا • فلتنقل جميع الحقائب الى الغرف الخاصة ان ذلك أكثر أمنا • ان مخازن العفش هى اول ما يتعرض للتفتيش •

ـ اجل ، اجل ، بكل تأكيد • يمكن توزيعها بين غرفتك وغرفة كيت •

وهرعت مدام بيرتان الى حيث راحت تصدر اوامرها ـ بالانجليزية الى البحارة وبالاسبانية الى الرجال المحليين الذين كانوا يعاونونهم •

ما • بل وكان هو الذى عمد الى خلق موضوع يبادلنى

ونشطت حركة نقل الحقائب ، وتبادر الى ذهن زاريا أنه يحسن بها أن تهبط الى غرفتها لكى لا يضع

الاسبانيون بعض الحقائب فيها خطأ بدلا من وضعها فى غرفة كيت · واستدارت تبتعد عن الحاجز فى طريقها الى درج الهبوط · وحينما بلغت من سيرها قمة الدرج ابصرت بفيكتور جانكوبيتى يمسك بذراع ايدى مورجان ، الذى كان قد غادر قاعة الطعام مودعا موظف الجمارك بأحسن مما استقبل به ، وينتحى به جانبا وهو يقول فى صوت خفيض سمعته زاريا :

– لحظة ، ايدى ! هل سمعت بآخر الانباء ؟ لقد احتجزت الشرطة عند الحدود الاسبانية هذا الاحمق أحمد !



الفصل السادس

وأسرعت زاريا تهبط الدرج · وما أن بلغت زاريا من هبوطها الدرجة الاخيرة ، حتى سمعت ايدى مورجان يقول :

ـ هذا الاحمق المأفون ! لقد عارضت فكرة احضاره :

وكان صوته منخفضا ، أقرب ما يكون الى الهمس · غير أن زاريا استطاعت أن تتبين كل كلمة من كلماته · ومدفوعة بغريزة الفضول ، ودون ان تدرك أنها تسترق السمع ، لم تواصل سيرها لتنصت الى تعقيب فيكتور جاكوبيتى :

ـ فليكن ، والا لما كانت معنا الان · كان من المفروض أن تقول انه سائق سيارتها ·

ـ يا لها من مخاطرة !

ـ ادرك هذا . ومهما يكن من امر ، فقد استطاعت أن تتخلص من المأزق ·

ـ اذن ، فلنسرع بالرحيل ·

ـ حسنا ·

ـ وماذا ترانا فاعلين حينما نصل الى الجزائر دون أن يكون معنا ؟

ـ لقد انسيت ذلك · ان الفتاة لا زالت معنا ·

ـ انها مخاطرة أخرى ·

– اطمئن ، فلا ضير منها · انه الرجل هو الذى يقلقنى امره ·

– سيكون علينا أن نتفق معه · هذا هو كل مافى الامر · والان ، فلتخبن القبطان بضرورة الابحار فورا ·

وابتعد الرجلان عن قمة الدرج ، وأمسكت زاريا بحاجز الدرج بعد أن أدركت انها ترتجف وليست بها قدرة على الحركة · وبعد ان استعادت رباطة جأشها وسيطرت على أعصابها ، هرعت الى غرفتها الخاصة وأوصدت بابها ، تستند اليه بظهرها وكأنها تخشى ان يلحق بها احد ·

ماذا تعنى هذه المحادثة الهامسة ؟ وحاولت أن تستعيد ما استعمت اليه لتدرك كنه ماانطوى عليه هذا الجديث.

لقد كانت واثقة من أن هؤلاء القوم قوم ملتوون ! وعلى الرغم من ذلك ، ومما استمعت اليه خلسة فانها عاجزة عن وضع النقط فوق الحروف ·

ان ايدى مورجان هو الكل فى الكل ! ليس فى هذا من شك · ومن لهجة حديثه ، ومما كان يقوله ، يدرك المرء ان الامور لا تجرى على خط مستقيم · ولكن ، ما هو موقف مستر فيردون من كل هذا ؟ وهل يعرف ما يجرى من حوله ؟ وهل هو شريك فى هذه المؤامرة ؟ واذا ما صح هذا فلماذا ؟

وأحكمت زاريا اغلاق باب غرفتها ، ثم خطت صوب المقعد الوثير بجوار النافذة المستديرة التى كانت تنفذ منها أشعة الشمس فتبعث الدفىء فى المكان · وكانت تسمع وقع أقدام البحارة فى غدوهم ورواحهم · ثم سمعت وقع اقدام اخرى فى الدهليز وصوت جييم يصدر أوامره لحاملى الحقائب ·

وجلست فى خلوتهــ هذه تستعرض وتستعيد كل ما سمعت من حديث ، محاولة أن تخرج من ذلك بنتيجة تميط اللثام عما استغلق عليها فهمه . لقد أدركت أن أحمد هو الذى كان سيحل محلها ، وأنه لن يصل كما كان متوقعا ، الامر الذى يفسر ما قاله جاكوبيتى عنها .

وتشاك ! لقد قال ايدى أنهم سيتولون أمره . وكانت لهجته وهو يقول ذلك لا تبشر بخير .

ونهضت زاريا عن مقعدها . انها يجب أن تسعى الى تشاك بتحذيره . ويجب أن تكاشفه بكل شىء سمعته ليضطلع بمسئولية ما هو آت . ان مواجهة هذه الجماعة مما لا قبل لها به . وأنها لا تجدمايبرراشتراكمستر فيردون ، الفاحش الثراء ، فى عمل مريب . ان ايدى ، وفيكتور ، وكيت من طراز آخر ـ هذا الطراز الذى يتحرق شوقا الى الحصول على المال ، بوسيلة او بأخرى .

وفتحت الباب وخطت الى الدهليز . وكان باب غرفة كيت مفتوحا وأبصرت بجيم واقفا يصدر اوامره الى أحد البحارة بوضع احدى حقائب مدام بيرتان الكبيرة فى الجانب الاخر من الغرفة .

وصعدت الى السطح فى اللحظة التى أعيد فيها المعبر الى الشاطىء . وكان الاسبانيون وعلى رأسهم موظف الجمارك واقفين يلوحون لليخت مودعين . وكان باديا أنهم جد سعداء بما حصلوا عليه من أجر سخى .

وبدأ اليخت يبتعد عن مرساه . وتبادلت مدام بيرتان وموظف الجمارك تحية خاصة وسمعتها زاريا تقول لمستر فيردون :

ـ يا له من رجل ساحر .

فأردف مستر فيردون قائلا :

– لابد وانك قد سحرته ·

فألقت عليه نظرة جانبية من تحت أهدابها الصناعية واستغرقت فى الضحك ، وهى تردد عبارته ·

وتلفتت زاريا فى البحث عن تشاك · ولم تعثر له على أثر · وشعرت بأنها لا تكاد أن تلتقط أنفاسها رعبا خشية أن يكون قد تعرض لحادث ما · فأسرعت الخطى صوب مقدمة اليخت ، لتجد تشاك واقفا الى جانب كيت ، ذراعا فى ذراع ، يتابعان السفية فى خروجهـا من الميناء · وكانا مستغرقين فى حديث جاد · وقد اتجه كل منهما بوجهه الى الاخر · وجمدت زاريا فى مكانها كالصخر ، بعد أن تبينت أن حديثهما قد الهاهما عن كل شىء آخر · ولم تستطع حراكا · بل ظلت واقفة حيث هى تحدث النظر فيما أمامها ، ثم استندت فى ضعف الى الجسر · ولم تتمكن من سماع شىء مما يتحدثان به ، وأن كانت قد أدركت من أسلوب حديثهما انه كان حديثا خاصا وديا · كما رات تشاك يبتسم · أنه يستمتع الان بهذا العبير يفوح من شعرها ، وبذاك الوجه الجميل يفيض حيوية وبهاء · وبعد حوالى نصف دقيقة ، رات زاريا ان تنسحب وتعود أدراجها فى هدوء · ومشت على وهن ، متثاقلة الخطى ، وكأنها امرأة عجوز قد تقدم العمر با ·

واضطرب ذهنها بشتى الخواطر المتضاربة · ماذا تعرف عن تشاك ؟ لا شىء ! من عساه أن يكون ؟ كيف وثقت به وهو هذا الرجل المجهول الذى اقتحم عليها غرفتها لا تذابها ضارطا أن تمد له يده المساعدة ؟ اتراه وقد حصل على ما يريد ، قد أصبح فى غنى عنها ؟ لقد كان واضحا ، الليلة الماضية ، ان كيت قد اعجبت به وأنها قد اعتزمت ان تلقى بشباكها من حوله ·

وبلغت من سيرها اعلى الدرج · وبينما كانت تتأهب لهبوطه ، سعرت بمن يربت على ذراعها ورأت ايدى مورجان واقفا الى جانبها · وبحركة غريزية حاولت الابتعاد عنه ، ولكنه أمسك بذراعها ثم اتجه بها فى حركة ودية الى حيث يجلس الاخرون تحت المظلة الحمراء قائلا :

ـ هلم بنا ، مس براون · كان بودنا ان تسنح فرصة للاجتماع بك ·

ثم ابتسم ابتسامة ودية وهو يستطرد قائلا :

ـ ترى ، لماذا ندعوك بمس براون ؟ ان زاريا اسم جميل ، وهو ما يدعوك به خطيبك ، اليس كذلك ؟ حسنا زاريا ، ان مستر فيردون يريد أن يتحدث اليك ·

وكانت قد تنبأت بمضمون هذا الحديث،غير انها لم تكمن لتستطيع شيئا سوى أن تسلم قيادهالأيدىمورجان ليتجه بها عبر السطح ويجلسها فوق أحد المقاعد المريحة بجوار مستر فيردون ·

وادركت من نظرات كل من فيكتور ومدام بيرتان ما يستبد بهما من فضول · وسمعت ايدى يقول :

ـ لولو ، انك لم تلتق بزاريا ، أليس كذلك ؟ انها سكرتيرة كورنى ، وهى سكرتيرة مقتدرة ، فيما يبدو وان كان كورنى لم ينصرف الى العمل بعد ·

فقالت مدام بيرتان ، بعد هذا التقديم :

ـ تشرفنا · يسرنى أن نلتقى ·

وأرادت زاريا أن تنهض لتصافحها ، ولكن ايدى اعادها الى الجلوس بلمسة من يده قائلا :

ـ كلا ، ما من شكليات · أننا جميعا اصدقاء ، أليس كذلك كورنى ؟

فقالت مستر فيردون باقتضاب :

ـ هذا ما ارجوه ·

وضحك الجميع لقوله هذا · ثم اتخذ ايدى له مقعدا الى جانب زاريا قائلا :

ـ أرجو أن تصغى الى · حينما قلت لك بالامس ان كورنى قد قرر أن يعيدك أنت وخطيبتك الى وطنكما لانه رأى انه من الظلم ان تعملى فى هذه الفترة بالذات من حياتك ، كان فى قرارة هذا مجردا من الانانية · وهذا ما عدناه دائما من كورنى أليس هذا صحيحا ، كورنى ؟

ـ أننى ارجو ان يكون رأيكم فى هكذا · وفى الواقع ان هذا ما أحاول أن أكونه فعلا . ان الكثيرين من الاقرياء يغفلون عن تقدير ظروف غيرهم ممن هم أقل منهم حظا ·

وكان يتحدث فى وقار ، لم تختلج فى وجهه خالجة · غير ان زاريا شعرت بأنه لم يكن لهذه الكلمات وقعها المناسب فى نفسها · ولم تصدق انه اتخذ قراره السابق لمصلحتها ، لانه استغنى عن خدماتها بعد توقعه حضور أحمد وانضمامه لهم ·

وأستطرد ايدى مورجان معقبا :

ـ هذا هو كورنى · غير انه وضع نفسه فى مازق بقراره هذا · فقد حدث أن تخلف صديق كنا نترقب قدومه صحبة مدام بيرتان ، لظروف خارجة عن ارادتنا · وفى الواقع ، أنه اعتراه مرض مفاجىء قد يعوقه عن الانضمام الينا · ولذلك سنسألك أن تكونى واسعة الصدر وتنسى ما سبق أن عرضته عليك بالامس · وبدلا من العودة الى لندن صحبة خطيبك ، نرجوك أن تبقى معنا !

فانبرى مستر فيردون يقول :

ـ سنكون شاكرين لمس براون التزامها بالاتفاق الاصلى ·

ـ وماذا عن مستر تانير ؟

وسبق لسانها عقلها بهذا السؤال · ولم تفتها تلك النظرة المتبادلة بين ايدى وفيكتور قبل أن يجيبها الاول :

ـ أينما تذهبين ، يذهب مستر تانير ! هذا ما اتفقنا عليه ، أليس كذلك ؟ أن هذه النقطة ليست موضع خلاف بيننا · يسرنا أن يكون معنا · أليس كذلك ، كورنى ؟

ـ بكل تأكيد · انه لمن دواعي سرورنا أن ينضم مستر تانير الينا طالما كانت هذه مشيئة ·

ـ اذن ، فقد انتهينا من تسوية الامور · شكرا لك ، أى زاريا ، لما بدا منك من روح طيبة · والان فلنشرب نخب هذا التفاهم الشامل · ماذا تقولين فى هذا ، أى لولو ؟

فأجابت مدام بيرتان ، وهى تلقى نظرة على كأسها الفارغ :

ـ لا باس من كأس آخر ·

ورفع أيدى مورجان صوته ينادى المشرف. واقبل جيم يحمل زجاجة من الويسكى فوق صينية من الفضة ، ومعها عدة كؤوس · وأمره ايدى مورجان أن يضع الصينية فوق المنضدة قائلا :

ـ هل يريد أحد منكم شيئا آخر ؟ زاريا ، ماذا تريدين ؟

وأسرع جيم بقوله قبل أن تجيب زاريا :

ـ لقد أعددت قدحا من الحساء لمس براون · سأعود به فورا ·

فقال فيكتور :

ـ حساء ! انها بحاجة الى ما ينعشها ويجرى الدماء فى عروقها ·

فعقبت زاريا بقولها :

– أنه يريد بمحاولته أن يزيد من وزنى ·
فانبرت مدام بيرتان قائلة بصوت مرتفع :
– كلا ، كلا · هذا ما لا يجب أن يكون · أنك سعيدة الحظ بقوامك هذا · أننى أتبع نظاما خاصا للتغذية منذ شهر يناير ، وهذه هى النتيجة لم أوفق فى انقاص وزنى بأكثر من ثلاثة ارطال ·

فقال لها ايدى :

– لولو ، ما أظنك هابطة بوزنك الى أقل مما أنت عليه · أنك تكثرين من الشراب ومن خير المتذوقين للطعام الجيد ·

– هذا هو شأنكم معشر الامريكيين · لو كنت فرنسيا لقلت أننى فى أحسن صورة لا يعيبنى شىء ·
– لا تصدقى هؤلاء القوم فى شىء مما يقولون ·
وصب ايدى لها كأسا من الويسكى ، ثم ناولها اياه · وكانت مدام بيرمان سريعة البديهة فى ردها ، مما أثار ضحك الجميع · غير أن زاريا كانت منصرفة عنهم · وكانت تحاول أن تتمثل فى ذهنها تلك الصورة التى أمضتها ، بعد أن شاهدت كلا من كيت وتشاك مستغرقين فى حديثهما لاهين عن كل ما حولهما · ترى ، فيم كانا يتحدثان ؟ وبماذا كانت تحدثه كيت ؟

وشعرت بغصة تكاد أن تخنق أنفاسها · أن كيت فتاة بارعة الحسن ، خبيرة بالرجال – تعرف كيف تغريهم ، وكيف تفتنهم · ان كيت بكل ما فيها من جمال ، واناقة ، وبهاء ، ودلال ، بمثابة صورة حية لما ينشر فى المجلات من هذا القبيل · صورة تفيض حيوية وتفيض أنوثة ، بما من شأنه أن يأسر الالباب ، مهما يكن من أمر تفاهة ما يصدر عنها وما تتحدث به ·

لماذا لم تلمس من ايدى مورجان اية بادرة من بوادر الغيرة ؟ واستدارت اليه تتابع حديثه مع مدام بيرتان ٠ واستبانت فيه لاول مرة انه رجل قبيح ، قاسى الملامح ٠ أن ثمة ما يصرفه عن فتاته التى تغازل رجلا آخر فى الطرف الاخر من اليخت ٠

وسمعت وقع خطوات قادمة ٠ غير انها حينما استدارت فى لهفة ، لم يكن القادم سوى جيم حاملا اليها حساءها ، وهو يقول :

ـ مع تحيات الطاهى ، الذى يتناوله ساخنا ، لتتحقق فائدته ٠

فابتسمت زاريا تشكره ، وتحمله شكرها للطاهى ٠ وبعد أن اطمأن جيم على تذوقها للحساء أعلن للحاضرين أن طعام الغذاء معد ٠ ونهض ايدى مورجان قائلا :

ـ هيا بنا ٠ ما أظن الا أن لولو تتعجل هذه الساعة ٠ أين يا ترى سائر الجماعة ؟

فقال جيم :

ـ لقد قمت باعلان كل من مس هانوفر ومستر تانير ٠

وبمجرد أن انتهى من قوله هذا ، أقبل كل من كيت وتشاك ٠ وبادرتهم كيت متسائلة :

ـ ألم تحتفظوا لى بكأس ؟

فأجابها مستر فيردون :

ـ كلا ، وليس لك الحق فى ذلك لتأخرك ٠ هيا بنا قبل أن تسوء حالة الطقس ثانية وتحول بيننا وبين وجباتنا ٠

فأردفت كيت قائلة :

ـ حقا ! لولو ، لا يمكن أن أصف لك مدى ما ساءت به حالة الطقس وما عانيناه من قسوته ٠

وتأبطت ذراع مدام بيرتان فى طريقهما الى قاعة الطعام ٠ والتفتت زاريا تتطلع الى تشاك الذى ابتسم

لها ، وأن كانت قد خيل اليها أن ابتسامته ينقصها تلك الحرارة التى ألفتها منه .

وكان طعام الغذاء شهيا ، وان لم تتناول منه زاريا سوي النزر اليسير . لقد كانت تشعر بأنها لم تعد تدرى من أمر نفسها شيئا ، بعد ما كان أثناء جلوسهم الى المائدة من اطاعة تشاك لما أمرته به كيت من أن يتخذ مقعدا له الى جانبها ، تاركا زاريا لتجلس الى يمين فيكتور ، فى المقعد الذى كان خاليا .

وكانت مدام بيرتان تجلس بين مستر فيردون ومستر مورجان تحكى لهما ما صادفته من مشقة فى حمل حقائبها الى السيارتين .

ودار الحديث حول ما حملته معها من ثياب ، بناء على سؤال من كيت .

وأصغت زاريا الى ما راحت مدام بيرتان تسرده على الاسماع ، والى ما دار بينها وبين كيت من جدل حول الفرق بين أذواق الفرنسيات والامريكيات ، وماراحت تدلل به مدام بيرتان من أن للثياب ، ولاناقة المرأة ، واتقانها لزينتها ، أثر أيما أثر فى بهاء المرأة وفتنتها ، على أن تعرف كيف تبرز محاسن جسدها .

وتطور الجدل لينقل الى مرحلة التحدى . وتدخل فيه ايدى وفيكتور كل برأى . وانتهى الامر الى ما يشبه المنافسة بين الفرنسيين والامريكيين ، وتحمست مدام بيرتان لجنسها ، ولفنها من أن الذوق السليم ، والثياب المناسبة هى كل شىء ، كما تحدتها كيت بأن للجمال المرتبة الاولى ، ومن بعده تأتى الثياب التى تزهو بها الفرنسيات .

وتدخل تشاك فى المناقشة قائلا :

ـ بودى لو رايت هذا التحدى يوضع موضع التنفيذ · وان كنت لا يعنينى أن أكون الحكم ·

فقالت كيت ، وقد ومضت عيناها :

ـ بل انك ستكونه · ستجلسون جميعا مجلس القضاة · أنت ، وكورنى ، وايدى ، وفيكتور ·

فانبرى فيكتور مستفسرا :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ سنجرى المنافسة هنا والان · سأرتدى من الثياب احسن ما عندى الليلة · وأنت لولو ! اليك نموذجك · ولتبذلى أقصى ما فى وسعك تدليلا على وجهة نظرك ·

ولفرط دهشة زاريا وجدت أن كيت تومىء اليها عبر المائدة ، وقد اتقدت عيناها خبثا وهى تستطرد قائلة :

ـ ها هى امامك · وليس عليك سوى أن تجعلى منها دليلا على صدق ما تزعمين ، وأن تجعلى من مس براون فتاة جميلة تشع حسنا وبهاء ·

فأسرعت زاريا معترضة :

ـ كلا ! كلا ، لست أريد الاشتراك فى شىء من هذا القبيل ·

فقال لها فيكتور :

هونى عليك · ان هذا كله سوى وسيلة للترفيه وقضاء الوقت دعى الفرصة للولو ، فعساها أن تفلح · ماذا ترين فى ذلك ، لولو ؟

وشعرت زاريا بعينى مدام بيرتان تصيدها بنظراتها فحصا ، وتأكلا وخيل الى زاريا انها بعينها النفاذتين تكاد أن تكشف عن كل شىء فيها ، تقييما وتصويرا · ثم سمعت مدام بيرتان تقول ، لفرط دهشتها :

ـ حسنا ! قبلت التحدى · أننى لا أتراجع فيما أقول ·

ما هو الرهان ؟

فأجابها ايدى :

ـ مائة دولار ؟ مائتان ؟

ـ بل خمسمائة دولار . هذا ما يساويه التحدى فى تقديرى . وثمة شرط اخر ـ اذا اريد أن يكون التصويت سريا ، فلا يعرف أحد ماذا أدلى به الاخر ، ولمن كان صوته .

فقال ايدى :

ـ اتفقنا . ولن أجامل أحدا ، أو أخدع نفسى .

فعقبت كيت قائلة :

ـ اذا أدليت بصوتك ضدى ، فلسوف أقتلك . وهذا التهديد موجه اليك أنت الاخر . تشاك .

ورنت بعينيها الى تشاك ، بما لم يغفل عنه احد من الجالسين الى المائدة . واردف تشاك قائلا :

ـ سأكون محايدا أسوة بمستر مورجان .

وانبرت زاريا تعيد اعتذارها قائلة :

ـ ارجوكم ! أننى أرفض الاشتراك فى هذه المسابقة .

فقالت لها كيت :

ـ لا عليك . أننى اريد مبررا لارتداء افخر ما عندى من ثياب . كما اننا ستتاح لنا فرصة لالقاء نظرة على بعض ما جاءت به لولو .

وراحت مدام بيرتان تحدج زاريا ثانية بنظراتها . فقالت :

ـ أفضل عدم التعرض لمثل هذه التجربة .

ثم تطلعت زاريا الى حيث يجلس عبر المائدة ، وكأنها تسأله ان يخف لنجدتها . ولكنه لم يفعل أكثر من أن يبتسم قائلا :

ـ أن مدام بيرتان لها شهرتها التى تجعل كل فتاة

ترقص طربا أن تهيأت لها هذه الفرصة ·

انهم جميعا ضدها · وها هى لا تجد لها مخرجا من هذا المأزق · ورفع فيكتور كاسه يعلن الوفاق الشامل للبدء بالتجربة · وشعرت زاريا بالرغبة فى البكاء ، حنقا وأسى · لقد تبدد حلمها الجميل بأن ثمة من يقف الى جانبها ويشد من أزرها · أو تراها قد فقدت تشاك الى الابد · لقد انتزعته كيت منها ولما ستعد بعد بحلمها وبذاك الطور الجديد من حياتها · ونهضت مدام بيرتان قائلة :

ـ الى العمل ! وسوف انصرف الان لاعد العدة لما سأفاجئكم به الليلة ، ويحملكم على أن تشهدوا لى بالبراعة والتفوق !

فضحكت كيت وهى تقول :

ـ فلندع الحكم لما بعد المعاينة · لولو بيرتان ، احب أن تدركى أمرا واحدا ـ أننى لا أخشى شيئا ·

واستدارت الى تشاك مستطردة :

ـ هل يعتقد أن ثمة ما أخشاه ؟

وضاقت زاريا ذرعا بكل ما تسمع وترى · وكانت تريد أن تصيح فى وجه تشاك ، لتنقل اليه ما استمعت اليه هذا الصباح ـ من لهجة التهديد فى صوت ايدى · ثم تبادر الى ذهنها انه قد لا يصدق شيئا مما تقول · لقد تغيرت الامور وتبدلت الاحوال منذ الامس · وقد يحمل قولها محمل الغيرة · وقد يسخر من خيالها الواسع · وسمعت مدام بيرتان تقول لها ، فى لهجة شبه آمره :

ـ زاريا ، هلمى بنا ! أن لدينا الكثير مما يجب أن نفرغ له · ولسوف تقيم الدليل لهؤلاء السذج على أنهم بالرغم مما يخيل اليهم من الملم بكل شىء فى هذا العالم ،

لا يعرفون شيئا عن النساء · هيا بنا !

وغادرت قاعة الطعام ، وتبعتها زاريا لا تلوى على شيء · ولم تكلف نفسها عناء الالتفات الى تشاك ، لانها رات آلا جدوى من هذا · واتجها معا الى غرفة مدام بيرتان الفسيحة الأرجاء ، التى ينقصها شيء — وقالت لها مدام بيرتان وهى توصد باب الغرفة :

ـ اجلسى ، ودعينى أتفرس فيك مليا ·

ـ مدام ، أرجو له ، لقد تجاوز هذا الامر كل حد · دعينى أنصرف الى غرفتى مدعية المرض · أننى ان مضيت فى هذا ، سوف أخذلك · اذ لن يكون لديك الفرصة لكسب الرهان ·

ـ لماذا تقولين ذلك : ألا تؤمنين بان الثياب يمكن أن تنتقل بالمرأة من حال الى حال ؟

ـ هذا ممكن ، بشرط أن يكون لدى المرأة نقطة تبدأ منها · ولكنك خير من يستطيع ادراك حقيقة أمرى ·

وكانت تنطق بذلك فى تخاذل وضعف · فابتسمت مدام بيرتان ، وأخرجت سيجارة راحت تدخنها قائلة :

أن عينى لا تغفلان عن شيء · أنك أنت من صنعت هذا بنفسك أكثر مما يمكن أن يسيء به المرض اليك · انك بادية النحافة حقا ، غير انه لا يوجد ما يعيب قوامك · والان ، دعينى أدرس كل ما فيك ·

وتضرعت زاريا اليها قائلة :

ـ ارجوك أن تصغى الى · انك ستجعلين منى اضحوكة ! فمهما يكن من روعة ثيابك ـ وأنا واثقة من هذا ـ فاننى سأسيء اليها · اذ لا خبرة لى بارتداء الثياب ، ولست أعرف شيئا عما يجب أن تتزين به

النساء · أن كل ما أعرفه عن نفسى أننى زرية الهيئة · لقد فعل بى المرض وقسوة الحياة ما صار بى الى هذا الحطام المائل بين يديك .

فرفعت مدام بيرتان يديها فى ياس وبرم صائحة :

ـ او يمكن لفتاة ان تقول هذا ؟ رباه ! واها لبلاهتك ! أنك فتاة فى مقتبل العمر ، وأمامك حياة بأسرها ! ويجب أن تكونى كصندوق من الحلوى ؟ او لابد أو يجب أن تكونى كصندوق من الحلوى؟ أولا لابد ان تكونى نسخة طبق الاصل من كيت ؟ اليس لها عينان ، وشعر ، وشفتان ؟ دعك من كل ما عدا هذا · ولتذكرى ان لك قلبا يخفق ، وأنفاسا تتردد

ـ فى الحق ، أننى لا اعى شيئا مما تقولين ·

غير أن عينى زاريا كانتا تومضان بما يفهم منه انها قد بدات تحاول أن تستجيب لما تناشدها به مدام بيرتان ·

وبادرتها مدام بيرتان قائلة فى رقة :

ـ لقد كنت اتابع حركاتك وسكناتك · هل احدثك بما من شأنه أن يكون خير عون لنا ؟

فتسألها زاريا :

ـ أجل ! وما عساه ان يكون ؟

فابتسمت مدام بيرتان قائلة :

ـ يا صغيرتى ، أنك مدلهة فى الحب !

الفصل السابع

مضيت لحظة خيل الى زاريا فيها أن كل شيء قد توقف عن الحياة · وراحت تحملق فى مدام بيرتان ، ثم سرعان ما تبادر الى ذهنها خاطر خطبتها الى تشاك ! كيف أنسيت هذا ! انه ما يعرفه الجميع عنهما · وبعد أن استعادت رباطة جاشها قالت :

ـ بكل تأكيد · لقد تفضل مستر فيردون فأذن لى باصطحاب خطيبى ·

فضحكت مدام بيرتان قائلة :

ـ ليس هذا ما أعنى · أن الخطبة والزواج شيء ، والحب شيء آخر . فليس من المتعـين أن تكون الفتاة مدلهة فى حب زوجها أو خطيبها · يا صغيرتى ، انك مغرمة برجلك !

وأدركت زاريا حقيقة أمرها · انها تحب ! هذا هو الحق ، الذى حاولت جاهدة الا تؤمن به انهـا تحب تشاك ! هذا الرجل الذى لا تعرف عنه شيئا ، والذى التقت به فى ظروف غامضة غير عادية ومع ذلك ، فقد وقعت فى حب هذا الرجل ! وأدركت ، فى تلك اللحظة ، السر فيما كانت تشعر به من أمن حينما يكون قريبا منها ، ومن ضيق حينما يكون بعيدا عنها ، ومن يأس وشقاء

حينما كانت تراه يبتسم لكيت ويتجاذب معها أطراف الحديث · وسمعت مدام بيرتان تقول لها ، وكأنها قرأت ما يجول فى خاطرها :

– حسنا ، فقد بدأت تدركين حقيقة الامور · أن فى وسع كل فتاة أن تبدو جميلة · أنه القلب · وجمال النفس الذى ييسر للنساء ذلك ، وليست ملامح الوجه فقط · أن فى مقدورنا أن نخلق الجمال ، اذا ما أردنا هذا بعزم صادق ·

وحاولت زاريا جاهدة أن تستبعد من ذهنها ذاك الخاطر الجديد الذى أثار مشاعرها وجعلها تشعر بان ساقيها لاتقويان على حملها وبأن اوصالها ترتعد · فانبرت تقول :

– سيدتى ، أننى عاجزة عن ايفائك حقك من الشكر ، وان كنت ارى انك اضطلعت بعمل المستحيل · وانه ليهمنى أن أكون السبب فى خسارة بعض مالك ·

– ولكننى لن أخسر شيئا · اننى بحاجة ماسة الى الخمسمائة دولار · هيا بنا ، لاريك كيف سنفوز بالمبلغ

وضحكت زاريا ضحكة كانت أقرب ما تكون للنحيب . وهى تقول :

– بى كنموذج للرهان ! لابد وانك قد جانبك الصواب · كيف يمكن أن أقف موقف الند من كيت ، بقوامها اللدن ، ووجهها الجميل ، وثيابها الانيقة ؟

– فيم هذا التشاؤم ؟ ولماذا لاتثقين بما اؤكده لك ؟ الا تعرفين أن من تتحدث اليك هى لولو بيرتان ، المشهود لها بأنها من أحسن مصممات الازياء فى باريس ؟ أن لى كلمة مسموعة فى عالم الازياء · وحينما أقول اننى سأفوز

بهذا الرهان ، فأنني فائزة به · كل ما أسألك اياه ، هو الايمان بى وبقدرتى ·

ودار بخلد زاريا أنه بودها لو صدقتها فيما تقول · لئن تحقق ما تزعمه مدام بيرتان ، فقد يحدو هذا بتشالك أن يعجب بها ، ثم يحبها . وكادت أن تطلق ضحكة لهذا الخاطر من الوهم الذىيقوم على غير اساس من العقل والمنطق · وسمعت مدام بيرتان تستطرد منفعلة :

ـ يجب عليك أنتثقى بى !يجب عليكأن تسلمىنفسك لى !

ـ بودىلو صدقتك ·وهذا ماأريده فعلا · وهل يمكن لفتاة مثلى ألا تنتهز هذه الفرصة .. فرصة العمر ؟

واسترسلت مدام بيرتان فى حديث هادىء ، صادر من أعماق نفسها ، وهى تحاول أن تقنعها بأن هذا القنوط الذى يستبد بها لا مبرر له · ثم اختتمت حديثها بما يشبه الصيحة قائلة :

ـ دعينى أسرع بالتجربة قبل أن ينسينى يأسك ما استقر عليه رأيى من خطة للعمل · فلتخلعى ثيابك تلك الثياب البشعة ! وارتدى هذا القميص الفضفاض مؤقتا ·

وألقت اليها مدام بيرتان بالقميص ، ثم أسرعت الى احدى الحقائب تفتحها لتخرج منها خفا ألقت به اليها أيضا · ثم تبينت مدام بيرتان أن هذه الحقيبة ليست بالتى تحوى ماتريده من حاجيات · فهرعت الى الدهليز تنادى المشرف بأعلى صوتها ·

وسمعت زاريا وقع أقدام جيم يسرع تلبية للنداء ، ثم سمعت من وقع أقدامهما ما يدل على توجههما الى غرفة كيت المجاورة ، بحثا عن الحقيبة المعنية ·

واتجهت زاريا على مهل لتجلس أمام منضدة الزينة

تتأمل صورتها فى المرآة ، لتتحقق مما قالته مدام بيرتان ٠

انها دميمة ، ليس فى هذا من شك ٠ وهى لا يمكن أن يبلغ بها غباؤها حد خداعها لنفسها ولايمكن لتشاك ان يجد فيها جمال ما وجده فى كيت ٠ هذا هو قدرها ـ أن بذلك ٠

ودار بخلدها أنها لم تجد فرصة لتحيط تشاك علما بما سمعته خلسة من حديث بين كل من أيدى وفيكتور ٠ وشعرت بأنه يجب عليها أن تتحين هذه الفرصة التى تخلو به فيها لتكاشفه بما توصلت اليه من حقيقة أمر هؤلاء القوم ٠

وكانت بسبيل أن تنهض بحثا عنه ، حينما فتح الباب على مصراعيه ليدخل منه جيم حاملا لحقيبة كبيرة الحجم ، وفى اعقابه مدام بيرتا تحمل أخرى صغيرة ٠ وبادرتها مدام بيرتان قائلة :

ـ لقد عثرت بما أريد ٠ شكرا لك أيها المشرف ٠

وغادر جيم الغرفة بعد أن ابتسم لزاريا ابتسامة لها مغزاها ٠ وفتحت مدام بيرتان الحقيبة الكبيرة تلقى نظرة على ما بها قائلة :

ـ حسنا ! ان بها كل ما أبغى ٠ والان ، لدينا الكثير قبل أن نبلغ مرحلة الثياب ٠

ـ ترى ماذا عساه أن يكون هذا الكثير ؟

ـ ولم تجب مدام بيرتان بأكثر من التقاط مشط راحت تمشط به شعر زاريا قائلة :

ـ أن الانجليز لا يحسنون فن التسريح !

ـ ان من قام بهذا رجل فرنسى ٠

ـ أن الفرنسى الذى يقيم بانجلترا يفقد براعته ، أن الشعر هو اطار الوجه ، يجب أن يكون متسقا معه . أن

هذه التموجات لا تتفق مع طبيعة وجهك ٠
ـ أنت أدرى ٠
ـ بكل تأكيد ٠ لقد درست فن التسريح على يد انطوان ٠ وبديهى انك لا تعرفين من عساه أن يكون انطوان ٠ انه ملك هذا الفن الذى لا يجارى ٠ ولقد تعلمت منه الكثير من خباياه وأصوله ٠ ان شعر المرأة جزء لا يتجزأ من زينتها واناقتها . بل وانه من الأهمية بمكان لانه أول ما يستلفت الانظار منها ٠ لقد كان يحز فى نفسى ان وجدتك ضعيفة الثقة بى ٠ دعينا من هذا ! فليس لدينا متسع من الوقت نقضيه فى الكلام ٠
فسألتها زاريا فى عصبية بادية :
ـ وماذا تراك فاعلة ؟
ـ سأعد شعرك كما يجب أن يكون ٠
وتناولت مقصا من أحد الادراج وشرعت تجرى به بين خصلات شعرها ٠ فصرخت زاريا قائلة فى استنكار :
ـ ماذا تفعلين ؟
ـ كما ترين ٠ أننى أعده بالكيفية التى تناسبك ٠ أرجو أن تكفى عن الاعتراض ، وأن تتحلى بالصبر الى أن أفرغ من عملى ٠
ولم تجد زاريا بدا من أن تمتثل لما تأمرها به ، رضوخ من لا حول له ولا قوة ٠ وربما كانت مدام بيرتان أكثر دراية منها ، غير مبالغة فى كل ما تقول ٠ ونسيت زاريا كل شىء مما حدثتها به مدام بيرتان ومما تجريه فى شعرها ٠ وانتقلت بخواطرها الى تشاك ، متسائلة عما يفعله فى تلك اللحظة ، وقد اعتصر قلبها خاطر أن يكون فى صحبة كيت ، واقعا تحت تأثير ابتساماتها ونظراتها ٠
وبدأت تستعرض فى ذهنها كل ما كان بينهما من لمسات الحنان ، وكيف كان يحدب عليها ويعنى بأمرها ٠

أنه لم يشعرها لحظة بانها دميمة ، منفرة ، او بانها أقل جمالا من غيرها ·

وشعرت بغصة فى حلقها وهى تستعرض هذا الجانب الجميل من ذكرياتها ، وكيف كان يهتم بصحبتها وبضرورة أن تنال قسطها من الراحة ، وكيف كان يخشى عليها من برودة الطقس ويجيئها بما تدثر به ساقيها · لقد كان هذا بالامس فقط !

ورفعت زاريا عينيها الى المرآة لترى مدام بيرتان تحدث النظر فيها بعينيها النفاذتين · ثم تبادرها بقولها :

ـ أنك تكابدين من شيء ، أى صغيرتى ، فماذا عساه أن يكون ؟ أو تخشين أن تخضع كيت خطيبك لاغرائها ؟ هونى عليك · انه سرعان ما سيكتشف حقيقة أمرها ـ عقلية الطيور ، وجسد الحيوانات لان الخالق قد نسى أن يهبها عقلا ، وقلبا ، كسائر الادميين ·

ـ وهل أتيح لك أن تعرفينها على حقيقتها ؟

فضحكت مدام بيرتان ضحكة لها معناها قائلة :

ـ كل المعرفة ·

ـ كنت اعتقد انهم جميعا ·· اصدقاء مقربون اليك ·

وعادت مدام بيرتان لتضحك ثانية ، وهى تقول :

ـ يقولون أن المرء يولد بما قدر له من اقارب ، أما اصدقاؤه فهو الذى يتولى اختيارهم · وهذا القول لا يصح أحيانا · فقد يحدث أن يفرض على المرء اصدقاؤه، أيضا ·

ولم تعقب زاريا بشيء · وراحت تستعرض الامور فى ذهنها · لقد استطاع كل من ايدى مورجان وفيكتور جاكوبيتى أن يزجا بمدام بيرتان فى مؤامراتهما ؟ لقد كانت واثقة من هذا ، وان رات انه يحس بها ان تلتزم

جانب الحذر ، وأن تحرص على الا يصدر عنها ما ينم عن شكوكها ، ويكشف لمدام بيرتان عن دخيلة أمـرها ·
وغيرت مدام بيرتان مجرى الحديث قائلة :
ـ الحب ! أنه سر النواة من سر الوجـود · أن جميع النساء تسعين اليه ، ولا غنى لهن عنه حتى من كن فى مثل سنى ! انه عظيم ! رائع ! أخاذ ! اليس كذلك ؟
ـ لم تمتد بى تجربته بعد ··
ـ الم تطل بكما فترة الخطوبة ؟ ·· هذا ما يبدو لى ان أمامك الكثير مما لم يتح لك ادراكه بعد دعينى أشير عليك بشىء يجب الا تدعيه مطمئنا ، دائما ، الى حبك له · يجب أن تلتزمى بعنصر المفاجأة فى حياتك معه · التغيير فى القول،والتغيير فى المبدأ والبعد عن أسلوب الوتيرة الواحدة ، من العناصر الهامة المجددة للحب ، وللحياة ، وللمشاعر المتبادلة بصفة عامة ·
وكانت قد فرغت من عقص شعر زاريا ، فألقت بالمقص جانبا ، وهى تقول مزهوة :
ـ اليك البعض مما وعدتك به ، كخطوة اولى ·
وتأملت زاريا صورتها فى المرآة ، وقد استبدت بها الدهشة المقترنة بالاعجاب · يا له من بون شاسع ! يا لجمال تلك الهالة التى تحيط برأسها وتتوج وجهها · انها تشد الابصار فتقلق بها لتغفل ما يعيب الوجه من عظام بارزة ومن خطوط حادة · ولم تجد زاريا بدا من أن تجهر بقولها :
ـ انه ·· انه لعمل رائع ! لقد بدوت · أحسن بكثير ·
فابتسمت مدام بيرتان ابتسامة الرضا معقبة :
ـ بكل تأكيد · ارفعى مرآة اليد لتلقى بنظرة جانبية ·

أرأيت كيف تبدى الاتساق بين العنق وبين الرأس ؟ هذه هى مقاييس الجمال ! هذا هو السحر الاخاذ بعينه !

وقالت زاريا غير مصدقة لما تراه عيناها :

– اننى أبدو كفتاة أخرى ٠٠ تختلف عنى تماما ٠

– اننا لم نتجاوز بعد المرحلة الاولى ، فما بالك اذا مضيت قدما فيما أريد انجازه ٠ ثمة الكثير مما يجب أن استكمله ٠ فلتستلق فوق الفراش ، فى وضع عكسى ، فتضعين قدميك حيث يجب أن تكون الرأس ، ورأسك حيث يجب أن تكون القدمان ٠

وصدعت زاريا بما أمرت به ٠ وشرعت مدام بيرتان فى تنفيذ المرحلة الثانية من عملها ولاول مرة فى حياتها تعرف زاريا ما هو تدليك الوجه ٠ وكانت تشعر بأصابع مدام بيرتان وهى تجرى بهما على بشرة وجهها الجافة ، محاولة أن تنفذ بزبدتها المعطرة الى مسام جلدها المشدود ٠

وبعد قليل شعرت بالرغبة فى النوم ٠ واغمضت عينيها ،، ولم تعد تسمع سوى صوت الضربات اللطيفة ليدى مدام بيرتان الناعمة ، مختلطة بأصوات المحركات وتلاطم الأمواج البعيدة . لقد كان كل شىء باعثا على الشعور بالهدوء والاسترخاء ٠

وبدأت جولتها فى أرض الاحلام ٠ ولم تكن كتلك الاحلام المفزعة ، الرهيبة ، التى كانت تنتابها فى اسكتلندا ، بل كانت أحلاما هادئة ، هانئة ، سعيدة ٠ ورأت فيما يرى النائم تشاك الى جانبها ، يطوقها بذراعه ، ويهمس فى أذنيها بكلماته ٠٠



ولم تعرف كم من الوقت مضى وهى نائمة · واستيقظت فجأة لتدرك من السكون المخيم أنها كانت بمفـــردها . وحاولت أن تفتح عينيها ، غير أنها وجدت قطعا من القطن تثقل جفنيها · وكان وجهها مغطى بطبقة من الزبد المعطر ·

وكانت لا تدرى ما اذا كانت مدام بيرتان قد فرغت من عملها وانه لا يوجد ما يضطرها الى الرقاد أم أنها يجب أن تظل مستلقية فى مكانها ؟ وبينما كانت تتساءل عن ذلك ، فتح الباب وسمعت مدام بيرتان تقول فى صوت خفيض :

ـ أنها لم تزل نائمة ·

ـ وماذا عن الرهان ؟

وكان الصوت صوت ايدى مورجان ، الذى كان هو الاخر يتحدث فى همس · واجابته مدام بيرتان :

ـ هون عليك · أن علينا أن نتشاغل بشىء الى أن نصل · انكم جميعا ـ كما يقولون ـ عصبيون أو قل متوترو الاعصاب ·

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أعنى ما قلته · ولتأخذ حذرك من المشرف · قد يكون السبب فى احتجاز أحمد عند الحدود ، انه أسرف فى الكلام بأكثر مما يجب ·

ـ الم تقولى بأنها وقف لان اوراقه كانت مزورة ؟

ـ بلى · ولكن من الذى نبه أذهان الموظفين بما كان من شأنه ان جعلهم يمعنون النظر فى اوراقه ؟ فلم لم يحدث شىء من هذا القبيل لكان قد عبر الحدود فى سلام ·

ـ وهل أنت واثقة من ان أحدا لم يتعقبك ؟

وكانت لهجة ايدى مورجان مشوبة بنبرة قلق ولهفة · واجابته مدام بيرتان :

– وهل كنت تجدنى هنا ، لو صح شىء من هذا القبيل ؟
– كل ، بداهة ·

وبدت لهجة ايدى أقل لهفة ، قبل أن تقول له مدام بيرتان :

– دعك من الشراب فى هذه الأيام ، وانصرف الى التفكير فيما هو اجدى ·
– صه !

ودفع بها الى داخل الغرفة بعيدة عن بابها قائلا فى حدة :

– أو تريدين أن يسمع الجميع حديثنا ؟ وانى لك تلك الثقة بأن الفتاة نائمة ؟

– لان أسلوب تدليكى هو الذى يجعلهن يستغرقن فى النوم · كما انها كانت جد متعبة ، ومنهوكة القوى ·
– ان وجودها معنا سيكون مصدر ضيق لنا · ولكننا مضطرون الى خدماتها . ان أحدا منا لا يلم باللغـة العربية ·

– لقد بذلت أقصى ما فى وسعى · ولم أكن مسئولة عن القبض على أحمد ·

– قد ترجع هذه المتاعب الى حادث سيارة العام الماضى ، فيما أعتقد · لقد كان من رايى أنه من الخطأ استخدامه فى عملية صغيرة لا أهمية لها · ولكننى لم أجد من يستمع الى ·

– رويدك الا تكثر من هذا الحديث ولا ترفع به صوتك ·

وخطت عبر الغرفة تقترب من الفراش · وراحت تصيخ السمع لعلها أن تتبين حركة أو صوتا يصدر عن زاريا · وكانت زاريا قد بدأت تشعر بالخوف منذ أن فتح

باب غرفتها . ترى ماذا هم فاعلون بها اذا ما تبادر الى ذهن احد منهم أنها لم تكن نائمة ، وانها قد استمعت خلسة لطرف من هذا الحديث ؟

وحاولت جاهدة أن تتقن تمثيل دور المستغرق فى النوم وكانت تشعر برغبة جامحة فى أن تفتح عينيها . اذ كانت تشعر بوجود مدام بيرتان بجوار فراشها ، تتأملها وتتفرس فيها ومن ورائها ، كان ايدى مورجان واقفا يتابع ويترقب . ايدى الذى تعرف عنه زاريا مدى قسوته ومجردة من كل رحمة اذا ما اعترض طريقه احد ، او رأى فيه خطرا يتهدد خططه ..

وسمعته يهمس قائلا :

ـ انها مستغرقة فى النوم .

ـ كل الاستغراق . غير انك يجب أن تغادر الغرفة فورا .

فأطاعها صاغرا دون أن يعقب بشىء . وسمعت زاريا باب الغرفة يوصد ، وكانت مدام بيرتان ما زالت واقفة فى مكانها ملتزمة جانب الصمت . وأخيرا ، وفى صوت هادىء ، سألتها :

ـ هل استيقظت من نومك ؟

ولما لم تجبها زاريا ، عادت تردد فى صوت مرتفع :

ـ زاريا ، هل استيقظت من نومك ؟

وفى حركة بطيئة ، وحرصا منها على اتقان دورها ، بدأت زاريا تنفض عنها ثوب النعاس وكأنها كانت فى سبات عميق .

وادركت زاريا من اتقانها لدورها ، وبدون أن تفتح عينيها ، أن مدام بيرتان قد هدأت نفسها وزال عنها توتر اعصابها . وأن المرأة الفرنسية قد اقتنعت بأنها لم تكن

مستيقظة • ثم سمعتها تناديها فى صوت أكثر رقة :
– هيا ، يا صغيرتى ، لقد آن الاوان لتستيقظى »



وبعد ساعتين ، فتحت مدام بيرتان باب قاعة الطعام حيث كان يجلس سائر الجماعة فى انتظار الطعام العشاء • وكانوا جميعا عاكفين ، على الشراب ، كما كان شأنهم منذ حلول المساء • وكان تشاك جالسا فوق المسند الجانبى لمقعد كيت ، التى كانت ممسكة بكأس من الشمبانيا ، رفعته مقطبة وهى تقول :

– والان ، سوف نرى ما نتحرق شوقا الى رؤيته •

وكان واضحا أنها لم تكن لتشك لحظة فى النتيجة ، وانها كانت كلها ثقة فى نفسها •

وكانت ترتدى ثوب سهرة طويل ، محكم ، من الفضة المستديرة الحلقات ، جعلها تبدو اشبه ما تكون بجنية البحر الخليعة • وكان الخصر ، والامامية بحيث تكشف عما بين النهدين • وكانت تضع حول عنقها عقدا من الماس وفى اذنيها قرطان كبيران من نفس النوع • وكان شعرها الفضى الاشقر متهدلا فوق منكبيها العاريين وقد اتسق لون شفتيها مع لون أظافر يديها مع طلاء أظافر قدميها التى كانت تبدو من جواربها الشفافة ، مطلة من مقدم حذئها •

لقد كانت جميلة ، فرغلة ، صورة حية لجمال العصر الحديث الذى سخر كل مستخرج علمى ليضفى على المرأة جمالا فوق جمال •

وبادرتهم مدام بيرتان بساؤلها وهى واقفة بالباب :

– جميعكم هنا ؟

فأجابتها كيت قائلة :

ـ هذا ما تشاهدينه فعلا ·
وأردف فيكتور قائلا :
ـ أننا جميعا فى الانتظار ·
قال هذا بلسان متلعثم ينبئ عما افرط به من شراب ·
وصاحت مدام بيرتان منادية :
ـ تقدمى · اليكم هذا الجمال من صنع يد مدام بيرتان ·
ووقفت زاريا فى مكانها من الباب لاتتحرك ، عملا بأوامر مدام بيرتان · وعلى الرغم مما كانت تشعر به من حياز ورهبة ، الا انها رأت مادارت به النظرات من انهيار ، ومالهثت به الصدور من شهيق الاطجاب · وكان ايدى هو اول المعقبين · غير ان زاريا كانت منصرفة عن كل ذلك بالتطلع الى حيث يجلس تشاك ، الذى نهض واقفا وهو لايصدق ماتقع عليه عيناه · واحست بفيض من السعادة يغمر قلبها . وكان أيدى لا يفتأ يردد :
ـ ما كنت لاتوقع شيئا من هذا القبيل ! هذا ما لم يكن فى الحسبان !
بينما انبرى مستر فيردون قائلا بأسلوبه الجاد ، الهادىء :
ـ يالعبقريتك ، لولو ! لئن لم أكن واثقا من ذلك ، من قبل فلقد أصبحت مؤمنا به الان ·
ـ الى بكأس من الشراب · ما أظن الا أننى جديرة به ·
ومدت مدام بيرتان يدها الى تشاك ، الذى لم يعرها التفاتا ، لانه كان يمد يده بكأس من الشمبانيا الى زاريا ، التى تناولته منه وهى لاتدرى من أمر نفسها شيئا ·
وسمعته يقول لها :

– اعتقد انه لاحاجة لاشرب نخب صحتك . اذ سأشرب نخب مستقبلك .

وانبرت مدام بيرتان تقطع الطريق على زاريا قبل تجيب ، داعية الجميع ليشربوا نخب مستقبل زاريا ، الذ كان لها الفضل فى الاخذ بيدها اليه . ورفع الرج كؤوسهم وقد أدرك كل منهم أنهم لم يعد بهم حاجة لاقترا سرى ، كما لم يعد ثمة مجال للتساؤل عمن قدر الفوز له ودون أن يعقب ايدى بشىء ، وقد ولى ظهره لكيت ، مد ي برزمة من الأوراق المالية الى مدام بيرتان .

وصبت كيت لنفسها كأسا آخر من الشمبانيا ثم قال فى تجهم :

– وانني بدورى لارجو لزاريا المستقبل الذى ترجو لنفسها . أن للقدر مفاجأته السيئة التى لا يتوقعه الانسان .

وضحك مستر فيردون ، ولكن زاريا لم تتبين شيئا مم نطقت به كيت ، وما كانت تعنيه بذلك . لقد كانت فى شغل شاغل بوضعها الجديد . وكانت منصرفة الى التفكير فى هذا الثوب الذى أختارته لها مدام بيرتان فأضفى عليه جمالا لم تعهده فى نفسها من قبل. هذا الثوب المصنوع من الديباج القرنفلى اللون المفشى بالفضة ، المنتفخ أسفل الخصر النحيل بمتموجاته ، الموشى صدره باللؤلؤ ، والذى يصعد الى نكبيها بكثف من النسيج الشفاف الارجوانى اللون ليخفى نحافة ذراعها . وحول جيدها كانت تدلى قلادة من اللؤلؤ الوردى الذى يناسب لون بشرتها الناصعة البياض .

وكانت تبدو كفتيات الاحلام ، بريئة طاهرة ، كزهور البرارى . وكان جمالها من ذاك الجمال الروحانى ،

الغامض ـ الذى يجب أن يجد الانسان فى البحث عن خفاياه والكشف عن أسراره ٠

ولم تصدق زاريا حينما تأملت صورتها فى المرآة أنها لها ـ لمن هذا الشعر الجميل ؟ ولمن هاتان العينان اللتان نشعان حياة ؟ ولمن هاتان الشفتان القرمزيتان ؟

ولم يكن الافتتان فى تزيينها هو وحده الذى انتقل بزاريا من حال الى حال ٠ بل أنها تلك الثقة بالنفس التى اوحت بها مدام بيرتان اليها ٠ أنها تلك الكلمات التى تفيض حكمة وتوجيها التى جعلت منها زاريا التى اصبحت تشعر بأنها لا تقل شأنا ولا جمالا عن غيرها من سائر النساء ٠ وطالما رددت زاريا على سمعها :

ـ هذا مستحيل ! مستحيل !

وطالما كانت مدام بيرتان تعظها مؤنبة :

ـ دعك من الماضى ، وانسى ما عانيت منه ٠ لا اريد أن أسمع منك شيئا عما تعرضت له فى الماضى ولا أن يسمع منك سواى عن ماضيك شيئا ٠ تلك ايام ولت ومضت ٠ لا يجب أن يظل الامس حياتك ٠ انه اليوم الذى يعنيك ٠ كما يجب ألا تشغلى ذهنك بالغد ٠٠ أن الحاضر هو كل شيء بالنسبة للمرأة ، أنه اللحظة التى لن تتاح لها ثانية ٠

لقد كان لهذه الكلمات ، أكثر من غيرها ، فعل السحر فى نفسها وهى التى جعلت من زاريا تلك الفتاة التى خطت الى قاعة الطعام مرفوعة الراس ، منطلقة المحيا ٠ وقد قوى من عزيمتها خاطر أن تشاك كان بين المترقبين قدومها ـ تشاك الذى أحبته ، والذى يعيش معها حاضرها ، مهما يكن من أمر ما سيكون عليه الغد ٠

وأدركت ، كما تدرك الممثلة الواقفة تحت الاضواء ، أن جمهورها يشجعها قلبا وقالبا · ورفعت كأس الشمبانيا ترتشف منه ، ثم قالت بعد أن رأتهم يشربون نخبها :

ــ شكرا لكم · أرجو أن تتحقق لى سعادة المستقبل ، وأن كنت جد سعيدة فى هذه اللحظة ــ جد سعيدة ·

ولم تكن تدرى ما الذى حدا بها الى ترديد ماحدثته على مسامعهم ، بأكثر من أدراكها لانها كانت تتجه بحديثها الى تشاك بأسلوب غير مباشر ، وأنها كانت تريد أن تسأله شيئا ، لعله أن يدرك ما تعنيه ضمنا ·

ثم شعرت بخيبة أمل ، لانه قد خيل اليهاأنها لم توفق فيما استهدفته ، ولم يدرك ما كانت تعنيه · بل ظل واقفا حيث هو ، لا تختلج فى وجهه خالجة ، وقد حجبت عينيه عويناته السوداء ·

وفجأة جاهد فيكتور لينهض عن مقعده · وكان قد أفرط فى الشراب الى حد أفقده توازنه مما أضطره الى الاستناد بيده حيثما اتفق ، فأطاح باحدى زجاجات الويسكى ، التى تحطمت ولم يلق اليها بالا ·

وراح يردد بلسان بلسان متلعثم :

ــ لست أصدق شيئا من ذلك · أنها خدعة · أن الامور لا تجرى على مايرام · كيف تأتى لولو أن تفعل هذا بها ؟ أنها دسيسة ! لقد بعث بها لتتجسس علينا ! تلكم هى حقيقة أمرها ، صدقونى ــ أنها جاسوسة ! ·



الفصل الثامن

وكان الجميع يحدقون النظر بها ، وادركت زاريا بشعورها الغريزى أن مابدأ من نظراتهم المتأملة كان يوحى بالخطر ، الذى لا يتهددها وحدها : بل يتهدد تشاك ايضا ·

وشعرت بأنها فقدت القدرة على الحركة · ثم ، ايضـا ·

وشعرت بأنها فقدت القدرة على الحركة · ثم ، مدفوعة بحبها له ، ولانها قد أتيح لها أن تلم بالكثير عن دقة وضعه بالذات ومدى خطورته ، رأت أن تستجمع قواها لتدرأ عنه كل خطر ·

ورأت أنها يجب أن تدفع عنها ما أتهمها به فيكتور الثمل ، هذا الاتهام بدأ لها كالسيف المسلط فوق الاعناق · ولانه كان يعنيها من أمر تشاك أكثر مما يعنيها من أمرها ، ولانه مهما يكن من أمر شعوره من نحوها ، فان هذا لايدير من حبها له فى كثير او قليل فقد شعرت بقوة عارمة تنتفض بها قائلة :

ـ جاسوسة !

وكانت تسمع صوتها وكأنه صادر عن غيرها قويا مرتفعا يفيض سخرية وهى تردد :

– انك تسخو فى اطرائك لى ومستر جاكوبيتى · لكم كان بودى ان أوتى القدرة على تمثيل هذا الدور دور الجاسوسة لاحد بيوت الازياء الكبير فى انجلترا أو فى نيويورك · وانني أدرك ، بداهة أنهم يحاولون الكشف عن كثير من خبايا المجموعة قبل عرضها · كما اعرف أنهم يدسون عليكم من يلتقط اى نبأ عن خاصيات وتصميمات هذه المجموعة النادرة · ولكننى لست من يصلح للقيام بذلك · وفى وسع مدام بيرتان أن تأتمننى على أسرار مهنتها مهما يكن من اهمية هذه الاسرار · اننى لن أفشى لها سرا ، حتى ولو أردت هذا ·

وبينما كانت تتدفق حمية ، كفتاة غرة منفعلة ، كانت تشعر بأن التوتر السائد فى القاعة قد بدأ يخف حدة ، وبأن تلك النظرات التى كانت تتهددها بالويل والثبور قد انتابها الفتور · وكان ايدى هو أول من افصح عما كان لوقع كلماتها من أثر فى نفسه حينما نهر فيكتور بقوله :

– صه ، ايها الاحمق ! أنك مخمور · انها ليست بأكثر من زاريا براون ، الفتاة التى زاملتنا طوال الرحلة ، الفتاة التى هى موضع ثقتنا جميعا · انها خير من تشغل هذه الوظيفة ، اليس كذلك ؟

فأسرعت زاريا معقبة :

– بلى ، بلى ، بكل تأكيد ·

وخف تشاك لنجدتها بقوله :

– يحق لى أن أؤكد لكم أننا جديران بثقتكم الغالية ·

وشعرت زاريا بذراعه يطوق خصرها ويعتصرها وكأنه يقول لها : « أحسنت صنعا ! » ·

فقال فيكتور ، وهو يترنح قليلا ، متجها بحديثه اليهما :

– لقد اخطات فى حقكما ، الامر الذى اقدم عنه اعتذارى · لقد جافانى الصواب · كان أولى بى أن أثق بأن من شأن ايدى أن يحرص على عدم وجود جواسيس فوق ظهر هذه السفينة ·

وحدجه ايدى مورجان بنظرة قائلة ، وقد لكزه فى ذرراعه بقوة بينما كان يخطو صوب المائدة ليلتقط كأسامن الخمر · وانبرى ايدى مورجان قائلا ، فى صبر نافد :

– ألم يعد العشاء بعد ؟

وعاد فيكتور ليردد :

– لقد اعتذرت عما بدر منى ، فهل من مزيد ! زاريا هل غفرت لى ؟

واندفع يتجه نحوها ، فخطت الى الوراء بحـركة غريزية ، وهى تقول :

– بكل تأكيد ، بكل تأكيد ·

– اذن ، فلا تبخلى على بقبلة ، دليلا على صفحك. لست أحب أن يغضب منى أحد · قبلة واحدة تقوم دليلا على صداقتنا ·

فرفضت زاريا سؤاله فى حدة · فقبض فيكتور على ذراعها محاولا أن يجذبها نحوه · فصاحت فى ذعر وهى تتجه الى تشاك لتلوذ به : «كلا ! كلا ! أرجوك أن توقفه عند حده ! ·»

فقال فيكتور وهو لا يكاد أن يدرى من أمر نفسه شيئا ·

– ألسنا جميعا أصدقاء ·

– أتفق معك فى هذا ·

بذلك بدأ تشاك يوجه حديثه اليه فى صوت هادىء متزن :

ــ ولكننى لا أوافق على تقبيلك لخطيبتى ! هذا أمر متروك لى وحدى ·

ــ هكذا ؟

وخلى فيكتور ما بين قبضتيه وذراع زاريا ، ووقف يحدج تشاك بنظرات عدائية ، قبل أن يتجه بكلامه الى الحاضرين :

ــ من تراه وضع هذه القاعدة السخيفة ؟ من الذى قال اننى لا استطيع تقبيل زاريا معتذرا اليها عما بدر منى ؟

وانبرى ايدى ينهره قائلا :

ــ هلا أطبقت فمك !

ولكن فيكتور لم يعره التفاتا ، بل استرسل فى غيه قائلا :

ــ اعتقد انه لا ضير من ذلك ، وانه من حقى أن اعتذر بالاسلوب الذى أراه مناسبا · وفى قبول زاريا لهذا الاسلوب ما أفهم منه قبولها الاعتذارى · ولا يمكن لامرأة أن ترفض اعتذار رجل الا اذا كانت قاسية ، غليظة القلب ، وزاريا ليست من هذا الطراز ــ أم لعلها كذلك ؟

فقالت زاريا فى صوت خفيض ، وهى تشيح عنه بوجهها وتمسك بذراع تشاك :

ــ لقد قبلت اعتذارك ، بكل تأكيد ·

ــ اذن ، فلا ضير من قبلة بسيطة ·

فانبرى تشاك قائلا له ، وهو يحاول السيطرة على أعصابه :

ــ دعنا من هذا · دعك منه بتاتا · وهلم بنا الى كأس آخر ·

فراح فيكتور يتساءل فى عناء والحاح الثمل المخمور :

ــ ولماذا اتناسى ما ألح فى طلبه ؟

– لاننى أعيد على سمعك ثانية ، أن زاريا هى خطيبتى ، وهى فتاتى · هل وعيت ؟

– لا أعتقد أننى يمكن أن أصدقك · لقد شاهدتك تستمتع بصحبة كيت طوال النهار · واذا ما سألتنى رأيى ، فهذا دليل على أن زاريا لا تنتمى لاحد ·

– أنها خطيبتى ، وليس بعد هذا من مزيد ·

وكان محتدا فى قوله ، وكأنه قد نفذ صبره · فتساءل فيكتور :

– وماذا تقول في قبلة للعروس ؟

فأجابه تشاك منفعلا :

– قلت لك أن هذا من شأني وحدى ·

– اذن ، فلتقبلها عنى · قبلها ، ودعنا نرى ما اذا كنت مغرما بها كما تدعى ·

ورأت فى هذا التحدى انه يقترب بها وبتشاك من حافة الهاوية · وتطلعت الى تشاك وهى فى حيرة من امرهما ، ومما سينتهى اليه هذا المشهد ، وقد خشيت أن تدفع بهما هذه التيارات الخفية الى ما لا تحمد عقباه · وهمست بشفاه مرتعدة ، تناشد تشاك :

– تشاك ! تشاك !

وكان في ترديدها لاسمه فعل السحر ، لانها قد وضعت فيه كل ثقتها وأملها فى قدرته على أن ينقذهما من هذا الخطر الماثل غير المتوقع ·

وشعرت بذراعيه تطوقانها · ثم رأته يتطلع الى فيكتور مبتسما :

– اذا كان هذا هو ماتريد ، · فليكن ولم لا ؟أنه ليطيب لى دائما أن أفعل ذلك ·

وبوغتت بما فعله تشاك · انها لم تكن تتوقع شيئا

من هذا القبيل · ولم يكن فى وسعها أن تقول شيئا ، وقد أطبق بشفتيه على شفتيها · وكانت هذه هى أول مرة فى حياتها يطبع رجل قبلة على فمها · وكان تشاك هو الذى فعل هذا ـ فى قوة ، وحرارة ، حركت كل مشاعرها وبعثت فى جسدها احساسا غريبا عليها · وكانت لحظة ، رغم قصرها ، بمثابة الخلود لديها ثم خلى ما بينه وبينها · ووقفت كالحالم لا تدرى من أمر نفسها شيئا · ثم صحت من حلمها الجميل على ضحكته وهو يقول لفيكتور :ـ

ـ أو هذا ما كنت تريده ؟ وهل فهمت الان أن ما من احد يمكن ان يقبل زاريا سواى ؟

وانبرت كيت شاكية :

ـ لا يمكننى ان أجد سببا يوضح لى عدم رغبة احد فى تقبيلى · ليس من الانصاف فى شىء أن تستأثر زاريا بكل أهتمام · فى الواقع أننى لم أعد أتسطيع مواجهة هذا الموقف ؟

ونهضت عن مقعدها تمشى على هون الى حيث يجلس ايدى ، قائلة فى ضيق :

ـ لقد أهمل شأنى .

ـ هذه تجربة جديدة لك ·

وطبع قبلة على وجنتيها ، وطوقت عنقه بذراعيها تحتضنه ، وهى تتطلع الى تشاك ، مسدله أهدابها ، قائلة وهى تزم شفتيها :

ـ أن البعض بحاجة الى دروس فى التقبيل ·

واذا بمدام بيرتان تنقض عليها بقولها :

ـ حسنا ، وانى لواثقة من أنك على أتم أستعداد لتلقين هذه الدروس ـ بثمن ·

وكانت زاريا تشعر بأن مدام بيرتان قلقة ، وانها كانت تتابع ما كان يجرى فى عصبية بادرية وكأنها تخشى أن ينتهى المشهد بأنفجار ولم يكن فى الحسبان ٠ وكانت قد أفرغت كأسا من الشمبانيا ثم مدت يدها تريد أن تتبعه بآخر ٠ واقبل جيم بصوته الانجليزى الهادىء معلنا :

ـ العشاء معد ياسيدى ٠

وقد أعاد صوته الرصين ، العميق لجميع الحاضرين حسن أدراكهم وما يجب أن يكونوا عليه من أتزان ٠

واتخذ تشاك مقعدا الى جانبها وهم يجلسون الى مائدة الطعام ، وبحركة ضاغطة على يدها أراد أن يبعث الطمأنينة فى نفسها ٠ غير انها حينما تطلعت اليه ، وجدته منصرفا عنها الى كيت ، يجيبها عما وجهته اليه من سؤال ٠ وحز هذا فى نفسها وعادت سحب الشك تتجمع فى ذهنها من جديد ٠ أنها لا تعنى شيئا لتشاك ٠ أن هى الا وسيلة لاحدى غاياته وحسبها منه رعايته لها وحد به عليها ، واشاعة بعض الامان بين جناحيها ٠

ولما كانوا جميعا قد أفرطوا فى الشراب ، فقد ساد جو المائدة الصخب والضجيج ، واستقرت نار المعركة بين كل من كيت ومدام بيرتان ٠ وكانت زاريا وحدها هى التى تجلس فى هدوء وصمت تستعرض كل أحوالها مع تشاك ، وتستعيد اللحظات الاخيرة التى سعدت بها ، حينما تقدم منها يعانقها ويطبع على فمها اول قبلة فى حياتها ! ولم تتمالك نفسها من التساؤل عما اذا كانت هذه القبلة هى الاولى والاخيرة بينهما ؟

ولم يكن ثمة من شك فى أن كيت قد عقدت العزم على أن تستحوذ على تشاك ٠ وأن ما قام به تشاك تحديا لفيكتور ، لم يكن سوى الوقود الذى ضاعف من رغبتها

الجامحة ، سواء رضي تشاك أو لم يرض . وأن كان تشاك ، فيما لاح لزاريا ، قد وجد فى ذلك تسلية ومتعة .
وسمعتها تقول لتشاك عبر المائدة :

ـ بعد العشاء ، سنمضى السهرة فى الرقص .

فيجيبها تشاك :

ـ لست أجيد الرقصات الجديدة .

ـ سأدربك عليها .

فعادت مدام بيرتان الى مهاجمتها قائلة :

ـ هذا هو شأنك دائما ، اذ تنزعين الى تنفيذ رغبتك من تلقين الغير درسا . ماذا تقولين فى تلقينك درسا ؟

ـ فى أى موضوع ؟

ـ فى حسن السلوك ـ فى الادب ؟

فتجهم وجه كيت ، وهى تعقب قائلة :

ـ لقد ألفنا منك طيب الحديث . غير أنك قد أصبحت مصدرا للضيق والسأم :

ـ أننى احاول أن اوائم بين مسلكى وبين البيئة التى أتواجد فيها ! هيا بنا الى القاعة الاخرى ! .

ونهضت يتبعها الاخرون ـ وان تخلف عنهم قليلا كل من فيكتور ومستر فيردون ليعدا لهما كاسين من الخمر قبل مغادرة قاعة الطعام . وهمست زاريا قائلة لتشاك:

ـ أظن أنه قد يحسن بى ان آوى الى فراشى .

ـ ليس بعد .

ـ أريد ان اتحدث . .

ولكنها أمسكت عن الكلام اذا تحققت من أن كيت تصيخ السمع . ثم سمعتها تأمر تشاك :

ـ أدر الراديو .

– لقد أعذر من أنذر · أننى لا أجيد الرقص الحديث ·

ولكنه تبعها عبر القاعة الى حيث يوجد الراديو تاركا زاريا تقف وحيدة · وظلت فى مكانها لحظة ، لا تدرى ماذا هى فاعلة ، ثم خطت صوب أحد المقاعد ، وبينما كانت تفعل ذلك لمحت صورتها فى احدى المرايا · وكان من العسير عليها أن تصدق أن الصورة هى صورتها · أنها ما كانت ليطرأ فى بالها يوما ، أنها بهذه الصورة الجميلة ·

ووجدت زاريا أنها تبتسم راضية عن نفسها · لقد جعلت منها مدام بيرتان فتاة أخرى فتاة يمكن ان تضارع غيرها من الفتيات الجميلات – بما فيهن كيت التى بهرت انظارها ، وخلبت لب تشاك ، الذى يراقصها فى تـلك اللحظة ، ويتمايل بها يمنة ويسرة ، ويلامس بوجهه شعرها الاملس الذى يفوح عطرا يفقده صوابه ·

وشعرت زاريا أنها لا تطيق مواصلة النظر اليهما ، بل ولا تستطيع البقاء فى هذه القاعة واستدارت فجأة لتتجه الى غرفتها ، لولا انها شاهدت مدام بيرتان تومىء اليها من حيث تجلس فوق اريكتها ، وكأسها بين يديها · ودعتها قائلة :

– تعالى نتجاذب أطراف الحديث ، يا صغيرتى · لقد كنت جد فخورة بك الليلة · لقد افحمناهم كما كنت اتوقع ·

– لقد كنت أستعرض ماذا يمكن أن يكون للثياب من أثر ·

– أرأيت ؟ انها كل شىء للمرأة · انها تملاها ثقة بنفسها · ان ثقة المرأة بنفسها ، هى المرحلة الاولى من فوزها باية معركة ·

وتطلعت زاريا ثانية الى حيث يراقص تشاك كيت . وشعرت بان ما يعتصر قلبها من ألم قد بدأ يخف حدة . فيم هذا الاستسلام ؟ ولماذا تترك الميدان لكيت ؟ وبدأت تستعيد شجاعتها التى فقدتها منذ أعوام تحت سيطرة والدها . واستقر رأيها على انها يجب أن تناضل ! وان تناضل من أجله ! واتجهت الى مدام بيرتان قائلة :

ـ مدام ، أريد ان أسألك رأيك فى شىء ما .

ـ ستجديننى طوع أمرك .

ـ هل تقبليننى ، العملية الاولى لك ؟

وكانت الكلمات تتدفق من بين شفتيها وهى تكاد الا تعى ما هى قائلة . فرفعت مدام بيرتان حاجبيها مرددة :

ـ عميلتى الاولى ؟

ـ أجل . اريد أن ابتاع الكثير من ثيابك الانيقة .. فى مقدورى أن أدفع لك ما تشاءين ان معى شيكا أعطته لى مس مانفورد ، مالكة هذا اليخت ، قبل رحيلى عن لندن . انه مقبول الدفع فى أى بنك ، لانها .. لانها بالغة الثراء . انه محرر لامرى ، وليس علىّ سوى ان اظهره لك .

وكانت مدام بيرتان تصغى فى انتباه . فأردفت قائلة:

ـ انك تعرفين ، اذن ، مالكة اليخت « الساحرة » لقد فهمت كيف حصلت على هذا العمل .

ـ أجل ، أجل ، هذه هى الحقيقة . ولقد كانت مدينة لى لقاء بعض ما سبق أن قمت به من عمل لها وهو مبلغ ليس بالقليل ـ انه مائتا جنيه . ولم يكن لدى متسع من الوقت لصرف المبلغ من البنك . وسأسلمك هذا الشيك لكى تطمئنى .

– مائتا جنيه ، ويمكن فى مقابل هذا المبلغ ان أبيعك من الثياب ما يفى بحاجتك لعدة اشهر ٠

ثم استطردت هامسة :

– لا تتحدثى بما دار بيننا الى أحد ٠ هل فهمت ؟ فلست أريد ان يعلموا بأنى أحصل منك على نقود ٠

– كلا ، كلا ، هذا أمر بديهى ٠

– سأنتقى لك البعض منها الليلة ، والباقى باكر صباحا ٠ أننا سنصل الى الجزائر فى الحادية عشرة تقريبا ٠

– هكذا ، اننى لم أكن أعرف هذا ٠

– هذا ما سمعته من ايدى صباح اليوم ٠ هل ستسلميننى الشيك الليلة ؟

– أجل ، بمجرد ان نأوى الى الفراش ٠

– فليكن ، ولا تدعى أحدا منهم يشك فى شىء ٠

– كلا ، كلا ، من أن شيئا من هذا لن يحدث ٠

وأقبل تشاك عليها قائلا :

– ألن نرقص معا ؟

وبوغتت بعرضه ، وأرتج القول عليها ، ثم تطلعت اليه قائلة :

– أخشى اننى ٠٠ لا أجيد الرقص ٠٠ كما تجيده كيت ٠

– هونى عليك ٠ هلمى نحاول معا ٠ أننى احب هذا اللحن ٠

ونهضت زاريا متثاقلة ، ليأخذ بيدها الى حيث كان يراقص كيت ، التى ولتهما ظهرها وجلست بجوار ايدى تصب له كأسا ٠ وكان فيكتور مستغرقا فى حديث مع مستر فيردون ٠ وتبينت انها تنفرد بتشاك فى تلك اللحظة

بالذات ، وقد غفل الجميع عنهما وهمست قائلة :

ـ تشاك ، لم يكن بك حاجة لهذه المجاملة · اننى لا أجيد الرقص ·

ـ أننى لست خيرا منك فى هذا ·

واحتواها بين ذراعيه ، ليبدأ خطواتهما الراقصة · واسلمت قيادها له · ولم تشعر بأكثر من الرضا بأنها تكاد أن تكون جزءا منه · وكانت تسبح بخيالها فى سماء الاحلام ، حيث لا يعنيها سوى ماهى فيه من سعادة وهناء نتيجة لالتصاقها به ، بحيث كانت تسمع دقات قلبه تختلط بدقات قلبها · وتمنت لو فاضت روحها فى تلك اللحظة ، لكى لا تعرف بعد ذلك الشقاء واجتاحت نفسها موجة طاغية من الرعب اذ تبادر الى ذهنها ماسيأتى به الغد · ان هذا الغد سيحمله بعيدا عنها الى حيث لا تلتقى به ثانية ·

الوصول الى الجزائر فى الحادية عشرة ! رباه ، ما أقل ما تبقى من ساعات الهناء الذى لم يطل عهدها به ! وسمعته يسألها فى صوت رقيق :

ـ هل تخشين شيئا ؟

ـ ليس فى هذه اللحظة ·

ـ أنك رائعة !

وارادت ان تطلق لرغبتها فى البكاء العنان ، لانها لمست من لهجته أنه كان جادا صادقا فيما قال · ثم سمعته يقول :

ـ أن مدام بيرتان آية من آيات النبوغ ! كنت واثقا من أن هذه هى صورتك الطبيعية ، وان كنت لم أدرك ماذا ينقصك ·

ـ او تسخر مني ؟

ـ أنك كسائر البريطانيين ، تخشين الاطراء · انني أصدقك القول ·

ـ ثمة شيء يجب ان احيطك به علما ·

ـ حذار ·

وكان حديثهما همسا · فقالت له :

ـ لا تخف · ولكن ، خبرني كيف أفضي اليك بما أريد ؟

ـ لست أدري ، وان كنت سألتمس وسيلة ما ·

وكانت الموسيقى قد توقفت ، وبينما اتجه تشاك ليدير لحنا جديدا ، اقبلت كيت تتهادى عبر القاعة ، قائلة :

ـ زاريا ، ان فيكتور يريد أن يراقصك ·

فأسرعت زاريا تجيب :

ـ كلا ، لانني سآوي الى فراش ·

وانبرت مدام بيرتان معقبة من حيث تجلس فوق الاريكة :

ـ فكرة صائبة · وهذا ما أنا فاعلة · يحسن أن تصحبيني الى غرفتي ، لاساعدك في خلع ثوبك ·· لانني حريصة على الا يتلف منه شيء ، اذ أنه من أحسن نماذجي ·

ـ عمت مساء تشاك !

واستدارت زاريا تحييه ، لتجد انه لا يريد انصرافهما · وقطب جبينه وهو يجيبها :

ـ طابت ليلتك ، زاريا · نوما هنيئا ·

وانبرت كيت تقول :

ـ هلم بنا ، تشاك · هذه هي ليلتنا ·

وولتهم زاريا ظهرها ، وقد اعتصر الاسى قلبها · ودار بخلدها أن كيت لا تجاري ، جرأة وانتهازا للفرص ·

ورأت أنها ما كان لها ان تتيح لهما هذه ألفرصة ، وان تنسحب من الميدان ليخلو لهما ·

وكان الرجال ، حينذاك ، جالسين يتجاذبون اطراف الحديث فى الطرف الاخر من القاعة · وقد بلغ بهم انهماكهم فى حديثهم حد أنهم لم يلتفتوا اليها وهى تمرق بجوارهم فى أعقاب مدام بيرتان · وبعد أن هبطتا الدرج الى الدهليز قالت لها مدام بيرتان هامسة :

ـ الى بالشيك الان !

واتجهت زاريا الى غرفتها الخاصة ، وقامت بتحرير الشيك باسم « زاريا براون » بمبلغ مائتى جنيه ثم وقعته باسمها :

مائتا جنيه ! كل هذا المبلغ الضخم لابتياع بضع ثياب ! غير أنها بعد أن لمست ما للثياب من أثر فعال فى التحول بالمرأة من حال الى حال ، ومدى ما أضفته عليها الثياب الانيقة من جاذبية رأت ان هذا المبلغ هين بالنسبة لما سيتاح لها من متعة ·

لقد جعلت منها الثياب فتاة أخرى فى نظر تشاك ، وهذا كل مايعنيها ولكن تشاك سيختفى من حياتهابمجرد وصولهم الى الجزائر حيث يذهب عنها ليكون الى جانب والدته انها لا تستطيع أن توقف عجلة الزمن عن الدوران · أن الساعات تمضى سراعا ، لتجد ان تشاك قد بلغ من رحلته غايتها ·

وقامت بتظهير الشيك ، وطوته ليبدو وكأنه كان مودعا حقيبتها · ثم فتحت باب غرفتها فى طريقها الى مدام بيرتان ، قائلة :

ـ اليك الشيك ·

ـ خفضى من صوتك ، يا فتاتى ! لقد قلت لك أننى لا

أريد ان يعلم أحد بما اتفقنا عليه · وسوف أعلن أنك ستدفعين لى الثمن مقسطا من مرتبك · هل فهمت ؟

والقت نظرة على الشيك ، تتأمل اسم البنك واسم الساحب :

ـ زاريا مانسوفرد ! ان الاسم الاول مطابق لاسمك ·

ـ لقد سميت باسمها ·

ولم تناقشها مدام بيرتان في تفسيرها ، واسرعت تودع الشيك حقيبة يدها ، وقد نمت ملامح وجهها عن بوادر الجشع ، وهى تقول :

ـ ستحصلين على مجموعة ترضى جميع الانواق وتحظى بالاعجاب ·

وكانت مدام بيرتان مسترسلة فى حديثها من هذا القبيل ، بينما كانت زاريا منصرفة عنها الى التفكير فيما يجرى بالطابع الاعلى · او ترى تشاك يراقص كيت الان ، ويستمتع بضمها بين ذراعيه ؟ او تراه سيحاول تقبيلها ؟

وارتعدت لمجرد هذا الخاطر · ان مجرد تمثلة احتمالا يمضها ويعتصر قلبها · وقطعت قلبها · وقطعت عليها مدام بيرتان حبل خيالها بسؤالها :

ـ ألم تأت معك بقميص للنوم ؟

ـ كلا اذا لم يدر هذا بخلدى ·

ـ أذن ، فليكن هذا هو هو أول ما أقدمه اليك · هاك قميص من النسيج القرنفلى اللون ، المزركش بزهور بيضاء ·

وأخرجته من احدى الحقائب المفتوحة ، وخلعته على زاريا ، وهى تلقنها خير وسيلة يمكن أن يبدى ابها مفاتنها ، مطرية ملائمة لها · ثم قالت لها :

ـــ يحسن بك أن تأوى الآن الى فراشك . اذ يجب ان تنالى قسطك من الراحة · سوف أتخير لك المجموعة التى تبغين ، وسيحملها اليك المشرف فى الصباح ·

ـــ شكرا ، شكرا جزيلا . مهما قلت فلن اهيك حقا من الشكر ·

ـ يا صغيرتى المسكينة ! لقد قاسيت كثيرا فى حياتك ، ومازلت تقاسين · لا تخشى شيئا · أن كيت لن تفوز به مهما فعلت · أنها فتاة تافهة · انه سرعان ما سيكتشف حقيقة أمرها ، أسوة بما كان من رجال قبله · ولتضعى ما أقوله لك الان نصب عينيك ـ أن الرجل سرعان ما يزهد فيما يناله بسهولة ويسر ودون عناء ·

ـ هكذا ؟

ـــ أجل ، وانه لراى عن تجربة . انه يكاد ان يكون عقيدة ! يا للرجال ! انهم يلهثون وراء ما يستعصى عليهم فاذا ما تحقق لهم ما يجدون فى سبيل الحصول عليه ، سرعان ما يزهدون فيه أنه يغدو قديما قد فقد بريقه !

ـ بودى لو صدقتك ·

فابتسمت مدام بيرتان معقبة :

ـ أنه الحب دائما · أنه الحب بآلامه وحقائبه الموجعة ! غير أن هذا هو السبيل الوحيد لكى يتعلم المرء فى هذه الحياة ـ فالمرء اذن يذوق الالم ، يحاول أن يتجنب مرارته ، ومن هنا تحقق له من التجربة ما يتخذ من دروسها هاديا ومرشدا ·

ـ شكرا ، مدام بيرتان ، على ما تبصريننى به ·

ثم تقدمت زاريا تودع وجنتها قبلة العرفان بالجميل ، ثم اسرعت تغادر الغرفة لكى لا تتبين مدام بيرتان تلك الدموع التى اغرورقت بها عيناها · ولم تحاول ان تأوى

الى فراشها ، على الرغم مما كانت تشعر به من اعياء · بل جلست الى منضدة الزينة تتأمل صورتها المنعكسة فى مرآتها ، دون ان تحاول ازالة المساحيق التى جملت بها مدام بيرتان وجهها وعينيها ·

وكانت ، لاول مرة فى حياتها ، تحاول ان تدرس ملامحها ودقائق جسدها ، باحثة عما يمكن ان يستغل منها ليضفى عليها ما تصبو من جمال وحسن ـ يرضى تشاك ويحمله على الاعجاب بها ·

وكانت تدرك أن هذا أمر بعيد المنال · غير انها كانت تشعر بأن وجودها الى جانبه أمر ضرورى ـــ على الأقل لتدرا عنه كل ما يتهدده من خطر·وراحت تستعرض كل ما يمكن أن تلجأ اليه لتأخذ بيده ، وتحقق عنه متاعبه ·

انه بحاجة الى المال ـ وفى وسعها أن تمنحه منه ما يسد حاجته · ولكنها لكى تفعل هذا ، يجب أن تكشف عن حقيقة أمرها . ولكنها رأت ان هذا مالا يجب أن يكون ـــ فى الوقت الحاضر على الاقل ·

وليست حاجته الى المال هى عقبة فى حياته · فثمة من المشكلات ما يعترض سبيله ويتهدده وأن نسيت ، فانها لن تنسى ما سمعته من حديث ايدى ، وما تبينته من لهجته من شر وتهديد كامن ·

لماذا يريدون أن يتخلصوا من تشاك ؟ هذا ما تعجز عن تفسيره ، وإن كانت واثقة من أن هذا هو ما يستهدفون · انها يجب إن تحذره ، وأن تقف الى جانبه · احبك !

ووجدت أن لسانها انطلق بهذه الكلمة ، دون وعى منها · وكادت أن تخجل من نفسها ان بلغ بها ضعفها هذا الحد · غير أنها سعيدة لمجرد شعورها بذلك دون ان تسألت أن يبادلها حبا بحب·فحسبها أن تشعر بوجودها

الى جانبه فترة أطول ، وان تحس بيده فوق يدها ، وبصوته الهادى ينفذ الى أذنيها ·

ونهضت تبتعد عن منضدة الزينة ، وهى تضحك من نفسها · يا للسخرية ! ان هذا التغيير الطارىء على هيئتها لا يغير من الامر شيئا ــ من أنها تلك الفتاة التى اساءت معاملتها التى تعرضت للجوع والحرمان ، والتى رحلت عن اسكتلندا علما بأنها ورثت ثروة طائلة وهاهى ، وقد تلقت هذا الميراث ، قد قضت عليها الظروف بالا تشعر بما صارت اليه حالها ·

وراحت تستعيد تلك الفترات من حياتها منذ أن تلقت النبأ فى لندن الى أن انتحلت شخصية دوريس براون لتستقل اليخت « الساحرة » من مرسيليا ·

« انها دائما تسحرنى ! » أليس هذا ما ردده تشاك على مسامع الجميع تعقيبا على كلمة « الساحرة » المطبوعة فوق بلوزتها · ولم يكن هذا القول منه سوى ادعاء أراد به أن يخدع الآخرين . انها كيت ، من كانت أولى بهذه الكلمة تزقش بها بلوزتها · انها كيت ، بشفتيها الدافئتين ، من تستطيع أن تسحر أى رجل اذا ما أرادت هذا ·

وراحت زاريا تقطع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد اطبقت بيديها على اذنيها ، وكأنها تريد بذلك أن تصم أذنيها عما يهتفت به وجدانها ! فيم كل هذا العناء ؟ الى أى حق تستند فيما يجول فى خاطرها ؟ أن هى ، وتشاك ، سوى عابر طريق لا يربط بينهما شىء · والقت بنظرة على ساعة الجدار لترى انها تقارب الواحدة · ورأت اخيرا ان تأوى الى فراشها ، اذ لا جدوى من جلوسها فى انتظار

ما قد يستجد · ان الموجودين بالطابق الاعلى لاهون فيما هم فيه من عبث ولهو ·

وطفرت الدموع من عينيها ، وجاهدت لتبعد عن ذهنها تلك الخواطر التى تمضها وتثقل عليها ، وراحت أن تسرى عن نفسها بأعذب الخيالات ·

ولابد أنها استسلمت للنوم نتيجة لهذا الاسترخاء الذهنى الذى لجأت اليه · ولقد بدا الها أنه لم يكن ثمة نقطة فاصلة بين أحلامها وبين تلك اللحظة التى صحت فيها على تشاك جالسا فوق حافة فراشها وقد وضع أصبعه على شفتيها لكى لا تحدث صوتا · ولم يسعها سوى ان تحدق النظر فيه دهشة ، وهى تستمع اليه هامسا :

ـ يجب أن نلتزم بالهدوء وبالا يصدر عنا ما من شأنه ان يوجه الانظار الينا · ولم أجد سبيلا الى الانفراد بك سوى هذه الوسيلة ·

ولاح لها ، لحظة ، أنه جزء من أحلامها · وكان يتأملها بعينيه العميقتين وكأنه ينفذ بهما من خلال عينيها الى قلبها الذى كان يخفق من أجله · وبادرته متسائلة :

ـ هل قضيت وقتا طيبا ؟

ولم تكن تعنى ما قالته ، غير ان لسانها قد سبق بالافصاح عن مكنون ذاتها · وسمعته يعقب قائلا :

ـ ما أردت أن أوقظك · لقد كنت أقرب الى الاطفال فى نومهم ·

فتحركت تلقى بنظرة على ساعة الجدار لترى انها الرابعة، فقالت :

ـ ان الوقت متاخر ·

- لم أستطع أن أحضر قبل هذا ، خشية أن يكون احدهم مازال مستيقظا ·

- أستمع الى ·

فاقترب منها يقول لها همسا .

- حاولى أن تهمسى بما تريدين قوله ، خشية ان يسمعنا أحد فيساورهم الشك فى أننا نتآمر ضدهم ·

وأسرعت تقص عليه ما سمعته من حديث حينما كانت مستلقية بغرفة مدام بيرتان · وتبينت أنه لم يدهش لما سمعه منها بل ابتسم قائلا :

- هونى عليك · دعى كل شيء لى ·

كيف « انهم قد يعمدون الى الحاق الأذى بك » انهم قد ...

- دعى كل شيء الى · وعليك أن تكونى طبيعية ، تعدين نفسك لما قدمت من أجله - سكرتيرة لمستر فيردون ·

- وماذا أنت فاعل ؟

- فى وسعى أن أنهض بامرى ·

- وهل سترحل عنا ؟

- كلا ، مادمت لا أضطر الى ذلك ·

- ماذا تعنى بقولك هذا ؟

- دعى هذا للظروف · أننى سأظل الى جانبك ، مالم ارغم على غير ذلك · هل فهمت ؟

- أننى أخشى أن أفقدك ·

ولم تكن لتجرأ على مثل هذا القول نهارا · لقد كنت واقعة تحت تأثير أحلامها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، التى بدت استمرارا لحلمها بوجوده فى غرفتها جالسا فوق حافة فراشها · ومد يده يربت بها على وجهها قائلا :

– ياللفتاة المسكينة ! ان كل ما حولكَ يثير الحيرة والارتباك ، اليس كذلك ؟ بل ويبعث فى النفس الخوف. ارجوك ان تذكرى دائما كل ما حدثتك به • أننى اشعر شعورا صادقا بأننا سنصبح من خيرة — الأصدقاء .

ولم تكن تدرى ما أذا كانت كلماته او لمسات اصابعه هى التى بعثت فيها هذا الشعور بالسعادة فتمتمت قائلة :

– بودى لو أدركت كنه كل مايدور من حولى • وانى لاتساءل عما يحدو برجل من طراز مستر فيردون ان يحيط نفسه بمثل هؤلاء القوم ؟ انهم قوم منحرفون اننى جد واثقة من هذا •

– وهذا هو رأيى فيهم • والان ، يجب ان اغادر الغرفة • وكل ما أسألك اياه ، أن تخلدى للنوم وتهداى بالا • طابت ليلتك زاريا •

وربت بيديه فوق ذراعيها ، ثم أودع جبينها قبلة حانية • ونهض يسرع بمغادرة الغرفة ويوصد بابها فى هدوء قبل أن تفيق من دهشتها :

لقد قام بتقبيلها ! قام بهذا طائعا غير مضطر او محرج • حقيقة أنها كانت قبلة أخوية فوق الجبين ، ولكن حسبها منها أنها كانت صادرة عن شعور صادق أحست به من مجرد ملامسة شفتيه لجبينها . وفاضت نفسها شكرا لله وحمدا له ! وأغرورقت عيناها بالدمع لتنهمر بعد ذلك من فرط سعادتها — تلك السعادة التى لم يسبق لها أن عرفتها من قبل .

الفصل التاسع

صحت زاريا من نومها على جيم قادما الى غرفتها يحمل اليها طعام أفطارها · وبعد ان وضع الصينية الى جانب فراشها ، حسر الستائر الحريرية عن كوات الغرفة ·

وتدفقت أشعة الشمس ، تلمس باصابعها الذهبية كل شيء في الغرفة · واستقامت زاريا في فراشها قائلة :

ـ سعدت صباحا ، جيم ·

وشعرت بأن ثمة امرا غير عادي · وتساءلت عما يكون قد ستجد من احداث ، قبل ان تدرك ان محركات السفينة كانت متوقفة عن الحركة · فبادرته بسؤالها :

ـ فيم هذا التوقف ؟

ـ أننا في الميناء ، ياسيدتي · لقد وصلنا الى الجزائر فجر اليوم ·

ـ كنت أحسب أننا لن نصل اليها قبل الساعة الحادية عشرة ·

ـ آن « الساحرة » يمكن أن تضاعف من سرعتها عند الاقتضاء · ومع ذلك ومهما يكن من أمر ما قيل لك ، فأن المسافة لا تستغرق أكثر من خمسين ساعة من مرسليا ، مع حساب الوقت الذي انقضى في عروجنا على أسبانيا ·

ـ ولكن مدام بيرتان قالت لى آن مستر مورجان هو الذى آكد لها لن نصل قبل الحادية عشرة ·

ـ قد يكون لدى مستر مورجان من الاسباب مادعاه الى هذا القول · ومهما يكن من أمر ، فها قد وصلنا الى ميناء من اجمل موانى البحر الابيض المتوسط ·

ـ وهذا هو رأيى أيضا ·

وكانت زاريا شاردة الذهن · ثم سمعت جيم يقول لها :

ـ لقد جئتك بشيء آخر ·

ثم غادر الغرفة ليعود بعد لحظة حاملا على ذراعيه مجموعة من الثياب قائلا :

ـ لقد عهدت الى المدام بحملها اليك بمجرد استيقاظك من النوم · ثمة مجموعة أخرى ·

ووضع الثياب فوق أحد المقاعد ، ثم أختفى ليعود بحمل آخر قائلا :

ـ يحسن أن آتيك ببعض المشاجب ·

وجلست زاريا تمعن النظر فيما تناثر حولها من ثياب ، ثم رأت جيم مقبلا يحمل صندوقا من الأحذية المختلفة ، وهو يقول باسما :

ـ وكأنى به جهاز عرس ·

جهاز عرس ! ان شيئا من هذا القبيل لم يدر بخلدها ! أن لديها ما يزدحم بها ذهنها من امور أخرى أشد خطرا ـ ومن هذا القبيل تشاك وماذا سيكون من أمره بعد وصولهم للجزائر · وقالت نافدة الصبر ·

ـ يجب أن أنهض من الفراش ·

ـ سأعد لك حمامك · وبهذه المناسبة لقد عهد الى الطاهى بأن ابلغك تحياته وأمانيه بفطار شهى ···

وبعد أن توقف لحظة استطرد قائلا :

– أننا جد سعداء بتحسن حالتك ، وارجو أن تاذنى لى بالتعبير عن اعتزازنا وسعادتنا بما كنت عليه من روعة الليلة الماضية .

– شكرا لكم جميعا .

– ويرى الطاهى أن الفضل فى ذلك لحسائه . اما انا فأرى أنه يجب ألا نغفل أقراص مسز كاردو ومالها من أثر .

ونسيت زاريا كل ما كان يضطرب به ذهنها وبهذا الانطلاق الساذج الصادر عن قلب مخلص . ولمس جيم ما كان من تأثير لكلماته فى نفسها ، فعمد الى ترديد ماهو من هذا القبيل من اطراء ومديح . الى أن استأذن فى مغادرة الغرفة ونهضت زاريا تقفز من فراشها وقد تحسنت حالتها النفسية .

وبعد أن أغتسلت ، ارتدت ثوبا جديدا ، من التيل السماوى الصافى اللون . ثم صففت شعرها على طريقة مدام بيرتان ، وأزينت بما يناسب زينة الصباح. ووقفت تتامل صورتها فى المرآة قبل أن تسرع بمغادرة غرفتها .

وصعدت الى السطح لتلتقى بمستر فيردون الذى كانت قد أنسيت كل شىء عنه ورأت أنه قد آن الأوان لتثبت وجودها :

– سعدت صباحا ، مستر فيردون ! هل ثمة ما يمكن ان اقوم بعمله ؟

وكان سارح الطرف شارد الذهن . ورمقها بنظرة فاحصة ، قبل أن يقول لها :

– ابحثى عن أيدى . لقد كان يحاول أن يتصل بك .

وتطلعت زاريا فيما حولها ، ليقع نظرها على ايدى مورجان وفيكتور جاكوبيتى واقفين يتحدثان الى بعض الموظفين الرسميين • وأسرعت تتجه اليهم • وبمجرد اقترابها منهم • حدجها ايدى مورجان بعينيه مقطبا جبينه قائلا :

ـ زاريا ها أنت اخيرا • حاولى أن تحيطى هؤلاء السادة علما بأن مدام بيرتان قد سجلت اسمها بوصفها مالكة لاحد المتاجر • اذ يبدو انهم يعتقدون اننا جميعا من السياح •

ـ وهل حدثتهم بشىء عن مستر فيردون ؟

ـ وبماذا أحدثهم عن فيردون ؟

ـ بأنه قادم بوصفه احد الاثريين •

ـ كلا فلم يطرأ هذا على بالى •

واستدارت زاريا صوب الموظفين توضح لهما فى فرنسية ركيكة من عساه أن يكون مستر فيردون وما يعتزم القيام به من حفريات •

وكما كانت تتوقع ، كان لما أحاطتهما به علما من حقائق عن مستر فيردون من أنه مليونير أمريكى وعالم آثار وقعة السريع المفعول ، فانقلب عبوسهما ابتساما وابديا استعدادهما لكل معاونة ممكنة • واستطردت زاريا قائلة :

ـ وقد اصطحب مستر فيردون معه مدام بيرتان عنوانا للصداقة • أن لها شهرتها فى عالم الازياء بباريس ، مما يستتبع ان تنتفع بخبرتها المتاجر فى المدينة •

وانبرى أحدهما قائلا ، وقد أنفجرت شفتاه عن ابتسامة عريضة

ـ يبدو أن الانسة ترتدى ثوبا من صنع المدام

– أجل ، تلك هي الحقيقة ٠

– ان نساء الجزائر سوف ترحبن بالمدام ايما ترحيب ٠

وابتسمت زاريا ثم التفتت الى ايدى توضح له بالانجليزية ان كل شيء سيكون على ما يرام مستطردة.

– وليس من شك فى أنه يجب أن تعرض الثياب على الجمارك وسيعمل السيدان على الفراغ من الاجراءات الجمركية كما انهما يريدان أن يقوما بجولة فى السفينة ، استيفاء للشكليات ٠٠٠٠ وارى انه من الافضل أن يصحبهما القبطان ٠ كما اقترح ان يقدم اليهما ما يشاءان من قهوة أو شراب ٠

وأسرع كل ما ايدى وفيكتور للعودة بالقبطان ولاصدار الامر الى جيم باعداد القهوة وزجاجة من الكونياك بالقاعة الكبرى وحرصت زاريا على أن توضح للموظفين جميع التطورات ٠ وقد بدا عليهما الرضا بما احيطا به علما ، ثم وجها اليها السؤال التالى :

– هل هذه أول زيارة للانسة للجزائر ؟

– كلا ، اذ سبق لى أن زرتها منذ بضعة أعوام ٠ وان كنت لم انسى ما فى هذه البلاد من جمال على الرغم من مضى الاعوام ٠

واستفسر منها أحدهما قائلا

– وهل ستعملين مع مستر فيرون فى الحفريات؟

– أجل ٠

– اذ ما تفضلت بتسليمى الجوازات ٠ ساقوم بمراجعتها واعادتها لك فورا ٠ وليثق مستر فيردون من أننا سنقدم اليه جميع التسهيلات ٠

وأقبل القبطان الذى قدمته زاريا الى الرجلين ثم

توجهت بحثا عن ايدى ، الذى وجدته بالقاعة الكبرى يحتسى كأسا من الشراب • وبادرته قائلة :

ـ يريد الضابط الاطلاع على الجوازات وسيعيدها بعد ختمها مباشرة • هل أتولى جمعها لعرضها عليه ؟

ـ سأتولى هذا عنك •

وكان جيم هو الذى انبرى يعرض عليهما خدماته ، بعد أن استمع الى حديثهما ، حيث كان يحوم بالقرب من باب القاعة ليلتقط آخر الانباء • غير انها دهشت اذ رأت ايدى يتجهم قائلا :

ـ وهل هو اجراء عادى ؟

ـ اجل • انه لا يمكن ان يسمح لك بدخول اى بلد دون الاطلاع على جواز سفرك ، وعرض ما تحمله من حقائب على رجال الجمارك به • ماذا ترى فى نقل حقائب مدام بيرتان الى الشاطىء ؟

ـ لا يوجد ما يدعو للتعجيل بذلك •

ـ كنت أعتقد ذلك •••

فقاطعها ايدى محتدا :

ـ قلت لك أنه لا يوجد مايدعو لان يكون فى عجلة من امرنـــــا •

وآثرت زاريا أن تلتزم بالصمت ثم اقبل جيم يحمل الجوازات :

ـ لقد أتيتك بجميع الجوازات ، بما فى ذلك جواز سفرك ، باستثناء جواز مستر تانير • لابد وأنه حمله معه الى الشاطىء •

حمله معه ! وهل هبط الى الشاطىء ؟

ـ أجل ، فقد غادر السفينة بمجرد رسوها •

فانبرى ايدى مورجان متسائلا :

ـ ماذا أسمع ؟ من قال هذا ؟ كنت أعتقد أنه أمر غير جائز ٠

ـ أن فى وسع أيا من يكون ياسيدى أن يهبط الى الشاطىء طالما لا يتخطى التعليمات ٠

ـ ترى الى أين ذهب كان يجب أن يحيطنى علما بذلك ٠ أننى لا اقر مثل هذه التصرفات الا يعرف أحد وجهته ؟

ـ كلا ، ياسيدى ٠

فالتفتت ايدى يستفسر من زاريا ٠

ـ ألم يخبرك ؟

ـ كلا ٠ أن شيئا من هذا لم يطرأ لى على بال ٠ ولعلك تذكر أنك قلت لمدام بيرتان أننا لن نصل قبل الساعة الحادية عشرة ٠

ـ أنا ؟

وكان تساؤله فى لهجـــة غير المقتنع بما ســمع وان شعرت زاريا أنه كان يعرف أنهم سيصلون قبل ذلك بكثير ٠ ثم سمعته يستطرد قائلا :

ـ ومهما يكن من أمر ، فان اقدامه على شىء من هذا القبيل فيه الكثير من الجرأة ٠ لقد حسبت أنه انضم الينا ليعاونك ٠

ودار بخلد زاريا أنه مالم يكن ايدى ممثلا بارعا ، فانه فيما يبدو ليست لديه اية فكرة عن السبب فى مغادرة تشاك لليخت ، ولا عن وجهته ٠ وأنها وان كانت قد وجدت فى هذا الخاطر تعزية ما ، الا أن هذا لم يكن ليخفف من قلقها ومن لهفتها ٠ الا يحتمل أن يكون تشاك قد هجرها ؟ الا يمكن أن يكون وقد نال بغيته من سفره ، قد هرع الى حيث توجد والدته ولم يعد يعنيه من أمرها شيئا ؟

غير انها شعرت بأنه لا يمكن أن يقدم على شيء من هذا القبيل ، وأن كان قد اختفى دون أن يترك لها رسالة ما · ولم يسعها الا أن تستسلم لليأس والاسى · ولكنها مع ذلك لم تفقد الامل فى عودته ·

وعاد الضابطان بعد القيام بجولتهما الى القاعة الكبرى حيث كانت القهوة والكونياك فى انتظارهما · وتولت زاريا ترجمة بينهما وبين ايدى وفيكتور من حديث · وكانت فى دهشة من أن مستر فيردون لم ينضم اليهم · وكانت تحاول أن تهتدى الى مايفسر هدا المسلك من جانبه · وانتهى بها تفكيرها الى أنه رجل غريب الاطوار ، لا يمكن سبر غوره . كما أن هذا الخاطر قد أثار ما انطبع فى ذهنها من حرصه على ألا يصدر آمرا عن غير طريق ايدى ·

ونهض الضابطان لمغادرة اليخت ، بعد أن أستأذنا ، فى رقة وادب جم ، فى أن يحملا جوازات السفر معهما · وبعد انصرافهما قال ايدى لفيكتور :

ــ فلنرجو أن يجدا كل شيء على مايرام ·

ــ أعتقد أنهما لم يجدا ما يثير شكوكهما ·

ــ أتراهما آخر المستطلعين ؟

وما أن انتهى من سؤاله هذا ، حتى أدرك أن زاريا كانت موجودة فاستدار اليها قائلا :

ــ اهبطى الى مدام بيرتان وقولى لها أن تسرع الينا اذا ما كانت قد ارتدت ثيابها ·

وصدعت زاريا بالامر ، ولكنها سمعت فيكتور يقول بينما كانت توصد باب القاعة :

ــ انك لا تعمل بما تفطننا به اليس كذلك ؟

فيم كل هذه الحيطة ؟ بهذا كانت زاريا تتساءل وهى

فى طريقها الى غرفة مدام بيرتان التى أذنت لها بالدخول بعد أن طرقت بابها . وبادرتها المدام قائلة :

– صباح الخير . دعينى ألقى عليك نظرة هذا الصباح .... رائع ! غير أن وجهك مازال شاحبا بعض الشىء . وهذا الثوب يناسبك الى أبعد حد . !

– أعتقد أنك أحسنت الاختيار فيما بعثت به الى ، وأن لم أجد فسحة من الوقت لالقاء نظرة على المجموعة كلها ، بناء على تبكيرنا بالوصول .

– أننى لم أكن أتوقع هذا ، فعلا . ما هى أنباء السطح ؟

وسردت زاريا على سمعها كل ما كان من امر الضابطين وأدبهما الجم . ثم استطردت قائلة :

– لقد تأثرا لشخصية مستر فيردون . آن زيارة مليونير أمريكى للجزائر ، تعنى لديهم دخلا للبلاد وبالذات اذا ما كان قادما للقيام بأعمال الحفريات ، التى من شأنها أن تجتذب السياح وبعض الاثريين لالقاءنظرة على ما يكتشف حديثا .

– يبدو أنك جد متحمسة لمثل هذا العمل ، أليس كذلك ؟

– بلى ، أنه لعمل مثير حقا . وأن كنت لم أتبادل حديثا مع مستر فيردون فى هذا الشأن بعد .

– هونى عليك . فلم يأن الاوان بعد . ماذا أعددتم لليوم ؟

– لست أدرى . كنت أحسب أن مستر مورجان سينقل حقائبك الى الشاطىء ، ولكنه قال انه لا داعى للعجلة .

– بكل تأكيد ، فليس ثمة ما يدعو الى هذا . اذ يجب أن أقوم بمعاينة المتجر أولا للتأكد من صلاحيته .

– هذا ما لم يتبادر الى ذهنى ! انه لرأى صائب .

ونهضت مدام بيرتان ، تتبعها زاريا ، فى طريقهما الى السطح · وتطلعت زاريا فيما حولها ، تجول بعينيها بين مختلف السفن الواقفة بالميناء النصف دائرى ، وتلقى بنظرة متأملة الى تلك المبانى البيضاء التى تمتد الى الحصن العظيم بمدافعه البرونزية التى تطل على الميناء ·

وأسرها هذا الجمال البادى فى كل شىء · وعادت بها الذكرى الى أيام خلت من حياتها حينما كانوا يقومون بحفرياتهم فى الرمال ، وقد ارتفعت أصوات العمال بأناشيدهم ، وتعلقت الانظار بما يكشفون عنه من آثار · انها لتذكر كل هذا ، بكل ما كان فيه من حلو ومر · لقد شاء لها القدر أن تعود الى موطن هذه الذكريات التى انطبعت فى ذهنها وكانها كانت بالامس القريب ·

وكانت مدام بيرتان قد مضت فى طريقها الى القاعة الكبرى · ووقفت زاريا تتامل الحركة الدائبة فوق رصيف الميناء · وفجأة وقع نظرها على تشاك قادما عبر الصقالة · وأذهلتها المفاجأة للحظة ما ثم اندفعت نحوه قائلة :

ـ تشاك ، أين كنت ؟ لقد خيل الى أنك ذهبت الى غير رجعة ·

ـ وهل تعتقدين أننى افعل شيئا من هذا القبيل ؟

ولماذا لم تحطنى علما بذهابك ؟

ـ حسبت أنك كنت مستغرقة فى النوم · علاوة على أننى لم أرد أن أعلن عما اعتزمت ·

ـ لقد أثرت حنق ايدى ·

ـ حقا ؟

ـ انهم مجتمعون الان بالقاعة الكبرى · لقد علم بغيابك حينما طالبنا الضباط بجوازات السفر ·

– وهل استجدت متاعب ؟
– لست أدرى . أنهم لم يعيدوها لنا بعد .
– حسنا ، ومهما يكن من أمر فانه لا يوجد ما يشوب
جواز سفرى ، الذى تم اعتماده . والان ما هى خططهم ؟
– لا أعرف عنها شيئا . لقد علمت من مدام بيرتان
انها تريد أن تغادر اليخت لتقوم بمعاينة المتجر الذى أعد
لها . ولقد عرضت على مستر فيردون خدماتى التى
أعرض عنها .

– لا تلجى فى هذا . دعى كل شىء لوقته . والان ،
فلاذهب لعرض نفسى على الرئيس الفعلى
وتوجه تشاك الى القاعة الكبرى التى فتح بابها ، حيث
استقبله ايدى غاضبا وهو يقول :

– تانير ، ها قد عدت أخيرا . أين كنت بحق السماء ؟
هل ثمة من اعتراض على مغادرتى اليخت لفترة ما ؟
– أكثر من اعتراض . لماذا لم تنبئنا بمغـــادرتك
السفينة ؟

– لم يدر هذا بخلدى . وفى الواقع كان هنالك من
يجب أن ألقاه .

– ومن عساه أن يكون ؟
وكان للسؤال دوى الطلق النارى . واجاب تشاك فى
هدوء :

– صديق ما . صديق لا يعنى أحد من أمره شيئا .
ولو كان قد قدر لنا أن نصل فى الحادية عشرة ، لما كنا قد
التقينا .

– ومن هو ؟
– ومهما يكن من أمر ، فان أقدامه على شىء من هذا
وأطرق تشاك قليلا قبل ان يجيب :

ـ أرجو أن تغفر لي ترددى · في الواقع ، انه لقاء شخصي بحت · لقد كان هذا الصديق ·· سيدة ·

وبدا لزاريا أن ايدى قد طاب خاطرا بما سمع . اذ اردف قائلا ، وقد ومضت عيناه بما ينبى عن هدوء نفسه :

ـ اذن ، فقد كان هذا هو السبب فيما أحطت به نفسك من غموض ؟

ـ تماما ! وان كنت قد احرجتني بأسئلتك الملحة ·

ـ لئن كنت قد صارحتني بحقيقة الامر ، لما كنت قد اثقلت عليك بأسئلتي · غير أنني أحب أن يكون واضحا للجميع ، انه لا يجب أن يغادر أحد ما هذا اليخت بدون اذن مني · أن زاريا ، وأنت معها ، معينان للعمل معنا ، وما دمنا قد وصلنا الى الجزائر ، فثمة الكثير مما يجب أن تقوما به ·

فانبرت زاريا متسائلة :

ـ هل تحب أن نشرع في الاتفاق مع من سيعملون معنا في الحفريات ؟ انه من الخير أن نفعل هذا ، لكي لا يسبقنا الغير الى ذلك ·

ـ هذا رأى صائب ، في اعتقادى . عليكما بالانصراف الى هذا العمل فورا · أو ، لعله من الافضل أن يتولى هذا تانير عنك ، لانني ساكون بحاجة اليك ، زاريا ·

فأجابته زاريا ، وهي تحاول ألا يبدو منها ما ينم عن امتعاضها :

ـ بكل تأكيد ·

غير أن تشاك أردف قائلا :

ـ أليس من الاجدى أن نعلم من مستر فيردون بما يدلنا

على وجهته وما خططله ؟ أن هذا العمل متسع الافاق .

فزجره ايدى قائلا :

– أن عيبك أنك تكثر من الاسئلة . عليك أولا أن تتفق مع العمال ، ودع كل ما عدا ذلك لمستر فيردون وبهذه المناسبة ، اين يمكن أن تعثر بهؤلاء القوم ؟

– قيل لى بأن ثمة مكتبا يتولى هذا الامر ، على مقربة من مسجد سيدى حامد . وسأتوجه الى هذا المكتب لارى ما يمكن عمله .

فانبرى فيكتور قائلا :

– تريث قليلا ريثما اتوجه معك .

– هذا أفضل .

وتبادل كل من فيكتور وايدى نظرة كان لها معناها لدى زاريا ، وأن كانت لم تدرك منها أكثر من انها حلقة من تلك الاسرار التى استغلق عليها فهمها ، منذ أن وطأت قدماها ظهر هذا اليخت . وها هم يتلكأون فى مغادرتهم لليخت ، وكأنهم يجلسون فى انتظار شىء ما . واقترح ايدى على المجتمعين دورة من الشراب غير أن مدام بيرتان اعلنت انها بحاجة الى قدح من القهوة . وقد انضم اليها تشاك فى هذه الرغبة .

وبعد أن تلقى جيم أوامره وغادر القاعة ، سمعت زاريا صوت أحد البحارة يتحدث اليه فى الخارج . ثم قفل جيم راجعا الى القاعة قائلا :

– يوجد رجل ، يا سيدى ، يقول انه يحمل رسالة الى مستر مورجان فقال له ايدى ، وهو ينهض عن مقعده وقد دب فيه النشاط :

– دعه يدخل . فليدخل فورا .

وخيم على القاعة السكون ، وران الصمت على الجميع ، الى أن أقبل رجل قمىء يضع فوق رأسه طربوشا ، ليبادر المجتمعين بقوله وهو يهش فى وجوههم :

ـ رسالة لمستر مورجان ·

فمد ايدى يده قائلا :

ـ الى بها ·

وبعد أن قرأ الرسالة قال باقتضاب :

ـ ما من رد على الرسالة ·

وغادر الرسول القاعة باسرع مما جاء · وتبينت زاريا ان كلا من مدام بيرتان وفيكتور قد تعلقت أنظارهما بايدى · وبينما كانا جالسين فى انتظار ما يتحدث به ، شعرت زاريا بيد تشاك تطبق على ذراعها قائلا :

ـ هلمى بنا ·

وغادر القاعة معا بعيدا ، الى الناحية الاخرى من ظهر السفينة ، حيث بادرته زاريا متسائلة :

ـ فيم كل هذا الغموض ؟

ـ لست أدرى · كما أننى لا أريد لك أن تزجى بنفسك فيما هم فيه سادرون · وانى لاتساءل عما اذا كان من الخير لك أن تغادرى السفينة معى الان ، فى هذه اللحظة ·

ـ أغادر السفينة معك ؟ أغادر اليخت ؟ ولكن ، لماذا ؟

ـ لاننى قلق من أجلك ·

ـ لا حاجة بك لمثل هذا القلق · أعرف أنهم قوم غريبو الاطوار · كما أعتقد انهم قوم منحرفون وان كنت لا أعرف ماذا يقارفون · غير أننى واثقة من أنك الوحيد

الذى يتهدده الخطر. واذا ما كان ثمة من ينبغى له أن يرحل ، فهو أنت ٠

– أننى قادر على حماية نفسى ٠ كما أننى سأقوم على رعايتك بقدر ما فى وسعى ٠

– تشاك ، أرجو أن تصدقنى القول ٠ مم تخشى ؟ وماذا يدور بخلدك عن حقيقة ما يتآمر عليه هؤلاء القوم ؟

– لا يمكننى أن افضى اليك بشىء الان ٠ كل ما أسألك اياه أن توليني ثقتك وتدعى لى حرية العمل ٠

– وماذا عن والدتك ؟

– أنها أحسن حالا ٠ لقد اتصلت بها تليفونيا بعد مغادرتى اليخت صباح اليوم ٠

– أذن ، فهذا هو تفسير اختفائك ٠

– بكل تأكيد ، وأن لم يكن فى وسعى ان أصدقهم القول ٠ لاننى أشعر بأنهم ما كان يطيب لهم أن يكون لى أقارب فى الجزائر ٠

– أنهم قوم غامضون ٠ بودى لو أمطت اللثام عن كل ما يجرى من حولنا ، وعن حقيقة وضع مستر فيردون من كل هذا ٠

– هدئى من روعك ، كما سبق أن قلت لك ٠

وسمعا صوت فيكتور ينادى :

– تانير ! تانير ! أين أنت ؟

وعاد كل من تشاك وزاريا أدراجهما الى القاعة ، ليجدا أن من كانوا يجلسون صامتين ، هادئين ، قد أصبحوا وقد نفد صبرهم ، واستبدت بهم الرغبة فى مغادرة اليخت ٠ واذبرى ايدى يصدر أوامره :

– تانير ، عليك باصطحاب مدام بيرتان الى متجرها ،

وأنت فى طريقك صحبة فيكتور الى مكتب العمال · وأنت زاريا ، فلتأت معى ·

وكان ايدى أشبه بقائد يوزع قواته · وسرعان ما انطلق كل من تشاك ، وفيكتور ، ومدام بيرتان الى وجهتهم ، بينما اتجه ايدى فى طلب مستر فيردون · وهرعت زاريا لتأتى بمعطفها من باب الاحتياط ، اتقاء لبرودة الطقس · وحينما عادت أدراجها سمعت ايدى يقول :

ـ بربك ، هلا أبديت بعض الاهتمام بما يدور من حولك ، ولو تظاهرا · أن لدينا الكثير مما يجب القيام به ·

وسمعت مستر فيردون يجيبه :

ـ لست أدرى سببا لالحاحك هذا · فليس ثمة ما أستطيع عمله ·

ولم يعقب ايدى بشىء ، بل اتجه الى زاريا التى كانت قد اقتربت منهما قائلا :

ـ هيا بنا ، فليس لدينا متسع من الوقت ·

وهبطوا الى الشاطىء ، وأوقفوا سيارة أجرة ابتعدت بهم عن الميناء ، الى أن بلغت بهم مدخل الكاسبا ، حيث غادروا السيارة ، ليواصلوا طريقهم سيرا على الاقدام فى الشوارع الضيقة المظلمة ، التى يكتنفها الغموض ، وتعج بالمارة ، وتصم الاذان صيحات القوم ، وتزكم الانوف الروائح المختلفة ·

ومضوا فى طريقهم قدما · وخيل الى زاريا أن ايدى يمشى على غير هدى · ولكنها تبينت أخيرا انه كان يلقى بنظرة على قصاصة ورق بيده ، من حين لاخر · وكانت

هذه الورقة هى التى حملها اليه الرسول · وأدركت انها لم تكن بأكثر من خريطة كروكية ·

وكانت زاريا تتوق الى أن تستفسر من ايدى عن كنه هذه الورقة ، ولكن مستر فيردون الذى كان يسير فى أعقابهما ، كان ملتزما جانب الصمت ، وقد وضع يديه فى جيبى سرواله · ورأت أنه لا يليق بها ان تستفسر عن شىء مادام مستر فيردون يتبع ايدى صاغرا ·

وانتهى بهم ، المطاف أمام حانوت صغير يعرض مختلف أنواع المصنوعات الجلدية · واستقبلهما التاجر العربى بما عرف عن الشرقيين من أدب وترحاب ، عارضا عليهم ما لديه من سلع جميلة ، دقيقة الصنع ، غير أن ايدى لم يجبه بأكثر من ابراز الورقة التى كانت بيده · وبعد أن ألقى العربى بنظرة فاحصة على الطريق ، دعاهم الى الدخول · ولم يكن الحانوت بأكثر من غرفة صغيرة تكسو جدرانها الستائر · وأزاح الرجل سترا من الجلد ، لترى زاريا من ورائه بابا ضخما · وبعد لحظة قصيرة فتح الباب ودعاهم التاجر للدخول ، على أن يعجلوا بذلك . وخطا ايدى بعد ان أحنى قامته ، يتبعه مستر فيردون عبر الباب ·

وترددت زاريا لحظة ··ثم تطلعت الى الرجل العربى ، الذى وجدته يبتسم ، وأن بعثت هذه الابتسامة ، بكل ما اختلج به وجهه ، الخوف فى نفسها ·

فقد ارتسمت فى وجهه أمارات الجشع والطمع بما لا يدع مجالا لشك ، وهو يتابع بعينيه الرجلين الامريكيين اللذين يجتازان الباب المظلم الصغير ·

●●●

الفصل العاشر

واجتازت زاريا الباب ، لتجد انها ، ولفرط دهشتها في فناء صغير · ولم يكن هذا ما كانت تتوقعه ، وان كانت قد عرفت من قبل أن البيوت العرب مثل هذا الفناء الذى يفتح على الشارع ·

وكانت هناك نافورة صغيرة تضخ رذاذها فى الهواء بين سعف النخيل الذى يناطح الشرفات المطلة على الفناء · وسمعت قوله لكل من ايدى ومستر فيردون ، وان لم يكن بها حاجة الى هذا ، لان لهجة العربى كانت تنم عما يريده منهم · وقال ايدى فى عصبية بادية :

ـ هلا أسرعتم بنا !

وكان يدور بعينيه فيما حوله ، وهو يتفرس مليا فى كل ما يحيط بهم · ثم شاهدت زاريا العربى واقفا مادا يده نحو باب حديدى ، فى صبر نافذ ، فقالت لايدى :

ـ انه يريد منك أن تتبعه ·

فقال لها ايدى محتدا :

ـ ادرك هذا ·

ثم التفت الى مستر فيردون متسائلا :

ـ كورنى ، أو تظن ان كل شىء على ما يرام ؟

ولم يجب مستر فيرودن بأكثر من رفع كتفيه فى استخفاف . ودار بخلد زاريا أنه الوحيد المتمالك لرباطة جأشه . وتساءلت عما حدا به الى الزج بنفسه فى كل ما يجرى ؟ ان شيئا من كل هذا لا يعنيه فى كثير أو قليل ، ومع ذلك فان كل شىء منسوب اليه .

وودت أن تهتدى لتفسير مقنع لكل ما استغلق عليها فهمه . واجتاز العربى الباب ، يتبعه ايدى ثم مستر فيردون ، ومن بعدهما زاريا . وكانت الغرفة التى نفذوا اليها ضيقة صغيرة ، تتوسطها صينية نحاسية تحيط بها مجموعة من الوسائد العربية . وكان جو الغرفة يعبق برائحة المسك والعنبر والبن . وبادرهم العربى قائلا :

– ارجو أن تشرفوا هذا المنزل المتواضع بأن تتخذوا لكم مجلسا .

وقامت زاريا بترجمة ما سمعت ، وجلس ايدى على مضض ، فوق احدى الوسائد . وحذا مستر فيردون حذوه ، وجاهدت زاريا لتكتم ضحكة كانت بسبيل ان تنطلق لما بدا على الرجلين من حرج يدعو للسخرية ، وأخيرا اتخذت زاريا لنفسها مجلسا فوق احدى الوسائد الجلدية المزركشة وكان مستر فيردون أول المتحدثين بسؤاله :

– أو تظن انه هنا ؟

فأجابه ايدى :

– من الخير له أن يكون هنا ، بعد كل ما تحملناه من مشاق .

– ان المرء لا يمكن أن يثق بشىء فى معاملته لهؤلاء القوم .

ثم التفت ايدى الى زاريا قائلا :

ـ سلى الرجل عما اذا كان الشيخ هنا ٠
فاستفسرت منه :
ـ وما هو اسمه ؟
ـ وماذا يعنيك من اسمه ٠ ؟
ـ انه لا يعنينى فى كثير او قليل ، شخصيا غير أن تقاليد العرب تستوجب هذا ٠
ـ فليكن سليه عن الشيخ ابراهيم بن قدور ، الذى سألنا الاجتماع به هنا ٠

واستدارت زاريا الى الرجل العربى الواقف بالباب ٠ وبدا لها أنه كان هو الاخر قلقا نافذ الصبر ٠ وقالت له بالعربية ٠

ـ يريد السيدان الامريكيان أن يعرفا متى سيشرفهما الشيخ ابراهيم بن قدور بحضوره ٠

ولفرط دهشتها تبينت أن الرجل بوغت بما نقلته اليه من تساؤل ٠ وبعد أن تفرس فى وجوههم هرع الى الخارج ٠ وقال ايدى معقبا :
ـ ربما يكون قد ذهب فى طلبه ٠
وانبرت زاريا مستفسرة :
ـ ومن عساه أن يكون هذا الشيخ ؟
فنهرها ايدى قائلا :
ـ لا تتدخلى فيما لا يعنيك ٠٠ ان كل ما يجرى هنا ، من الامور وعليك الا تفشى شيئا مما يدور هنا ٠ هل وعيت ما أقول ؟

وشعرت لاول مرة بأنها لا تبالى بما أراد أن يرهبها به من لهجة آمرة ، منذرة ٠ لعل مرجع هذا الى ما بدأت تشعر به من ثقة فى نفسها ، ومن هذا التغيير الشامل الطارىء على كيانها كله ـ مظهرا ، وصحة ، وحسن

تغذية · وكادت ان تنكر صوتها وهى تعقب على ما سمعته منه قائلة :

ـ ان الاخلاص فى العمل من الاشياء التى لا تباع ولا تشترى · كما اننى لا يمكن أن يدور بخلدى التحدث عن شئون مستر فيردون الخاصة مع أى من يكون طالما كنت اعمل معه ·

ودهشت اذ وجدت ايدى يخفف من غلوائه قائلا :

ـ زاريا ، استمعى الى · اننا أصدقاء · كما تعلمين · ولسنا نريد لأى منا أن يكون مصدر متاعب للاخرين ـ اليس كذلك كورنى ؟

فأردف مستر فيردون قائلا فى هدوء :

ـ أعتقد ان زاريا جديرة بكل ثقة · وارى انك بالغت فى اساءة تأويل ما استفسرت منك عنه ·

فأسرع ايدى يقول :

ـ حسنا ، أننى اعتذر ·

وسمعوا وقع أقدام عن بعد ، فتعلقت انظارهم بالباب . غير ان القادم كان الرجل العربى وقد عاد أدراجه يحمل ثلاثة أقداح من القهوة · وبعد أن تناول كل منهم قدحه قال ايدى :

ـ الا يمكن أن تستفسرى منه عن السبب فى التأخير ؟

فأجابته زاريا :

ان العجلة ليست من دأبهم ·· وليس للزمن حساب لديهم . ولكن ايدى لم يكن ليستقر له قرار او يهدأ له بال · ورأت زاريا أنه خائف أكثر منه غاضب · وبعد أن فرغوا من ارتشاف قهوتهم اقبل عليهم رجل عربى آخر عبر باب كانت تخفيه ستارة · ونهض ايدي قائلا فى لهفة :

ـ الشيخ ابراهيم ؟

ولكن الرجل حرك راسه نفيا · وكان القادم شابا ، حسن الطلعة ، ذهبى البشرة ، يرتدى جلبابا أبيض وعباءة سوداء · تشع عيناه ذكاء ، شأنه شأن العرب من بدو الصحراء · ثم قال فى لغة انجليزية ركيكة :

ـ ان ابن عمى جد آسف ·· اذ لم يستطع الحضور ·

فيسأله ايدى :

ـ ومتى يمكن أن نلتقى به ؟

ـ انه لا يحضر الى هنا ·

وجلس القادم فوق احدى الوسائد ، وصفق بيديه ، وسرعان ما جاء واله بقدح من القهوة واستفسر منهم فى أدب قائلا :

ـ هل استمتعتم برحلتكم من أمريكا ؟

فانبرى ايدى قائلا فى حدة :

ـ دعنا من هذا · اننى اريد الاجتماع بابن عمك ، الشيخ ابراهيم لقد وعدنا أن يلتقى بنا بمجرد وصولنا لماذا لم يحضر ؟

ـ انه يبعث اليكم بتحياته ·· ولكنه لا يأمن الدخول ·· دخول المدينة !

فانفجر ايدى قائلا :

ـ انه لامر مضحك ! ما لم تكن قد قدمت لتتولى عنه ما اتينا من أجله ·

ـ ما من عمل يتم ·· في غياب ابن عمى ·

وجلس مبتسما وكأنه يجد فى الموقف ما يبعث على الابتسام · وتبادر الى ذهن زاريا انه كان يقوم بدور لم تدرك كنهه ·

وسرعان ما رأت ايدى يضرب الصينية النحاسية بقبضته قائلا :

ـ ليس هذا وقت الهذر · اننى الح فى ضرورة الاجتماع بالشيخ فورا ، والا أعدنا ما حملناه اليه من سلع الى امريكا ·

وبدت الحيرة على وجه العربى الذى قال :

ـ لست أفهم شيئا ·

وأسرعت زاريا تترجم ما نطق به ايدى · وترددت لحظة وهى تترجم كلمة « السلع » خشية الا يدرك العربى منها شيئا · غير أنه اتضح لهما مما اختلج به وجهه انها كانت تعنى لديه أكثر مما قدرت · وأردف العربى قائلا :

ـ ان ابن عمى سعيد بحضوركم · غير أن ثمة صعوبات جمة ·

وقال ايدى لزاريا فى صبر نافد :

ـ سليه عما يقترحه ازاء ذلك ·

وقامت زاريا بتنفيذ ما طلب منها · وفوجئت بأن العربى كان يتحرق شوقا لسماع هذا السؤال فأجاب :

ـ يقترح ابن عمى أن تحضروا الى تيمباسا ·· فهناك أكثر من مكان يصلح لحفرياتكم ـ فثمة معبد رائع · ولتأتوا بالسلع معكم ·

فضاقت عينا ايدى وهو يقول :

ـ قولى له أننى لم يبلغ بى الحمق هذا الحد ·

فأسقط فى يد زاريا التى أجابت :

ـ لا أستطيع ترجمة هذا · علاوة على ما فى هذا القول من خشونة ·

ـ وهذا ما أعنيه فعلا · صارحيه باننا لن نغادر هذه

المدينة قبل الفراغ من اعداد كل شيء · انه سوف يدرك ما اعنى ·

ورددت زاريا كلماته · واوما براسه وكأنه يسلم بالامر الواقع ، ثم قال :

ـ ساحيط ابن عمى علما بما سمعت · وسوف تتلقون رسالة الليلة فى ملهى سالم ·· حيث تشاهدون الفتيات الراقصات · واذا لم يكن هذا المكان آمنا ·· ليكن اللقاء هنا ·

ونهض ايدى قائلا :

ـ حسنا ! فلتخبر الشيخ بأنه اذا لم يكن يرغب فيما جئته به ، فأن ثمة كثيرين يتلهفون للحصول على الشحنة ·

ـ عفوا ، اننى لا أفهم شيئا ·

وعادت زاريا تترجم كلمات ايدى وقد راعت ان تصوغها فى قالب مهذب · واوما العربى براسه دلالة على انه وعى ما نقل اليه واردف ايدى قائلا :

ـ والان فلنغادر هذا المكان ·

واستدار صوب الباب الذى دخلوا منه · غير ان العربى قال له :

ـ كلا ، من الباب الاخر · اننا نتوخى الحذر دائما · فربما كان هنالك من الشرطة من يتعقب آثارنا !

واوما الى العربى الاول ، الذى تقدمهم الى الباب الاخر الذى كان ابن عم الشيخ قد اقبل عبره ، ومضوا فى أعقابه يجتازون دهليزا مظلما ، ادى بهم الى فناء آخر ، قد تناثرت فيه قطع من الاثاث والنباتات المهملة · وساروا عبر الفناء الى باب آخر فى الجدار المقابل ، قاموا باجتيازه الى زقاق ضيق انتهى بهم الى درج صخرى ، هبط بهم أخيرا الى الشارع المزدحم بالناس وبالجوانب ·

ولم يحاول أى من ايدى او مستر فيردون أن يتحدث بشىء قبل أن ينفذوا الى أحد الشوارع الرئيسية للمدينة ، حيث استوقفوا سيارة أجرة استقلوها الى الميناء ·

وكان مستر فيردون هو أول من عقب بقوله :

– واها ، لهذا الجو الخانق !

فأردف ايدى قائلا وهو يستشيط غضبا :

– يا للوقت الضائع ! أو نتحمل كل هذا العناء فى مقابل لا شىء !

فانبرت زاريا موضحة :

ستلقون من هذا الكثير · ويجب أن تتحلوا بالصبر فى معاملاتكم من هذا القبيل · ان الاناة من داب هؤلاء القوم ·

فقال ايدى ساخطا :

– اذا ما خيل اليهم انهم سوف يعبثون بنا ، فقد جافاهم الصواب فى ظنهم هذا ·

فقال له مستر فيردون :

– هون عليك ، لا جدوى من انفعالك هذا · فيم هذه العجلة ؟

– هذا هو دابى ، وما فطرت عليه ·

– ان لكل اسلوبه فى التعامل – على حد قول زاريا ·

– لقد خشيت انهم كانوا فى عجلة من امرهم . . حسنا ! سوف نوافيهم فى المكان والزمان المحددين فاذا لم نجد الشيخ ابراهيم هناك فسيكون لى معهم شأن آخر ·

– أرى انه من الخير لنا الا نذكر أسماء فى احاديثنا ·

واردفت زاريا قائلة :

ـ ان هذا الشيخ قد يكون من الشخصيات المعروفة فى المدينة • الا يحسن بنا أن نتحرى عنه ؟

فالتفتت ايدى ناحيتها معنفا :

ـ سمتا ! ان مهمتك هى الترجمة ، وليست التقدم باقتراحات . واعود لأذكرك بأنك يجب الا تتحدثى بشىء مما رأيت وسمعت لاحد ، بما فى ذلك خطيبك •

ـ فى وسعك أن تثق بتشاك • انه فى مثل وضعى تماما •

ـ تلك هى وجهة نظرك • اما عن رايى ، فاننى لا أثق بسواك • وبناء على ذلك ، فأنك لن تفضى اليه بشىء •

وكانت زاريا تريد أن تسترسل فى مجادلته ما لم تكن السيارة قد توقفت بهم عند رصيف الميناء وغادروا السيارة • وأستفسر ايدى من البحار القائم على الحراسة عن عودة فيكتور :

ـ هل عاد مستر جاكوبيتى ؟

ـ أجل يا سيدى انه فى القاعة الكبرى •

واتجه ايدى الى القاعة مباشرة وفى أعقابه زاريا ، التى كانت تتحرق شوقا للقاء تشاك ، الذى وجدته جالسا بجوار فيكتور • وبمجرد دخول ايدى ، نهض عن مقعده متباطئا •

وأستقبل فيكتور ، ايدى قائلا :

ـ لقد انجزنا ما عهدت به الينا • ان الاجور مرتفعة •

وكان ايدى بادى الانفعال • وبعد أن صب لنفسه كأسا استدار الى تشاك قائلا :

ـ اريد أن انفرد بفيكتور • هل لك فى اصطحاب زاريا الى المكتب المعد لكما ؟

ـ بكل تأكيد • معذرة اذا كنا لم ندرك هذا •

ـ وثمة شيء آخر ·· اذ لا يجب أن يغادر أحد منكما اليخت دون اذن منى ·

فانبرى تشاك مستفسرا :

ـ هل من داع الى هذا الخطر ؟

ـ ليس من دأبى أن أتقدم بايضاح لاوامرى · انه مجرد أمر ·· انه من مستر فيردون رئيسك

ـ لست ادرى كنه هذا الامر · وانه ليبدو لى وكأنك تحتجزنا كسجينين ·

ـ اننا ندفع لكما أجركما · اننا بحاجة اليكما هنا · هل ثمة لبس فيما أقول ؟

ـ كلا ، مطلقا !

ـ حسنا · وها قد عدنا الى ما بدأنا به · انه امر خاص بالعمل ، وأوامر العمل يجب أن تطاع ·

ـ والا ، فسنمزق اربا ويلقى بنا فى البحر ـ مع اتخاذ اللازم لكى لا لا نطفو على السطح .

فنهض ايدى يواجه هذا التحدى الساخر صائحا :

ـ والان فلتستمع الى ، يا رجل ! لقد سبق أن قلت لك أنك لم تدع للانضمام الينا ، وأن عليك ان تصدع بما تؤمر ، والا ساءت العاقبة ·

وكانت لهجته تنذر بالويل والثبور ، وقد فاض صوته كراهية وحقدا · ومدت زاريا يدها تربت بها على ذراع تشاك قائلة ، لتضع حدا لما يشتعل بالموقف ويضطرم :

ـ لا تجادل ·

فابتسم تشاك ، وهو يتطلع الى ايدى معقبا :

ـ بكل تأكيد ، يجب ألا اجادل · سيدى ، لسنا سوى ارقاء يجب ان يصدعوا بما يؤمروا به ·

ثم تأبط ذراع زاريا مغادرا القاعة · وبعد أن اوصد الباب تقدمها قائلا :

ـ هلم بنا الى الطريق الاسفل ·

ولما وجدها تتجه صوب المكتب ، قال لها هامسا :

ـ كلا ، لا تخاطرى هلمى بنا الى غرفتك ، حيث نكون بمأمن ·

وامتثلت لرايه · وبعد أن صارا فى الغرفة واوصد تشاك الباب ، راح يجول بعينيه فيما حوله للتأكد من عدم وجود ميكروفونات فتساءلت زاريا :

ـ أتراهم يتسمعون ؟

ـ لست أستبعد هذا · سنتوجه بعد لحظة الى المكتب لاطلعك على بعض ما قمنا بمشتراه · لقد جعلت فيكتور يدفع أكثر مما كان فى تقديره ، وكنت لا أفتأ أستحثه على ذلك بترديدى ؟ ان مستر فيردون لا يرضى بأقل من هذا » ·

ـ أو حقا هذا ؟

ـ بكل تأكيد ·

ـ يبدو لى انه لا يتعجل البدء بحفرياته · لقد امضيت صباحا غير عادى · يجب أن أقص عليك ·

ثم امسكت عن الكلام · فسألها تشاك :

ـ ماذ جرى ؟

ـ سألنى ايدى الا احيطك خبرا بشىء · لقد انسيت ذلك ·

وأخذ تشاك بيدها ليجلسا فوق حافة الفراش قائلا :

ـ استمعى الى · لا اعتقد انك تدينين بالكثير لهؤلاء القوم · اولا ، لانهم لم يدفعوا لك مرتبا بعد · ثانيا ، لانهم ليسوا من هؤلاء القوم الذين يجب أن تقيمى لهم وزنا · ان فيردون هو خيرهم ـ جميعا ـ ولكن هذا ليس

كل شيء · واذا سألتيني رأيي ، لقلت لك أن كلينا في وضع لا يحسد عليه ·

ـ ولماذا لا نتصل بالشرطة ؟

ـ وماذا لدينا مما يمكن ان نبلغ به الشرطة ؟ او نقول لهم ان من تعمل معهم قوم غريبو الاطوار وانهم يحاولون الاتصال بشيخ او بآخر ؟

ـ واني لك هذه المعلومات ؟ انني لم أسرد عليك شيئا بعد ·

ـ لقد تسنى لي بما حصلت عليه من معلومات قليلة من كيت ، أن أضع النقط فوق الحروف · ومع ذلك ، فليس لدينا من الحقائق ما يثير اهتمام الشرطة أو غيرهم في الوقت الحاضر ـ وليس علينا ، ازاء هذا ، سوى أن نرقب وننتظر ان لدى فكرة لا بأس بها ·

ـ وماذا عساها ان تكون ؟

ـ من الخير لنا أن يستقل كل منا بعمله · وبالذات لأنني لا أريد أن أزج بك بأكثر مما أقحمت به نفسك .

ـ انني لم أزل عند رأيي من ضرورة الاتصال بالشرطة ، لنفضي اليهم بشكوكنا · وعلى الاقل فأن هذا الاتصال سوف ييسر لنا سبيل الاحاطة بالكثير عن الشيخ ابراهيم بن قدور ·

وبدت امارات الاهتمام على وجه تشاك وهو يستوضحها :

ـ بن قدور ! هل قلت قدور ؟

ـ رباه ! كان من المفروض الا انطق بهذا الاسم · غير انه يبدو لي أنك تعرف الكثير ·

ـ لم أكن اعرف الاسم · اذن فهو من يحاولون الاتصال به ، أليس كذلك ؟ ان الامر يزداد تشويقا ·

اظن انه قد آن لك ان توضح لى ما استغلق على فهمه ·

– ما هى خطتهم ؟ متى سيتم بينهم اللقاء ؟

– الليلة ، فيما أعتقد · لقد أبلغوا ايدى بالتوجه الى ملهى سالم · ومن المفروض ان يجتمع بالشيخ هناك ·

– اننى جد واثق من أن الشيخ لن يوافيــه فى هذا المكان · سنرى ماذا يحدث ·

– وهل سيؤذن لنا بمغادرة اليخت ؟

– يجب أن نغادر اليخت بوسيلة او باخرى · اننى اجيد السباحة ·

– ولكنك لن تدعنى هنا بمفردى ؟

وامسك بيديها قائلا :

– هلا اوليتينى اذنا صاغية ؟ اعدك باننى سأظل ملازما لك كظلك كانت هذه هى رغبتك هذا وعد منى ·

– هذا ما كان يودى ان اسمعه منك · اننى لا اخشى شيئا ما دمت الى جانبى ·

– أو هذا هو كل ما تبغينه منى ؟ الدرع الواقى ! اولا يوجد سبب آخر ؟

واشاحت عنه بوجهها · آه ، لو استطاعت أن تصارحه بحقيقة شعورها ، وأن تقول له أن لديها أكثر من سبب يدعوها لان تستبقيه الى جانبها ، وأن كل لحظة تقضيها معه هى حياة بأسرها !

– اظن أنه قد آن لك أن توضح لى ما استغلق على

وطافت بذهنها شتى الخواطر · وجميعهــا يتصــل بوضعه منها ووضعها فيه · أتراها ليست بعــرض عابر فى حياته ، كما تراه ؟ أم لعله لا يحلها من نفسه بأكثر من فتاة شاءت ظروف قهرية أن يلجأ اليها ويلوذ بجوارها ؟

وكانت تحس بأنه يتأمل المنظر الجانبى لوجهها ،

دارسا سماته ، أنفا ، وفما ، وشعرا أتقن تصفيفه ·
وبادرها قائلا في هدوء :

– أنك بحاجة الى من يقوم على رعايتك ·

– ليس هذا بالامر اليسير · ان ، كما ترى ، لم تعرف عنى شيئا · أننى وحيدة فى هذه الدنيا ·

– أليس لك أقارب ؟

– لا أعرف لى أقارب ·

– بما يعنى أنه فى حالة اختفائك ، فلن يشعر بهذا احد · بربك لا تخبرى ايدى بذلك ·

– ترى ماذا يدور بخلدك ؟

– لا شىء · غير أننى أشير عليك بعدم الافضاء بشىء عن ظروفك العائلية لاحد من هذه العصابة .

– وهذا هو ما عقدت العزم عليه ·

– اى زاريا الصغيرة العزيزة ! انك متناهية الرقة ، بحيث يخيل الى اننى لو لمستك فكأنما لمست جسما هشا قابلا للكسر ، ومع ذلك ، فأننى أشعر فى قرارة نفسى بأنك جسورة ،شجاعة ، أكثر مما قد يبدو لكثيرين ·

– لست كذلك · أننى جبانة أخشى مواجهة الامور · مترددة فى كل ما أتخذه من قرارات فى حيـــاتى وفى الحق ، أننى طالما كنت نموذجا للفشل ·

– من قال لك هذا ؟ ليس هذا دأبكن – ان تغمطن قدركن ·

– بودى لو كان شعورى مخالفا لما تحدثت به · اريد أن أكون شديدة الثقة بنفسى – الامر الذى لم أشعر به من قبل ·

وتهدج صوتها ، وكأنها قد ناءت بحمل الماضى الثقيل ، من بؤس ، وشقاء وحرمان · وما ان أستدارت الى

تشاك ، وقد أغرورقت عيناها بالدموع ، حتى رأته يتأملها بعينين تفيضان رقة وحنانا ، وهو يقول لها :

- سأحاول يوما أن أطلعك على الجانب الاخر من الحياة - الجانب المضيء البراق . وليس علينا الان سوى أن ننجو بأنفسنا من هذا المأزق . أننى اعول عليك فى الكثير ، وأرجو الا تخذليننى .

- سأبذل أقصى مافى وسعى .

ورفع يدها يطبع عليها قبلة ، قائلا :

- هذا هو كل ما أسألك اياه .

ونهض مستطردا :

- هلمى بنا لاعرض عليك ما تم شراؤه . وحذار ان يصدر عنك ما يمكن أن يكون محل مؤاخذة من تلك الاذان المتفتحة التى تحيط بنا .

ووقفت تتطلع اليه ، وتلاقت منهما النظرات ، وشعرت بانها أقرب ما تكون اليه ، وسكنت فى مكانها كالمأخوذة لا تستطيع حراكا .

وبينما كانت بسبيل أن تخطو نحوه ، مدركة أنه كان يترقب هذه اللحظة ليحتويها بين ذراعيه ليطبع فوق شفتيها قبلة يودعها كل مشاعره ، طرقت مسامعهما أصوات ضوضاء وجلبة . وسمعا مدام بيرتان تصيح منددة بايدى ، ووقع خطوات ثقيلة مصحوبة بصفق الابواب .

وفى هدوء ، ودون ان ينبس احدهما بكلمة ، اتجهت زاريا صوب الباب الذى فتحه لها تشاك لتتقدمه الى الدهليز ، حيث وقفا ينصتان لما يجرى فى الطابق الاعلى . وقال تشاك معقبا :

- لقد استجد مالم يكن فى الحسبان .

- أظن ان الامر يتصل بموضوع متجرها . ربما كانت

تتوقع أن تجده بخلاف ما رأته عليه · لقد خاب فألها :

وقال تشاك مبتسما ، وقد أصمت آذانهما صيحات مدام بيرتان :

ـ أنها تصارح ايدى برأيها فيه :

وكان كل من مدام بيرتان وايدى يتبادلان التراشق بالالفاظ فى حدة وانفعال · وكان موضوع الخلاف ، على حد قول زاريا ، هو المتجر وعدم صلاحيته · كما سمعا صوت كلا من كيت وفيكتور مختلطا بصيحات ايدى ومدام بيرتان · وهمس تشاك فى اذن زاريا معقبا :

ـ اذا تشاجر اللصان ، اكتشف امر السارق ·

وفجأة ، راح كل من تشاك وزاريا يحدقان النظر فيما امامهما · فعلى بعد بضع ياردات عبر الدهليز ، كان باب غرفته مفتوحا ، حيث أبصرا باثنين من رجال الشرطة الفرنسيين واقفين أمام منضدة الزينة متطلعا مليا الى درج مفتوح · وحينما شعرا بوجود تشاك وزاريا تقدم أحدهما منهما مستفسرا بالفرنسية :

ـ أتراك المسيوتانير ؟

فأجاب تانير بالفرنسية ، وقد استبدت به الدهشة والحيرة :

ـ أجل ·

ولم يكن ثمة من شك ، فى أن الغرفة قد عبثت بها أيدى رجال الشرطة · غير أنه كان واضحا ان ما أسترعى انتباه الشرطة ، كان علبة سجائر ، وقد وجد بأسفلها علبتان من طرازها · فقال تشاك :

ـ بماذا عثرتم ؟

فأجابه الشرطى قائلا ، ولما يتم تشاك سؤاله :

ـ لا معدى لنا من القاء القبض عليك لحيازتك مخدرات خطيرة ·

ـ مخدرات خطيرة !

ـ ليس بى حاجة يا سيدى لايضاح أكثر . ان هذه السجائر من الحشيش وغير مصرح بدخولها هـذه البلاد .

ـ لست أدرى ..

وكان تشاك بادى الحيرة وقد اذهلته المفاجأة . غير انه لم يتم ما كان بسبيل قوله ، لانه سمع صوتا يقاطعه قائلا :

ـ اسف ، مستر تانير . ولكننى لم أكن لاوافق على استغلال يخت مستر فيردون فى مثل هذه التجارة الحقيرة . ولقد أوضحت للضابطين ان حيازة المخدرات من الامور التى تعافها أنفسنا .

وكان القادم هو ايدى ، الذى كان يتحدث بانجليزية . وحاولت زاريا ان تعترض ، ولكنها أدركت ان احدا لا يصغى اليها . ووقف الرجال الثلاثة يحدجون تشاك بأنظارهم . وانبرى الضابط يقول له :

ـ يجب ان تصحبنا الى ادارة الامن .

فشهقت زاريا رعبا ، وأن كان تشاك قد ضحك وهو يقول لايدى :

ـ فليكن . لقد فزت بما تريد . وأن كنت لم أتوقع هذا .

ثم أطلق ساقيه للريح ، قبل أن يدرك أحد ما هو فاعل . وسمعت وقع أقدامه وهو يسرع مرتقيا الدرج الى ظهر اليخت . وصاح ايدى :

ـ فلتسرعوا فى أثره ، قبل ان يلوذ بالفرار .

فقال له الضابط فى هدوء :

ـ ثمة سيارة بها اثنان من رجالنا فوق الرصيف . لقد كنت أتنبأ بحدوث شىء من هذا القبيل .

ثم سمعوا صوت ارتطام جسم بالماء . وهرع جميعهم

الى السطح · وكانت زاريا أسبقهم ، لترى تشاك يسبح بعيدا عن الخيت ، فى اتجاه الجانب الاخر من الميناء . وسمعت ايدى ينذر رجال الشرطة بالويل والثبور · ورأته يقف وقد أسقط فى يده · ومع ذلك ، فانه لم ييأس ، بل واصل صياحه يستحث رجال الشرطة أن يفعلوا شيئا · فما كان من الضابط الا أن انتزع مسدسا من منطقته ، وتأهب لاطلاقه · ولكن زاريا أسرعت اليه متوسلة :

ـ كلا ، كلا ! لا يجب ان تفعل شيئا من هذا القبيل !

غير أن ايدى كان يواصل الحاحه على الضابط · فرفع الاخير ذراعه ليطلق النار · وما أن فعل هذا ، حتى نسيت زاريا كل شىء فيما عدا حرصها على سلامة تشاك · فألقت بنفسها على الضابط تقبض على ذراعه ، وتقول بالفرنسية :

ـ كلا ، كلا ! لا تقدم على هذا · ثمة خطأ ما · لا يجوز أن تطلق النار على رجل أعزل · أتوسل اليك ·

وكانت تنتحب ، وقد تسلقت بذراع الشرطى · واذا بيد تمتد اليها وتنجح فى ابعادها عن الضابط ، الذى استطاع ان يرفع ذراعه بمسدسه ·

غير أن تشاك كان قد ابتعد عن الانظار ، واختفى بين عديد السفن الراسية بالميناء · واحتد الضابط معنفا زاريا بقوله :

ـ ما كان لك أن تسلكى هذا المسلك · ماذا يعنى هذا الرجل لك ؟

ـ أنه خطيبى ·

وكانت زاريا تغالب دموعها كما تغالب آسريها · غير ان الضابط الفرنسى سرعان ما خلى بين قبضته وبين ذراعيها · أن الفرنسيين خير من يقدرون المشاعر

النسائية ، والحب لديهم يغفر كل شىء وصاح فيهم ايدى قائلا :

– فيم وقوفكم هكذا مكتوفى الايدى ؟ الا يمكن ان تلحقوا به ؟ أنه لابد وأن يخرج الى الشاطىء فى مكان ما ·

وأصدر الضابط الاعلى أوامره لاثنين من رجاله · وهرع أحدهما الى جهاز التليفون والاخر الى سيارة الشرطة · ثم قال الضابط لايدى :

– سنقوم باعتقاله بمجرد خروجه من المــاء الى الشاطىء ·

وأراد بقوله هذا أن يهدىء من روع ايدى الذى كان يضرب الارض بقدمه غضبا · ثم اتجه الضابط الى زاريا محييا وهو يقول :

– أننى مقدر لموقفك · غير أننى أنصحك بعدم التعرض لرجال الشرطة الفرنسيين أثناء تأدية واجبهم ·

ثم قام بتحية ايدى مغادر اليخت · ورفع ايــدى بقبضتيه الى السماء :

– يا لهؤلاء الحمقى الاغبياء ! او يخيل اليهم ان فى وسعهم اعتقال رجل بهذه الوسائل ؟ ومع ذلك ، فأنه لابد واقع بين أيديهم !

فتساءلت زاريا وهى تضغط على مخارج الكلمات :

– ولئن تم هذا ، فماذا بعد ؟

– لسوف يقدم للمحاكمة · ان حيازة المخدرات من الجرائم التى يؤخذ مرتكبها بكل شدة ·

– أننى لا أصدق انه كان يعتزم تهريب هذه السجائر ، فلم يسبق ان وقع عليها نظرى من قبل ·

ـ أخشى أنهم لن ياخذوا بشهادتك ٠

وافترجت شفتاه عن ابتسامة خبيثة وهو يوليها ظهره مبتعدا . ووقفت زاريا مترددة . ودار بخلدها أن تلحق برجال الشرطة ٠ ثم عدلت عن هذا الرأى لما فيه من مخاطرة ، واثقة من ان ايدى سيحول بينها وبين ذلك ٠

ثم تطلعت بأنظارها عبر الميناء ٠ ترى هل تسنى لتشاك أن يبلغ الشاطئ في سلام ؟ وأمضها ألم هذه الجهالة وتلك الخيبة ٠ ترى ماذا سيقع له؟ وكيف ستكون النتيجة ؟ والى أين ستنتهي الامور ؟

وظلت فى مكانها ، تتأمل زرقة المياه الى آن شعرت بأنها لم تعد ترى منها شيئا لفيض مااغرورقت بهعيناها من موع ٠

وهمست تناجى حبيبها وتتضرع الى ربها :

ـ آواه ، يا حبيبى ٠ ليكن الله معك !



الفصل الحادى عشر

توقفت بهم السيارة الاجرة عند طرف الزقاق الضيق . ولم يكن ثمة من ضوء ، بخلاف ضوء القمر ، الا من هذا الضوء المنبعث من المصباح الازرق المتدلى اعلى باب عادى . وتساءل ايدى :

ـ هنا ؟

فأومأ السائق باصبعه نحو المصباح الازرق قائلا :

ـ بيت سالم .

فعقب فيكتور :

ـ يا له من مكان !

أما زاريا فقد كانت غارقة فى خواطرها القلقة من اجل تشاك . وكانت فريسة لعدة هواجس ، وهى تحاول أن تبلغ من تفكيرها الى نتيجة مرضية . علاوة على أنه لم يكن لها حول ولا قوة وهى شبه أسيرة بين أيدى افراد هذه العصابة الزنيمة . ولم يكن فى وسعها سوى أن تعتزل فى غرفتها أثر الحادث ، مرددة اسم تشاك فى يأس القنوط .

وراحت تستعرض كل ما مر بها من أحداث ، محاولة ان تهتدى الى تفسير لبعض ما استغلق عليها فهمه لابد وأن ايدى هو الذى دس على تشاك هذه السجائر ، اعتقادا

منه بأن هذه هى خير وسيلة للتخلص منه · ام ترى أن تشاك كان له هدف آخر من انضمامه الى هذه الرحلة ؟ وكانت فى حيرة من أمر كل شيء · ماذا تصدق ؟ وبأى خاطر تستمسك ؟ ان الشيء الوحيد الذى لا يقبل المناقشة ، انها تحب تشاك ، مهما يكن من أمر ما فعل · انها تحبه الى هذا الحد الذى شعرت عنده بأنها على اتم استعداد للتضحية من أجله بكل شيء ــ بما فى ذلك حياتها ، حينما كان الضابط يحاول أن يسدد نحوه رصاصته القاتلة ·

وكانت لا تفتأ تردد فى غرفتها أنها تحبه ، الى أن ابلغت بالاستعداد للهبوط الى الشاطىء فى الساعة التاسعة · واستجمعت شجاعتها لتصعد الى قاعة الطعام قبل موعد العشاء بنصف ساعة · وكان يضاعف من شجاعتها ما استجد من ثقة بنفسها، كفتاة لا تقل عن نظيراتها مظهرا ، وزينة ، وهنداما · وليس من شك فى ان الحب كله له أكبر الفضل فيما طرأ عليها من تغيير نفسى · أنها لم تعد هذه الفتاة المنطوية على نفسها المترددة وجلا ، التى استقلت القطار من محطة فيكتوريا ، مخلفة وراءها هذا الماضى البغيض، وهى مقبلة على مستقبل مجهول أقل ما فيه هو المخاطرة ·

وجلست الى مائدة العشاء تخرج ايدى مورجان بنظرات عدائية · وكان يبدو قلقا بخلاف عادته · بينما كان مستر فيردون ، هو الاخر ، سارح الطرف شارد الذهن · اما فيكتور ، فكان مكبا على الشراب لينسى كل متاعبه ·

ولم تكن مدام بيرتان موجودة فى قاعة الطعام · اذ انها قد آوت الى فراشها عقب ما كان بينها وبين ايدى من ثورة عارمة . وعلى الرغم من ان كيت كانت جالسة الى

مائدة الطعام الا أنها لم تكن تتناول شيئا منه ، بل كانت تفرغ فى جوفها ، الكأس تلو الكأس ، كى تهدىء من ثائرة نفسها • وبينما كانت زاريا تخطو داخل قاعة الطعام سمعت ايدى يقول لكيت :

– قلت لك ، لا ! انك لن تصحبينا الليلة •

فأجابته كيت :

– ولماذا ؟ لقد كنت أؤم أماكن أسوأ من هذا ، كما تعرف جيدا •

– ليس هذا هو بيت القصيد • ونحن مضطرون الى اصطحاب زاريا لالمامها باللغة العربية ومهما يكن من أمر فهو مكان لا يناسب النساء •

ولما حاولت كيت ان تجادله فى ذلك ، آثر ان ينهى المناقشة بقوله :

– فليكن ، ما دمت تريدين • ولكن ، ليس هذه الليلة بالذات !

– أرجو أن تفسد كل خططك !

ثم أطبقت شفتيها الى أن فرغوا من عشائهم • وكان ان سرت عدوى الصمت الى سائر الجالسين الى المائدة • وفى تمام الساعة التاسعة ، نهض ايدى عن مقعده ، متجها بسؤاله الى زاريا :

– هل اتخذت أهبتك ؟

– أجل •

ونهضت ترتدى معطفها المخملى الازرق ، الذى كان من احسن ما أتحفتها به مدام بيرتان • وتبعت ايدى الى حيث كانت السيارة الاجرة فى الانتظار • وكانت صورة تشاك لا تغيب عن مخيلتها • وكانت واثقة من أنه سرعان

ما سيخف الى نجدتها ، مهما يكن من أمر ما يتعرض له من مخاطر · أم تراه قد هرب الى منزل والدته حيث يمكن أن يختفي عن أنظار الشرطة ·

وكانت قد سألت عن جيم ، الذى عرفت أنه فى يوم عطلته · ثم نازعتها نفسها أن تتحدث الى القبطان بشأن تشاك ، ولكنها خشيت أن يكون ثمة ما لا علم لها به ، مما قد يكون فى اثارته اساءة لوضع تشاك ·

وكانت قد تسللت من غرفتها الى غرفة تشاك ، بعد ارتداء ثيابها للعشاء ، لتلقى بنظرة فاحصة ، لعلها أن تعثر على أدلة أخرى ·

ووجدت أن كل شيء فى الغرفة قد أعيد الى مكانه ، وكأنها لم تقلب رأسا على عقب وفتحت أحد الادراج تلقى نظرة على ما به من حاجيات كان من بينها علب سجائر أمريكية · ووقفت تحدق النظر فيها وقد تبادر الى ذهنها أن ايدى قد دس على تشاك تلك السجائر الاخرى ليوقع به · وبينما كانت تهم باغلاق الدرج ، وقع نظرها على ما استرعى انتباهها ، فمدت يدها تخرجه · ولفرط دهشتها وجدت أن هذا الشيء هو زجاجة لصبغة الشعر · وأمسكت بها بين يديها تحملق فيها ، قبل أن تعيدها الى مكانها ، ثم تغادر الغرفة · ولم تفارق صورة هذه الزجاجة مخيلتها أثناء العشاء · صبغة للشعر ! صبغة للشعر داكنة ! اذن فهذا هو السبب فيما يبدو به شعر تشاك من لون يتعارض مع لون عينيه السنجابيتين · فلطالما جال فى خاطرها أن سماءه لا تتفق مع لون شعره · ترى ، ماذا يدعوه لهذا التخفى ؟ أو عسى أن تكون عويناته جزءا من هذا التخفى ؟

وكانت تجلس فى السيارة ملتزمة جانب الصمت ·

ولم تحاول أن تتبين فى أى اتجاه تسير بهم السيارة وكان طول المسافة وحده هو الذى أدركت أنهم اجتازوا المدينة الى الضواحى ·

وكان مفاجأة لها بعد أن غادروا السيارة واجتازوا الباب الثقيل ليهبطوا الدرج الى قاعة فسيحة ، مستطيلة الشكل - أن تجد هذه القاعة وقد ازدحمت بمختلف الناس · وكان فى القاعة عدد كبير من الموائد التى تحمل مختلف المشروبات ·

ولم يكن ثمة من شك فى أن زيارتهم كانت متوقعة · اذ تقدمهم عربى بمجرد وصولهم الى ايوان جانبى · ووضع الساقى الذى تقدمهم زجاجة من الويسكى فوق منضدة متوسطة الارتفاع · وبعد أن أتى بأربعة كؤوس وضعها بجوار الزجاجة ، غادر الايوان دون أن يقول شيئا ·

وراحت زاريا تجيل النظر فيما حولها · وتبينت فى العرب الموجودين أنهم ليسوا من عرب المدن ، بل كانوا من عرب الصحراء - ممن لفحت الشمس بشرتهم ، وضمرت أجسادهم ، واشتد عودهم وكانت فى أعينهم نظرة النسور الحادة ، وفى شفاههم امارات شدة المحال ·

وبدأت زاريا تتساءل عما أتى بهم الى مثل هذا المكان ، ولكنها سرعان ما وجدت الجواب بمجرد وقوع نظرها على الموسيقيين العرب الذين اتخذوا لهم مجلسا فى أقصى القاعة · وبعد قليل ، شرع ضباط الايقاع فى الدق على طبولهم · وأعقبهم عازف الناى ونافخ البوق · ثم انفجرت الالحان ، التى صاحبها رقص فتاة يتدلى من أذنيها قرطان كبيران والتفت حول عنقها قلادة من

العملات الذهبية · وحمى وطيس الرقص ليساير اللحن الصاخب ، فى بدائية وحركات مثيرة ·

وعلى حين غرة من الجميع ، وبينما كانت الانظار متعلقة بالراقصة ، سمعوا صوتا يقول :

ـ رائعة ، أليس كذلك ؟

وكان حديثه بالعربية · واستدارت زاريا لترى عينين سوداوين تتألقان فى وجه نحاسى أسمر · وسألته :

ـ من عساك أن تكون ؟

والتفتت الى كل من ايدى ومستر فيردون · وبادر ايدى الرجل قائلا :

ـ أو تراك الشيخ ابراهيم بن قدور ؟

فأومأ اليه القادم قائلا بالعربية :

ـ ما من أسماء ، ولتخفض من صوتك ·

وقامت زاريا بالترجمة · وأمرها ايدى :

ـ سليه عما اذا كان قد جاء بالنقود .

وبعد أن سألت زاريا الشيخ عن ذلك ، أومأ برأسه ايجابا وهو يقول :

ـ انها مودعة سرج جوادى · ما هو عدد ما أتوا به معهم ؟

وبعد الترجمة ، رفع ايدى ثلاثة أصابع ، ثم بسط راحته . فقال الشيخ لزاريا :

ـ قولى للامريكيين ، أن اللقاء سيكون فجرا عند الكتارة ـ المدافن الكائنة خارج المدينة ـ ان شاء الله ·

ـ وقامت زاريا بالترجمة · وأطرق ايدى لحظة قبل أن يقول :

ـ أن الفجر ساعة مبكرة · آن مغادرتنا اليخت فى مثل هذه الساعة قد يلفت الينا الانظار .

– الامر الذى لا يمكن أن يحدث ما دمتم فى طريقكم الى حفرياتكم . وقد رأت زاريا أن تعقب بهذا قبل أن تقوم بمهمة الترجمة . فما كان من ايدى الا أن وافقها قائلا :

– الحق معك . قولى له أننا سنوافيه فى المكان والزمان المحددين ثم قولى له اننا لن نسلم شيئا قبل قبض الثمن . واننى أريد النصف الان .

وأعادت زاريا بالعربية ما سمعته . وضاقت عينا الشيخ متسائلا :

– النصف ؟ وانى لى أن أثق بهم ماداموا لا يثقون بى ؟

وأدرك ايدى مما ارتسم على وجه الشيخ ما كان يعترض به ، فقال :

– قولى له أن هذه هى شروطى .

وصدعت زاريا بالامر . وقال الشيخ ردا على ذلك :

– مهلا !

وخطا عبر منفذ آخر للايوان كانت تخفيه بعض الستائر . وجدير بالذكر أن أحدا من الموجودين بالقاعة لم يحس بقدوم الشيخ أو بانصرافه لانهم جميعا منصرفون الى متابعة الراقصة فى حركاتها التى بلغت الذروة وما أن فرغت هذه الراقصة من أداء دورها ، حتى اختفت ليحل محلها راقصتان لا تتجاوزان الرابعة عشرة من عمرهما ، لتؤديا « رقصة الخناجر » . وقد باد لزاريا أن حركاتهما اقرب الى الطقوس الدينية منها الى الرقص الشرقى المعروف .

ولم تكد زاريا تتابع الرقص وتنصرف اليه ، حتى كان الشيخ قد عاد أدراجه ، ليقف الى جانب ايدى ويسلمه شيئا ما مستظلا بعباءته دون أن ينطق بكلمة . ولم تكن

زاريا قد تبينت ما قدمه الشيخ الى ايدى ، وان كانت قد رأت ايدى يحصي أوراقا مالية ، وكلا من فيكتور ومستر فيردون وقد تعلقت انظارهما بها · وقد خيل اليها انهم جميعا قد أنسوا وجودها ، حتى أنه قد تبادر الى ذهنها أن تتسلل من الايوان عبر الستائر دون أن يشعروا بذلك · غير انها سرعان ما عدلت عن هذا الهاجس لبعد المسافة بينها وبين المدينة ·

ورأت أن تترقب سنوح فرصة مواتية أثناء عودتهم الى اليخت ·

وبعد أن فرغ ايدى من العد ، نهض الشيخ منسحبا فى هدوء ، كما كان قدومه · وكانت « رقصة الخناجر » قد انتهت ، واقبلت فتاة أخرى تؤدى رقصة ثالثة · وفى غمار الضوضاء التى صاحبت رقصاتها ، انتهز ايدى الفرصة لينهض ، ملقيا على المائدة بورقة مالية فئة الالف فرنك ، ثم مضى يتبعه الاخرون عبر الباب الذى انصرف منه الشيخ ·

ووجدوا أنهم فى دهليز ضيف مسقوف . انتهى بهم الى باب سميك ، دفعه ايدى ليؤدى بهم الى زقاق يرتفع قليلا عن مستوى باب المصباح الازرق · وقد خيل اليهم أنهم فى مكان قد اقتطع من العالم بعيدا · وتساءل ايدى :

ـ كيف سنوفق الى سيارة أجرة ؟

وما أن فرغ من ترديد كلماته هذه ، حتى وجدوا أمامهم صبيا عربيا كان ظهوره على غرة منهم وبادرهم الصبى بسؤاله ، فى انجليزية سليمة :

ـ سيارة ، يا سيدى ؟

ـ أجل ، وبسرعة !

وهرع الصبى الى نهاية الزقاق ، حيث أطلق صفيرا

من بين شفتيه سرعان ما أقبلت سيارة تتهادى على أثره . وبعد أن منح ايدى الصبى بضعة دريهمات ، استقل جميعهم السيارة ، بعد أن أخبروا السائق بوجهتهم .

وقد حرص الصبى على أن يمسك بالباب بينما كانوا يصعدون الى السيارة ، امعانا منه فى أكرامهم وحينما كانت زاريا تهم بالصعود الى السيارة سمعت الصبى يقول شيئا بالعربية . ولم تصدق أذنيها لاول وهلة . ثم ادركت بعد لحظة أن ما سمعته كان ما تتلهف شوقا الى سماعه .

وكانت جملة قصيرة ، وان استبانت منها كل ما كانت تتوق الى معرفته . وكانت تعنى مضمونا « تهيأى لاطلاق ساقيك للريح ، عندما تصلين الى رصيف الميناء » . وقد بعثت هذه الكلمات القليلة فى نفسها الحياة ، وخفق لها قلبها .

أن تشاك حر طليق ! أن تشاك معنى بامرها ! ان تشاك سيخف الى نجدتها ! وتملكتها رغبة جامحة فى ان تطلق عقيرتها بالغناء . لفرط سعادتها . وكانت تجلس الى جانب ايدى فى تلك السيارة العتيقة ، وكأنها عربة من عربات الاساطير ترتفع بها الى السماء . أن تشاك لم يغفل عنها . وأحست بعبراتها تكاد أن تنهمر ، هناء ، ورضاء ، واطمئنانا . ان سعادتها مضاعفة مزدوجة . سعادتها بسلامته . وسعادتها بانه لم ينسها . ان هذا السر الذى ينطوى عليه صدرها ، يساوى مليون مرة تلك الثروة التى يكتنز بها جيب ايدى . انها ستجد نفسها بعد بضع دقائق فى أمان الى جانب تشاك ! وبعد ذلك يمكن أن تجرى الامور كما تشتهى . وركزت تفكيرها فى تنفيذ

الامر الصادر اليها من هذا الرجل أولته ثقتها ، ومنحته قلبها !

واجتازت السيارة أبواب الرصيف فى اتجاه اليخت · وكان الهدوء شاملا والسكون مخيما · وشعرت زاريا بأنها تنفض عنها ما أخذت به نفسها من ضبط النفس ، لتكون على أهبة الاستعداد لما هى مقبلة عليه ، ولتصبح كلها أعصابا مرهفة ، بما من شأنه أن يتفق مع ما هى بسبيل اجتيازه من تلك المرحلة التى تفوق كل ما مضى من مراحل ، أهمية وخطورة ·

وهدأت السيارة من سيرها · وكانت تشاهد اليخت « الساحرة » عن بعد ، تتألق بخيوطها البيضاء فى الظلام · وكان ايدى أول من غادر السيارة ، ثم تبعته زاريا · ووقف يبحث فى جيوبه قبل أن يقول لفيكتور :

ـ هل أجد معك نقودا صغيرة ؟

ـ أظن ·

وأردف فيردون قائلا :

ـ معى بعضها ·

وشغلوا جميعا بالبحث عما يريدون · وحينئذ سمعت زاريا صوتا صغيرا صادرا من ظلال المخزن القائم الى يسارها · فاستدارت تطلق ساقيها للريح ، فى اتجاه مصدر الصفير ·

الفصل الثالث عشر

وبينما اندفعت زاريا لا تلوى على شىء ، سمعت من يصيح فى أثرها · وشعرت وكأنها فى حلم ثقيل ، لا تنطلق بها ساقاها فرارا من رعب خفى لا تعرف كنهه · ثم ، وفى غمار هذا الفزع القاتل ، وجدت انها بلغت من عدوها ظلال بعض المبانى حيث شعرت بيد تمتد وتمسك بيدها ·

وأدركت لمن تكون هذه اليد ــ وان كانت لم تر صاحبها لشدة الظلام ــ وشعرت بما يشعر به المشرف على الفرق حينما تمتد اليه يد تنتشله ·

وسمعت شفتيها تردد عن غير وعى منها وهى تنتحب :
ــ تشاك ! تشاك !

ثم اندفعا معا فى الظلام دون ان يتبادلا كلمة وقد أخذ تشاك بيدها وكأنه واثق من موضوع اقدامه · وتكاثرت الاصوات فى أثرهما ، وتبينت زاريا من بينها صوت ايدى يسب ويلعن وفيكتور مناديا :
ــ زاريا ! زاريا ! أين أنت ؟ عودى فورا ·

وكان صوته آمرا ، وأن لم يخل من نبرة خوف · وتوقف تشاك فجأة · وكانت عينا زاريا قد اعتادت الظلام مما أتاح لها ان تتبين أنهما بلغا من عدوهما مجموعة

كبيرة من البراميل صفت فوق بعضها البعض ، وأتاحت لهما ساترا يحتميان به · واستطاعت زاريا أن تشاهد من حيث تقف اليخت « الساحرة » يزهو بجماله تحت أضواء الميناء · وسمعت صوت ايدى منذرا ، يهددها بالويل والثبور اذا لم تعد أدراجها ! ولكن زاريا لم تعره التفاتا ، ولم تعد تبالى بتهديده · فحسبها أن تشعر بوجود تشاك الى جانبها ·

وكان يقف هانئا ، ساكنا ، ولما يزل ممسكا بيدها · ومدت يدها الاخرى تربت بها على ذراعه قائلة :

ـ انك فى أمان ! انك فى أمان ! لقد استبد بى الخوف من أجلك ·

فقال لها ، بصوته العميق ، متحريا ألا يرتفع به :

ـ لقد قلت لك أن تثقى بى ·

ثم لم يكن ثمة بينهما مجال للكلام · فطوقها بذراعيه يضمها الى صدره · ورفعت اليه وجهها بتلك الحركة الغريزية التى تولى بها الزهور وجهها شطر الشمس · وتلمس شفتيها يودعهما قبلة أنستهما العالم وما فيه ، وشعرت معها بأن لحظات حياتها قد تجمعت فى تلك اللحظة الخالدة ·

وأيقظهما من حلمهما الهانىء ، صوت ايدى الهادر يزداد اقترابا منهما ·

ـ زاريا ! أين أنت ! ألا لعنة الله عليك ! ستدفعين ثمن هذا غاليا !

واستمدت من سعادتها قوة · وظلت ساكنة فى مكانها ، وقد تعلقت بذراع تشاك الذى كانت تجد الامان فى قربه منها · وعاد صوت ايدى ليبتعد عنهما · وسمعت صوت تشاك يبادرها بقوله :

– أحبك . اعتقد أنك تدركين هذا ؟
ودفنت زاريا وجهها فى كتفه . واستطرد تشاك :
– اننى معجب بشجاعتك . لقد كنت رائعة . والان ، لقد انتهى كل شيء .
– ماذا تعنى ؟
– لسوف أطلعك على كل شيء .

وأخذ بيدها فى حذر وصمت الى حيث صارا على مقربة من اليخت . واستطاعت زاريا من موقفها هذا أن تلقى بنظرة شاملة على الرصيف وعلى الصقالة لترى كلا من ايدى وفيكتور يتجهان اليها وكانا يتبادلان حديثا غاضبا ، لم تتبين زاريا منه شيئا . ثم طرقت سمعها من بعد كلمة « المشعل » التى أوحت اليها انهما يعتزمان ان يأتيا بمشعل من اليخت يستعينان به فى البحث عنها .

ولم تأبه لهذا الخاطر . فحسبها أنها فى صحبة تشاك . أنها لم تعد تخشى شيئا أو أحدا وبينما هى فى خواطرها هذه اذ بتشاك يوجه نظرها الى حيث رأت كلا من ايدى وفيكتور فى طريقهما الى ظهر اليخت عبر الصقالة ثم يسرعان الخطى الى باب القاعة الكبرى الذى اجتازاه فى عجلة وبعد لحظة استمعا الى أصوات ضوضاء وجلبة أعقبها صوت صرخة مدوية اندفع فى أثرها ايدى من الباب الى السطح وهو يخرج مسدسا من جيبه . ثم أطلق النار ، وتتالت بعد ذلك طلقات أخرى وخيل الى زاريا أنها تشاهد فيلما سينمائيا حينما ابصرت بايدى يترنح ثم يسقط وبعدد من الرجال يندفعون من باب القاعة الكبرى . رجال يرتدون زى جنود الجيش الفرنسى وقالت زاريا فى ذهول :
– ماذا ... ماذا جرى ؟

وأمسك تشاك ذراعها يقفل بها راجعا من حيث تقدما وهو يقول :

ـ لقد انتهى كل شيء · هيا بنا · فلا يوجد ما يدعـو الى بقائنا هنا ·

ـ ولكننى ·· ولكننى لا أفهم ··

وامسكت زاريا عن الكلام ، اذ تحققت من أن تشاك ليس مستعدا لايضاح شيء فى ذلك اللحظة فرأت أن تلوذ بالصمت وتتبعه عبر البراميل والمخازن الى الطريق حيث وجدا سيارة فى انتظارهما ولم يكن فى السيارة قائدها · وفتح تشاك بابها حيث اجلس زاريا ، ثم جلس أمام عجلة القيادة ، ليسمع زاريا تقول :

ـ لست ·· لست أفهم شيئا ·

ورأت تشاك يستدير ليتأمل وجهها · وأدركت من نظراته انه كان صادقا فيما قاله لها أنه يحبها فعلا · هذا ما تنطق به عيناه ، وشفتاه ، وكل بادرة من ملامح وجهه · ولم تجد بها حاجة لمزيد من القول · فحسبها أن تتحقق مما تحققت من تعابير وجهه · ثم وجدته يسرع بطبع قبلة فوق شفتيها ثم يردف قائلا :

ـ أعبدك · والان ، فلتستعدى لاننا سننطلق بأقصى سرعة ·

وحبست زاريا أنفاسها ، وهى تراه يقود السيارة مندفعا بها بعيدا عن الميناء · ثم متجها بها عبر المدينة الى الطريق المتعرج بين المنحدرات التى تكسـوها الاشجار ، والتى أضفت على الجـزائر جمـالها منـذ الازل ·

ولم تكن زاريا لتدرى الى أين يتجهان · وكانت تدرك

ان تشاك كان راغبا عن الاجابة عن أى سؤال يوجه اليه ، مما حدا بها الى التزام جانب الصمت ٠

وواصلا طريقهما ، مخلفين من ورائهما البيوت ، ليمضيا قدما بين حدائق البرتقال والليمون والنخيل ٠ وكانت ترى فى كل ما حولها سحرا ، وجمالا ، مما يحكى عنه فى كتب الاساطير ٠

وانحرفت بهما السيارة لتجتازا بابا كبيرا ، يؤدى الى ممشى على جانبيه أشجار الليمون الخضراء وأخيرا توقفت بهما السيارة أمام فيللا ضخمة ، بيضاء ، ضاعف ضوء القمر من بهائها ٠ وبادرته زاريا بسؤالها :

— لماذا توقفنا هنا ؟

— ولم يكن من تشاك الا أن هبط من السيارة ، واستدار حولها ليفتح بابها الاخر ٠ فعادت تلح فى السؤال :

— أين نحن ؟

فجذبها برفق لتقف الى جانبه ، ثم طوقها بذراعيه قائلا :

— لقد جئت بك الى منزلك ٠

— منزلى ؟

— فليكن ، الى منزلى أنا بحسب ما كان ٠ والى منزلنا بحسب ما سيكون ٠

— لست ٠٠ لست أفهم شيئا ٠

فضحك تشاك ، وهو يأخذ بوجهها بين يديه قائلا :

— ان جلاء الامور لا يعنينا الان فى كثير أو قليل ٠ اننى أحبك ، ولنقنع بهذا مؤقتا ٠

— وهذا ما وطنت نفسى عليه ٠

وضمها اليه يعانقها ويمطر وجهها قبلا ٠ ثم خلى ما بينه وبينها ، ومشيا الى باب الفيللا ذراعا فى ذراع ٠

وفتح الباب ، ليجتازاه الى بهو فسيح ، سارا عبره الى غرفة تغمرها الأضواء التى انعكست على أثاثها الفاخر وعلى لوحاتها الجميلة · وبمجرد دخولها الى الغرفة ، نهضت سيدة عن مقعدها ، وصاحت ترحب بهما قائلة :

ـ لقد عدت أخيرا ، يا عزيزى ! لقد انتابنى قلق شديد ·

واقبلت عليهما مادة ذراعيها ، وتبينت زاريا الشبه القريب بينها وبين تشاك · وقبلها تشاك وهو يقول لها :

ـ كل شيء على ما يرام ، يا والدتى ، وها هى زاريا · لقد قلت لك أننى سأعود بها اليك !

واتجه الى زاريا ، موضحا :

ـ اليك والدتى ، يا حبيبتى · الكونتيس دى شاتيلنف ·

وابتسمت الكونتيس ، التى رات فيها زاريا سيدة من اجمل من وقعت عليها عيناها جمالا · سيدة طويلة القامة ، رشيقة ، سنجابية العينين فى وجه بيضاوى ، يتوجه شعر ناصع البياض ·

وقالت السيدة فى صوت رقيق :

ـ اذن فهذه هى زاريا ·

ـ أنها ما زالت فى حيرة من الامر كله ·

ـ هذا ما ادركته · تعالى ، اقدم اليكما بعض الشطائر ومشروبا ينعشكما ، أم لعلكما تريدان أكثر من هذا ؟

ـ هذا كل ما نبغيه الان ، يا أماه ·

وتقدمتهما الكونتيس الى طرف الغرفة المجاورة ، حيث كانت قد اعدت لهما مائدة تزخر بمختلف الوان الطعام والشراب واتجهت السيدة الى زاريا قائلة :

ـ اننى جد سعيدة بقدومك · ومنذ أن علمت من ولدى أمر هؤلاء القوم الاشرار ، وأنا قلقة من أجلك ·

وأخيرا ، استطاعت زاريا أن تقول :

ـ لقد .. لقد كنت أعتقد أنك مريضة .

وضحك تشاك قائلا :

ـ أماه ، أجد لزاما على أن أعترف بأننى جنحت للكذب مضطرا . وأنك تعرفين انه كان من المتعين أن اتواجد فوق ظهر اليخت ، بوسيلة او بأخرى . ومن هنا كان من الضرورى أن أقول لزاريا أنك مريضة ، علاوة على ما افتريته من أكاذيب أخرى وما اختلقته من شخصيات أخوة لى غير اشقاء يحاولون أن يحولوا بينى وبينك .

ـ لقد بالغت فى اكاذيبك ، يا ولدى . وانك لتعرف أننى اكره الكذب مهما كان لونه أو الدافع اليه . ألم يكن فى وسعك أن تصارح زاريا بحقيقة الامور ؟

ـ لئن كنت قد قلت الصدق لما كانت زاريا قد اقتنعت به .

ـ اذن ، فيحسن بك أن تعجل بمصارحتها بكل شىء . وبعد أن تنتهى من ذلك ، أرجو أن تقوم بازلة هذه الصبغة الكريهة من شعرك . اننى لا أطيق رؤيتك بهذه الصورة .

وابتسمت السيدة لكل منهما ، ثم وضعت يدها فوق كتف زاريا قائلة :

ـ سأوى الى فراشى الان ، لاننى أعرف أن ثمة الكثير مما تريدان أن تتبادلا الحديث فيه . وفى الواقع اننى مريضة ، وعلى أن أعتنى بصحتى . وسيفضى ولدى اليك بكل شىء قبل انصرافى ـ فلطالما تمنيت أن يكون لى ابنة الامر الذى أرى أنه قد تحقق لى .

وأودعت وجنة زاريا قبلة حانية . وقبل أن تتمكن زاريا من مبادلتها قبلتها ، أسرعت السيدة عبر الغرفة ، وفتح تشاك الباب لها لتمرق منه كالنسيم .

واغرورقت عينا زاريا بالدمع من فرط تأثرها · انها لم تألف من قبل مثل هذا الحنان ، وذاك الود وكان يخيل اليها آنها فى حلم جميل ، وأنها سرعان ما ستصحو منه لتجد نفسها حيث كانت من وحدة ، وضياع ، وشعور بالوحشة ، حين كانت تبكى الليالى الطوال ·

واقترب تشاك منها متسائلا :

ـ كيف وجدت والدتى ؟

ـ رائعة ·

غير أنه تبين أن عبراتها تحتنقها · فأحاطها بذراعه قائلا :

ـ فيم هذه العبرات ؟ لا يوجد ما يستدعى ذلك ·

ـ بل يوجد · أنها دموع السعادة · اننى لا أصدق ما أرى ·

وقام تشاك بصب كأسين من الشمبانيا قائلا :

ـ اليك كأسك ، لنشرب نخبا قبل أن نفعل شيئا آخر ·

وأطاعته زاريا ، ورفعت كأسها ، فقال لها فى هدوء :

ـ نخب مستقبلنا الساحر الباهر ! بأمل أن ننسى كل شيء عن الماضى ·

وبعد أن أفرغا كأسيهما ، أخذ بيدها الى أريكة موسدة أمام نافذة عريضة تطل على حديقة يغمرها ضوء القمر الفضى · وسألها :

ـ من أين نبدأ ؟ أعرف أن الفضول يستبد بك ·

ـ ليس الى هذا الحد · دعنا من هذا الان · ان كل ما يعنينى هو الحاضر .

ـ هذا ما كنت أتوق الى سماعه منك · زاريا ، اننى عاجز عن التعبير عن حبى لك · ولقد أسعدتنى بما سمعته منك ·

– اننى من هول ما لقيت فى ماضى حياتى ، فى خوف من المستقبل أننى سأظل الى جانبك أقوم على رعايتك ، واعمل على تحقيق سعادتك ، مع الحرص على أن أخرجك من ظلال الماضى البغيض . لقد انتهى الكابوس ، يا زاريا . ولا يوجد سوى الصباح المشرق الباسم أمامنا .

وانهمرت العبرات من عينيها . ثم أردفت قائلة :

– اننى ابكى من فرط سعادتى . انها دموع الهناء الغامر . ما كنت أدرك أن الحب يفعل بالمرء هذا .

– ان هى الا البداية . ان أمامنا الكثير مما يجب أن تكتشف . الا تعرفين أننى عالم عاديات

– او حقا ما تقول ؟ يسعدنى أن أعرف هذا .

– وسنقوم بحفرياتنا بمجرد زواجنا . هل يسعدك أن تمضى شهر العسل معى فى مثل هذا العمل ؟

ولما لم تعقب زاريا بشىء ، استطرد يسألها :

– اننا سوف نعقد قراننا ، أليس كذلك ؟

– اهو عرض من جانبك ؟

– لم يسبق أن دار بخلدى التقدم بهذا العرض على أحد من قبل . كما أننى لن اتقدم به لاحد سواك . أنك الفتاة التى كنت ابحث عنها .

وأمسكت بيده ترفعها الى شفتيها . فأسرع يعانقها قائلا :

– انك لا تعرفين ماذا اسبغت على من هناء . وأنه ليطيب للرجل ان يشعر بأن ثمة من يحبه لشخصه – حبا مجردا عن كل أعتبار آخر .

ولم تستطع كلاما . وأخيرا أطلقها من بين ذراعيه قائلا :

– أنك بحاجة الى الكثير من الراحة . غير اننى أريد ،

قبل أن تأوى الى فراشك ، أن أحيطك علما بكل شيء لكى لا تقض مضجعك تلك الاسئلة الحائرة التى تتردد فى ذهنك ٠

ـ ثمة سؤال يجب أن أسمع الاجابة عنه ٠ لماذا صبغت شعرك ؟

ـ لقد صبغته لنفس السبب الذى حدا بى الى وضع عويناتى القاتمة ٠ لاننى اذا لم أكن قد فعلت هذا ، اتضح الشبه القريب بينى وبين الرجل الذى عرفته على أنه مستر فيردون ٠

ـ الشبه القريب بينكما ؟ أهو ٠٠ هل يمت بصلة القربى اليك ؟

فضحك تشاك وهو يراها مقطبة جبينها قائلا :

ـ كلا ٠ أنه ممثل تصادف وجود شبه كبير بينه وبينى ٠٠ ألم تستطيعى أن تحرزى بعد أننى كورنيليوس فيردون !

واستبدت الدهشة بزاريا ، وأذهلتها المفاجأة فاستطرد :

ـ أعتقد انك لا تعارضين فى هذا ؟ لقد خشيت ، لئن لم أجعل من نفسى هذا البائس الفقير ، ألا تعيننى فيما كنت انشده من الانضمام اليكم ٠ ولذلك أرجو أن تغفرى لى ما لجأت اليه من كذب ٠

ـ ولكننى لم أدرك بعد السر فى هذه الدورة بأسرها ؟

ـ هذا ما سأوضحه لك ٠ لقد رأيت أن ايدى مورجان رجل منحرف ، شرير ٠ أنه أحد كبار مهربى السلاح المعروفين ٠

ـ مهرب سلاح ٠

ـ أجل ، بواسطة حقائب مدام بيرتان ٠ لقد كانت قطع

السلاح مخبأة فى قاع حقائبها العديدة تحت ثيابها النموذجية .

ـ رباه ! عجبى لما أسمع ! ولكن ، ماذا سيكون من أمر مدام بيرتان ؟

ـ سيكون مصيرها السجن · وأن كنت أعتقد أن الحكم سيكون مخففا · أن الفرنسيين قوم تأخذهم الرأفة بالنساء · أما كيت فلن يقوم دليل على ادانتها ·

وما أن سمعت زاريا اسم كيت ، حتى أشاحت بوجهها عنه تتطلع الى الحديقة · فتساءل تشاك قائلا :

ـ أنك لا تغارين منها ، أليس كذلك ؟

ـ ولكننى لمست أعجابك بها ·

ـ كان هذا بديهيا · اذ كنت أحاول بهذا أن أحصل على بعض المعلومات التى أستعين بها على اماطة اللثام عن الكثير مما غمض على · لعلك قد أدركت الان السبب الحقيقى فيما بدأ منى ؟

ـ الم تكن معجبا بها فى لحظة ما ؟

فابتسم تشاك قائلا :

ـ سأفضى اليك بشىء · كنت أعرف أن ثمة سكرتيرة ستكون فى انتظارى بمرسيليا · وكنت أرجو أن أجد فى هذه السكرتيرة الفتاة التى أنشدها كمعاونة لى · غير أننى منذ أن وطأت قدماى غرفة نومك ووقع نظرى عليك ، عرفت فيك فتاة أحلامى التى كنت أتوق الى أن ألتقى بها طوال حياتى ·

ـ كيف ؟ لا يمكن أن يكون هـذا هو ما تبـادر الى ذهنك ، حينذاك ، فقد كنت أبدو رزية الهيئة ·

ـ بل لقد كنت الفتاة الصغيرة ، الرقيقة ، الحنون ، التى تبدو كمن أسى اليها . أما ما تزعمينه فيما عداذلك ،

فهو أبعد ما يكون عن الحقيقة · زاريا أنك لا تعرفين كم أنت جميلة !

ـ انك لا تقول الحقيقة ·

وأطرقت زاريا برأسها حياء · فقال لها بصوت رقيق :

ـ سيأتي يوم تقتنعين فيه بما اقول . والآن اجد لزاما على أن أواصل سرد قصتى ·

ـ ولكن ، كيف قدمت الى مرسيليا ؟

ـ هذا ما كنت بسبيل أن أحكيه لك · لقد قمت باستئجار اليخت بغرض اجراء بعض الحفريات التى دعانى اليها ماسمعته عن موقع أثرى جديد فى شمال الجزائر ، ولزيارة والدتى بالتالى ·

وأعددت العدة للرحيل عن أمريكا ومغادرة مسكنى بنيويورك بعد تجهيز حقائبى · وبينما كنت فى طريقى بسيارة أجرة الى الميناء ، وحينما توقفت السيارة بى أمام احدى اشارات المرور فى طريق جانبى ، صعد اليها رجلان لا أعرفهما · وليس من شك فى أن سائق السيارة كان متفقا معهما ، لانه لم يحاول أن يتوقف ثانية أو يفعل شيئا استجابة لاستغاثتى · وكان أن وجها الى ضربة قاضية بهراوة من المطاط ·

ـ هذا ما يفسر الكلام الذى حيرنى أمره ·

ـ تماما · ووجدت أنه من الخير لى أن ادعى الاغماء ، بعد أن بدأت أفيق ، تجنبا لمزيد من الاعتداء على · وسمعت احد الرجلين يقول للاخر « أمسك عن مواصلة ايذائه ! ان ايدى لا يريد أن يبدو بالجسم اى اثر للاعتداء ·· أنه فاقد الوعى وهكذا لم يحدث أننى تعرضت لاعتداء ثان بينماكنت واعيا لما يجرى من حولى ·

ـ كان من الممكن أن يعتدوا على حياتك !

– وهذا ماكانوا يعتزمونه فيما بعد · فقد جردونى من ثيابى والبسونى حلة مهلهلة كانت معهم ثم مضوا بى الى بقعة مهجورة عند حافة المياد ، حيث القوا بى فيها ·

فصاحت زاريا فى فزع :

– لكى تموت غرقا !

– أجل ، هذا ما كانوا يبغون فيبدو الامر على أنه حادث انتحار ، حينما تنتشل جثتى ·

– وماذا حدث بعد ذلك ؟

– سبحت تحت سطح الماء مبتعدا عنهم · وكانت تجربة قاسية قبل ان أطفو ثانية الى السطح لاتبين اختفاءهم · ثم كان أن عدت ادراجى الى مسكن صديق لى من ضباط الشرطة ، لاميط اللثام عما خفى من مسببات هذا الاعتداء الوحشى ·

– ولماذا لم تعمد الى القاء القبض عليهم ؟

– لانهم كانوا قد أبحروا ، أولا · ولان صديقى كان قد قام ببعض التحريات مما من شأنه أن حفز بى الى التصميم على تعقب آثارهم الى أوروبا ، ثانيا · لاننى كنت قد عقدت العزم على أعتقال المجرمين ملتبسين ·

– على الرغم مما فى هذا من مخاطرة ؟

– أجل ، على الرغم مما فى ذلك من مخاطرة · لقد علمت من صديقى بأن ايدى رجل شرير لم توفق الشرطة فى أعتقاله أو فى اثبات مقارفته لجرائمه العديدة على الرغم مما كانوا يعرفونه عنه بما لا يقبل مجالا لشك · ولم تكن جرائمه قاصرة على تهريب السلاح ، بل تجاوزت ذلك الى الاتجار فى المخدرات ·

وهذا ما يفسر تلك السجائر

– أجل أن مستر ايدى مورجان لا يتورع عن اى شىء

يدر عليه مالا ، ما أن تحين له الفرصة .

– كان من الممكن أن يقتلوك لاكتشافك حقيقة أمرهم !

– هذا ما لم يكن مستبعدا . علاوة على أن هذه الصفقة كانت من الدسامة بحيث لا يحجمون عن ارتكاب أى شيء للفوز بها . ومن هنا كان من المعين تحرى الدقة فى الايقاع بهم .

– ولكن ، أنى لهم تلك المعلومات التى دعتهم الى تدبير ما دبروا ؟

– لا أعرف اكثر مما دابت عليه الصحف من الكتابة عنى كمعتزل مغرم بالاسفار بمفرده . وكانوا يعرفون أننى لا اصطحب معى خادما . كما كانوا يعرفون أننى أعتزم القيام بهذه الرحلة الى افريقيا لانجاز بعض الحفريات .

– ومن هنا كان قرارهم انتحال شخصيتك ؟

– أجل ! ان ما كانوا بحاجة اليه ، هو يخت . فاذا ما تخلصوا منى ولم يتعرف أحد على جثتى ، يتحقق لهم الشيء الوحيد الذى ينقلون به بضاعتهم المهربة .

– وكيف وفقوا الى الاهتداء الى الممثل الذى انتحل شخصيتك ؟

– عن طريق المخدرات ، فيما أعتقد . انه شاب غافل ، فاشل وقع بين براثن ايدى ، الذى استغله ايما استغلال . وبمجرد أن وقع نظرى عليه فى اليخت ، تعرفت عليه . اذ سبق لى أن شاهدته يقوم بدور صغير فى أحد مسارح برودواى ، وكان وجه الشبه بينى وبينه ملحوظا .

– ولكنك كنت قد صبغت شعرك من قبل ؟

– لاننى لم أكن أريد أن يتعرف على ايدى ، أو غيره . وبالذات لان صورتى كانت تنشر كثيرا بالصحف .

– أتعرف أننى لا أحب أن ارى شعرك بغير لونه الذى ألفته ·

– اذن ، فلسوف أواصل صباغته ·

– لقد عثرت بالزجاجة فى أحد أدراج غرفتك وكنت فى حيرة من أمر وجودها ·

– لعلها قد ضاعفت من شكوكك · لقد سببت لك كثيرا من الحرج · ومع كل هذا ، فانك لم تتخلى عن ثقتك بى ·· ولعلك أدركت الان السر فى حرصى على ما أخذت نفسى به من كتمان · وقد كنت أراعى فى ذلك سلامتك ، قبل كل شىء · لانهم لو عرفوا أنك اطلعت على سرهم لما تورعوا عن الحاق الاذى بك ، وأن بلغ بهم هذا حد الالقاء بك الى اليم · أنهم قوم خطرون · ولقد علمت بان ثمة حوالى الست جرائم قتل منسوبة اليهم ، ولم يقم الدليل على مقارفتهم لها · هؤلاء هم القوم الذين خاطرنا بمعايشتهم لفترة ما ·

– أريد أن أعرف السبب الذى حدا بالشيخ ابراهيم بن قدور الى شراء هذه الاسلحة ، وما هو وضعه على وجه التحديد ؟

– أن الشيخ واحد من كبار الثوار ضد السلطات الفرنسية · وكان يجب أن يضبط ايدى مورجان متلبسا ، ولذلك لم أشأ أن أكشف عن حقيقة أمرى حينما عثروا بالمخدرات فى درجى ، وآثرت أن ألوذ بالفرار ، لكى يتسنى لى مواصلة ما خططت له ·

– لقد خاطرت كثيرا · لقد كان من الممكن أن ينالوا منك حينما كنت تسبح بعيدا عن اليخت ·

– لقد كان الامر كله مخاطرة تلو المخاطرة · وكان من المتعين أن تتم الجريمة بحيث لا تدع فرصة لايدى لكى يفلت من العقاب ، كما حدث فى جرائم كثيرة من قبل ·

وقد كنت حريصا على الا تكونى على ظهر اليخت عند القيام باعتقال ايدى ، خشية حدوث مالا تحمد عقباه ولقد شاهدت ما كان من تبادل اطلاق النار بين الضباط وبين ايدى ٠ وكان من الممكن أن تنال منك رصاصة طائشة ٠

– أنك لم تدع شيئا دون أن تحتاط له ٠ أننى جد فخورة بك ٠ وعلى الرغم مما كان يحوطك من غموض فاننى لم أفقد الثقة بك ٠

– أرجو أن تدوم بيننا هذه المشاعر النبيلة ٠

– أننى لم اشفق على احد منهم ، فيما عدا مدام بيرتان ٠ لقد لقيت منها عطفا ومودة ٠ علاوة على ما كان لها من فضل فى انتقاء بعض الثياب لى وما لمسته منها من حدب على ٠

لقد قضت الظروف عليها بان تصبح من زمرتهم ٠ انها مسرفة ومقامرة الى حد الادمان ٠ ومن هنا كانت حاجتها الدائمة الى المال ٠ وكان من الممكن أن تجمع ثروة لا بأس بها بفضل براعتها فى تصميم الازياء ٠ غير أن الديون تكاثرت عليها ، مما استتبع وقوعها بين براثن ايدى ، الذى وعدها بمبلغ طائل من المال ، علاوة على مساندتها فى افتتاح هذا المتجر بالمدينة اذا ما عاونته فى تهريب صفقته ٠

– يا لمدام بيرتان المسكينة !

– سأحاول أن أتصل باصدقائى بشانها ، على أساس انها أرغمت على ما اشتركت به ، واكرهها ايدى على ذلك قسرا ٠ وسوف أقوم بهذا ارضاء لك ٠

– ارجوك ٠ أرجوك أن تفعل هذا ٠

– ولئن فعلت هذا من أجلك ، فماذا عساك أن تقومى به من أجلى ٠

– وماذا تريد منى أن أفعل من أجلك ؟

– لست أريد منك وعدا بالزواج فحسب ، بل أريد منك أن تصارحينى بما لم تصارحينى به من قبل هل تعرفين ما هو ؟

– أجل ٠٠ ولكنك ٠٠ تعرف ما تريد سماعه منى ٠

– أننى ألح فى أن أسمعه منك ٠ اننى أحبك بكل حاسة من حواسى ٠ وأن كنت لا أعرف عنك الكثير اللهم الا أنك الفتاة الرائعة ، التى فتنتنى بما لم يفتن به من قبل ٠

فأطرقت زاريا قليلا ، لتقول ٠

– لقد تبادر الى ذهنى خاطر الان ٠

– وماذا عساه أن يكون ؟

– لقد أنسيته فعلا ٠ تشاك ! اننى لا ألقب ببراون ٠ ولا أمت لهذا اللقب بصلة ٠٠ أننى زاريا مانسفورد ٠ ووالدى هو البروفيسور مانسفورد – وربما تكون قد سمعت باسمه ٠

– بكل تأكيد ٠ لقد اطلعت على كتابه الاخير قبل مغادرتى لنيويورك ٠ وفيم كان هذا التخفى ؟ هل ثمة من داع له ؟

– أجل ٠ لاننى ٠٠ أملك اليخت « الساحرة » !!!

وحملق تشاك فى وجهها غير مصدق لما سمعه منها ٠ ثم انفجر ضاحكا وهو يقول :

– المالكة الجديدة ! لقد حدثنى جيم عنها ٠ ابنة أخ مس كاردو التى لم يقع نظر أحد منهم عليها ولا يعرفون عنها شيئا ٠

– هذا ما قضت به الظروف ٠٠ الظروف المواتية ٠٠ التى يدبرها القدر أحيانا ٠ فقد حدث أن دوريس براون رفضت الوظيفة فى آخر لحظة ٠ فكان أن انتهزت الفرصة لاحل محلها ٠ لقد كانت على وشك عقد قرانها ٠

– سنبعث اليها بهدية زواج لم يسبق لها مثيل ٠ فلولا

زواجها هذا لما قدر لنا أن نلتقى · تحياتى لدوريس براون :

ثم رفع يدها يطبع فوقها قبلة قبل أن يستطرد قائلا :

– وهكذا ، فلست بعد الفتاة المفلسة الهائمة · أنك الفتاة الثرية ، مالكة اليخت « الساحرة » ·

– تشاك ، أرجو ألا يفسد هذا مبيننا :

– لا يوجد ما يمكن أن يسىء الى حبنا · أنك ستظلين ، كما كنت الفتاة التى استحوذت على لبى · أنك ساحرتى الرقيقة ، دائما والى الابد ، ما امتدت بنا حياة · والان فلتحدثينى بما أصبو الى سماعه منك ·

وترددت زاريا قليلا ، ثم اندفعت الدماء الى وجهها ، واختلجت عيناها ، قبل أن تهمس قائلة وهو يضمها بين ذراعيه :

– أحبك ·· أحبك من كل قلبى يا تشاك ·

تـمـت

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧١ / ٤٤٧٤

مطابع الاهـــرام التجارية